التّفسير الجَامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ التّاسع عشر

سورة الفُرْقَان (٢١-٧٧)

سورة الشُّعَرَاء (١-٢٢٧)

ســـورة النَّمْـــل (١-٥٥)

سُورَةُ (الفُرْقَانِ)

الآيات: (٢١-٧٧)

تتمّة سورة الفُرْقَان

(الآية ٢١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾: ومن الّذي لا يرجو لقاء الله ﷻ؟! قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[1]، واللّقاء: يعني البعث، ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطفّفين]، وقد آمنّا بالله ﷻ غَيْباً، وفي الآخرة نؤمن به ﷻ مَشْهداً: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: من الآية ١٦]، حتّى مَنْ لم يؤمن في الدّنيا سيؤمن في الآخرة.

﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾: يعني: لا ينتظرونه ولا يؤمنون به؛ لذلك لم يستعدّوا له، لماذا؟ لأنّهم آثروا عافية العاجلة على عافية الآجلة، ورأوْا أمامهم شهواتٍ ومُتَعاً لم يصبروا عليها، وغفلوا عن الغاية الأخيرة.

واللّقاء يعني الوَصْل والمقابلة، لكن كيف يتمّ الوَصْل والمقابلة بين الحقّ ﷻ وبين الخَلْق؟! هذه من المسائل الّتي كَثُر فيها الجدال، وحدثت فيها ضجّة شكّكتْ المسلمين في كثير من القضايا، فمنهم مَن قال: اللّقاء يقتضي أن يكون الله ﷻ مُجسّماً وهذا ممنوع، وقال آخرون: ليس بالضّرورة أن يكون اللّقاء وَصْلاً، فقد يكون مجرّدَ الرّؤية؛ لأنّ رؤية العَيْن للرّبّ ليست

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابٌ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، الحديث رقم (٦٥٠٧).

لقاء، وهذا قول الجمهور، أمّا المعتزلة فقد نفَوْا حتّى الرّؤية، فقالوا: لا يلقونه وَصْلاً ولا رؤية؛ لأنّ الرّائي يحدّد المرئيّ، وهذا مُحَالٌ على الله عزّ وجلّ، والإجابة على المعتزلة: هم يأخذون المسائل بالنّسبة إلى الله عزّ وجلّ، كما يأخذونها بالنّسبة إلى مخلوقاته سبحانه وتعالى وهذا خطأ، يجب أن يأخذوا كلّ شيء بالنّسبة إلى الله جلّ جلاله في إطار: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فإذا كان اللّقاء يقتضي الوَصْل، فللّه سبحانه وتعالى لقاء لا يقتضي الوصل، وإذا كانت الرّؤية تحدِّد، فللّه سبحانه وتعالى رؤية لا تُحدَّد، إنّ لك سَمْعاً، ولله سبحانه وتعالى سمعٌ، فهل سمعُك كسمع الله عزّ وجلّ؟ بالتّأكيد لا، فلماذا تريد أن يكون لقاء الله عزّ وجلّ كلقائك يقتضي تجسُّداً، أو رؤيته كرؤيتك؟! لذلك في قصّة رؤية سيّدنا موسى عليه السلام لربّه عزّ وجلّ، ماذا قال موسى عليه السلام؟ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، فطلب من ربّه عزّ وجلّ أن يُريه؛ لأنّه لا يستطيع ذلك بذاته، ولا يصلح لهذه الرّؤية، إلّا أن يُريه الله سبحانه وتعالى ويطلعه، فالمسألة ليست من جهة المرئيّ، إنّما من جهة الرّائي، لكن هل قرّعه الله سبحانه وتعالى على طلبه هذا، وقال عنه: استكبر وعتا عُتُوّاً كبيراً كما قال هنا؟ لا، إنّما قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، ولم يقُلْ سبحانه وتعالى: لن أُرى، وفرْق بين العبارتين، ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]؛ لأنّك في الدّنيا، المنع هنا ليس من المرئيّ بل المنع من الرّائي؛ لذلك أعطاه ربّه عزّ وجلّ الدّليل: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، يعني: أأنت أقوى أم الجبل؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، والإنسان أكرم من الجبل، ولكن تركيبته وطبيعته لا تصلح لهذه الرّؤية، وليس لديه الاستعداد لتلقّي

الأنوار الإلهيّة؛ ذلك لأنّ الله ﷻ خلقه للأرض، أمّا في الآخرة فالأمر مختلف؛ لذلك سيُعدِّل الله ﷻ هذا الخلق بحيث تتغيّر حقائقه ويمكنه أن يرى، وإذا كان موسى عليه السلام قد صُعِق لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل، فكيف به إذا رأى المتجلِّي ﷻ؟! لذلك، كان من نعمة الله ﷻ على عباده في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة]، وقال عن الكفّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطفّفين]، فما يتميَّز به المؤمنون عن الكافرين أنّهم لا يُحجبون عن رؤية ربّهم ﷻ، وذلك بعد أنْ تغيَّر تكوينهم الأُخْرويّ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه في الدّنيا، وإذا كان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يزِيد من بصرهم ورؤيتهم، فلماذا تجادلون وتنكرون؟ لذلك تجد المسرفين على أنفسهم يجادلونك بما يريحهم، فتراهم يُنكِرون البعث، ويُبعِدون هذه الفكرة عن أنفسهم.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرّسول بَشَراً، وفي موضع آخر قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التّغابن: من الآية ٦]، فكلّ ما يغيظهم أن يكون الرّسول بشراً، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم، فلو جاء الرّسول ملَكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة، وما جاء الرّسول إلّا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك، ولو جاء ملَكاً لأمكنه أنْ يُعلِّمنا منهج الله ﷻ، لكن لا يمكن أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك، فلو أمرك بشيء وهو مَلَك لَكان لك أنْ تعترض عليه، وتقول: أنت مَلَكٌ تقدر على ذلك، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه.

فالحقّ سبحانه وتعالى يقول: لاحظوا أنّ للرّسل مهمّتين: مهمّةَ البلاغ، ومهمّة الأُسْوة السّلوكيّة، فلو أنّهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتّى لهم البلاغ، لكن لا يتأتّى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى، ولو جاء الرّسول ملَكاً على حقيقته ما رأيتموه، ولاحْتَجتم له على صورة بشريّة، وعندئذٍ لن تعرفوا أهو ملَكَ أم بشر، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام]، ومسألة نزول الملائكة مع الرّسول من الاقتراحات الّتي اقترحها الكفّار على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلبها من ربّه، وهذا يعني أنّهم يريدون دليلَ تصديق على نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم، وسبق أنْ جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه، وعجزوا أنْ يُجاروه فيها، ليثبت أنّ ذلك جاء من عند ربّهم القويّ، ومعنى هذه المعجزة أنّها تقوم مقام قوله: صدق عبدي في كلّ ما يُبلّغ عنّي، لقد كانت معجزة القرآن الكريم كافية لتقوم دليلاً على صِدْق الرّسول في البلاغ عن الله عز وجل، وأيضاً جاءهم صلى الله عليه وسلم بغيبيّات لا يمكن أن يطّلع عليها إنسان، لا في القديم الّذي حدث قبل أنْ يُولدَ، ولا في الحديث الّذي سيكون بعد أنْ يُولد، فدليل صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم قائم، فما الّذي دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى؟

﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾: والله، لو كان إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً؛ لأنّ المرئيّ مُحَاطٌ بحدقة الرّائي، ما هذا الكلام؟ هذا كلام تعصّب كلّه، ومحاولة لإبعاد الإيمان عن قلوبهم، لذلك يختم الحقّ سبحانه وتعالى هذه المسألة بقوله:

﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: استكبر وتكبَّر: حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره، وكلُّ إنسان مِنّا له قَدْر محدود، ومن هنا جاء القول المأثور: "رَحِمَ الله

امرأً عرف قدر نفسه"، فلماذا يتكبّر الإنسان؟! التّكبّر من قِبَل الإنسان مرفوض، والإسلام جاء بنظرة عقليّة وعاطفيّة سويّة، وجعل من الإيمان بالقرآن الكريم أساساً، كمعجزة دالّة على صدق البلاغ، فعندما تكبّروا وعتوا في أنفسهم عتوّاً كبيراً، فهذا تكبّرٌ على الإيمان، ومن استكبارهم مواجهتهم لرسول الله ﷺ في بداية دعوته وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، فالقرآن الكريم لا غبارَ عليه، وهذا حكم واقعيّ منهم؛ لأنّهم أمّة بلاغة وفصاحة، والقرآن الكريم في أَرْقَى مراتب الفصاحة والبيان، إنّما الّذي وقف في حُلُوقهم أن يكون الرّسول رجلاً من عامّة النّاس، يريدونه عظيماً في نظرهم، حتّى إذا ما اتّبعوه كان له حيثيّة تدعو إلى اتّباعه، فالمسألة من الكفّار تلكّؤٌ وعناد واستكبار عن قبول الحقّ الواضح، وقد سبق أن اقترحوا مثل هذه الآيات والمعجزات، فلمّا أجابهم الله سبحانه وتعالى كذّبوا، مع أنّ الآيات والمعجزات ليست باقتراح المرسل إليهم، إنّما تفضُّل من الله سبحانه وتعالى واهب هذه الرّسالة.

والاستكبار: مادّته الكاف والباء والرّاء، وتأتي بمعانٍ عِدَّة:

- تقول كَبَرَ يكْبَر؛ أي: في عمره وحجمه.
- وكَبُر يكبُر؛ أي: عَظُم في ذاته، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: من الآية ٥].
- وتكبَّر: أظهر صفة الكبرياء للنّاس.
- واستكبر: إذا لم يكُنْ عنده مؤهِّلات الكِبر، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً.

فالمعنى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ ليس في حقيقة تكوينهم، إنّما: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في أنّهم يتّبعُون الرّسول؛ أي: أنّها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غيره أحسن منه -على زعمهم-.

ومن لُطْف الله ﷻ بالخَلْق ورحمته بهم أنْ يكون له وحده الكبرياء، وله وحده ﷻ التّكبُّر والعظمة، ويعلنها الحقّ ﷻ: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»(1)، والحقّ ﷻ لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه، إنّما يجعلها لهم رحمة؛ لأنّ الخَلْق منهم الأقوياء والأغنياء.. وحين يعلمون أنّ لله ﷻ الكبرياء المطلق يعرف كلّ منهم قدره، فالله ﷻ هو المتكبّر الوحيد، ونحن جميعاً سواء.

﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾: عتوا: بالغوا في الظّلم وتجاوزوا الحدود، وكأنّ هذا غير كافٍ في وصفهم، فأكّد العُتُوّ بالمصدر: ﴿عُتُوّٗا﴾، ثمّ وصف المصدر أيضاً: ﴿عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾، لماذا هذه المبالغة كلّها في التّعبير؟ قالوا: لأنّهم ما عَتَا بعضهم على بعض فحسب، إنّما عتوا على رسول الله ﷺ، بل وعلى الله ﷻ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة.

والعاتي الّذي بلغ في الظُّلم الحدَّ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: من الآية ٨]، ومعلومٌ أنّ الكِبَر ضعف، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٥٤]، فكيف يصف الكبر بأنّه عَاتٍ؟ قالوا: العاتي هو القويّ الجبّار الّذي لا يقدر أحد على صَدِّه، وكذلك الكِبَر لا يستطيع أحد صدّه، ولا توجد قوّة تطغى عليه فتمنعه.

---

(1) سنن أبي داود: كِتَاب اللِّبَاسِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الكِبْرِ، الحديث رقم (٤٠٩٠).

(الآية ٢٢) - ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾:

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾: يتحدّث الحقّ ﷻ عن هؤلاء الّذين اقترحوا على رسول الله ﷺ الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها، وتشهد لهم بصدقه ﷺ، فيقول لهم ﷻ: أنتم تشتهون أنْ ترَوْا الملائكة، فسوف تروْنها لكن في موقف آخر، ليس موقف البُشْريات والخيرات، إنّما في موقف الخزي والنّدامة والعذاب:

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾: فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم، أو ستروْنَهم يوم القيامة يوم يُبشِّرونكم بالعذاب.

﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: والحِجْر: المنع، ومنه: نحجر على فلان، يعني: نمنعه من التّصرُّف، وقديماً كانوا يقولون في دفع الشّرّ: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾، يعني: منعاً.

(الآية ٢٣) - ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾:

حين ننظر في غير المؤمنين نجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف، ومنهم أصحاب مَلَكات طيّبة، كالّذين اجتمعوا في حلف الفضول لنصْرة المظلوم، وكأهل الكرم وإطعام الطّعام، ومنهم مَنْ كانت له قِدْر عظيمة استظلّ رسول الله ﷺ في ظلّها يوم حرٍّ قائظ، وهذا يعني أنّها كانت كبيرة

واسعة منصوبة وثابتة كالبناء، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين، وحتّى الطّير والوحوش، وما زِلْنا حتّى الآن نضرب المثل في الكرم بحاتم الطّائيّ، وكان منهم مَنْ يصل الرّحم ويُغيث الملهوف.. إلخ، لكنّ هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدّنيا، وليس لله سبحانه وتعالى، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له، كما جاء في الحديث القدسيّ: «لِيُقَالَ: ...، فَقَدْ قِيلَ»[1]، والحقّ سبحانه وتعالى يُوضِّح هذه المسألة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النّور]، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ١٨]، فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة، لكن لم يكُنْ في بالهم الله عزّ وجلّ، إنّما عملوا للإنسانيّة والشّهرة وليُقال عنهم.

﴿هَبَآءً﴾: هناك أشياء صغيرة الحجم لا يمكن رؤيتها، إلّا بواسطة المجهر أو التّلسكوب، وقد يكون الشّيء بعيداً عنك فلا تراه لبُعده عن مخروطيّة الضّوء؛ لأنّ الضّوء يبدأ من نقطة، ثمّ يتّسع تدريجيّاً على شكل مخروط، كما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الّذي قُطْره سنتيمتر فيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير.

والهباء: هو الذّرّات الّتي تراها في المخروط الضّوئيّ حين ينفذ إلى حجرتك، ولا تراها بالعين المجرّدة لدِقّتها، وهذا الهباء الّذي تراه في الضّوء

---

(١) صحيح مسلم: كِتَابُ الإِمَارَةِ، بَابُ مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، الحديث رقم (١٩٠٥).

﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، يعني: لا تستطيع أنْ تجمِّعه؛ لأنّه منتشر وغير ثابت، وهذا تمثيل لعملهم.

(الآية ٢٤) - ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا٢٤﴾:

بعد أن وصف الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يؤول إليه عمل الكافرين أراد جَلَّ جَلَالُهُ أنْ يُحدِّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن الكريم في ذكر المتقابلات الّتي يظهر كلّ منها الآخر، وهذه الطّريقة في التّعبير كثيرة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، منها: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: من الآية ٨٢]، ومنها أيضاً قول الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ١٤﴾ [الانفطار]، وهكذا، ينقلنا القرآن الكريم من الشّيء إلى ضِدّه لنميّز بينهما.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ﴾: صاحب الشّيء: المرافق له عن حُبٍّ، فكأنّ الجنّةَ تعشَق أهلها وهم يعشقونها، فقد نشأت بينهما محبّة وصُحْبة، فكما تحبّ أنت المكان يحبّك المكان، وأيضاً كما تبغضه يبغضك.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وكلمة: ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ تدلّ أيضاً على الملكيّة؛ لأنّهم لن يخرجوا منها، وهي لن تزول ولن تنتهي.

﴿خَيۡرٞ﴾: قلنا: إنّها تُستعمل استعمالين: خير يقابله شرّ، كما في قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ٨﴾ [الزّلزلة]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ٧﴾ [البيّنة: من الآية ٧]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ٦﴾ [البيّنة: من الآية ٦].

وهناك أيضاً خير يقابله خير، لكن أقلّ منه، كما قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1]، وفي بعض الأساليب لا نكتفي بصيغة (خير) للتّمييز بين شيئين، فنقول بصيغة أفعل التّفضيل: هذا أَخْير من هذا.

﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾: المستقرّ: المكان الّذي تستقرّ فيه، والإنسان لا يُؤْثِر الاستقرار في مكان عن مكان آخر، إلّا إذا كان المكان الّذي استقرّ فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره، كما نترك الغرفة مثلاً في الحرِّ، ونجلس في الحديقة أو الشُّرْفة.

﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾: المقيل: هو المكان الّذي كانت تقضي فيه العرب وقت القيلولة، وهي ساعة الظّهيرة حين تشتدّ حرارة الشّمس، لكن أَفِي الجنّة قيلولة مع أنّها ليس فيها حَرٌّ، ولا برد، ولا زمهرير؟ قالوا: القيلولة تعني محلّ فراغ الإنسان لخاصّة نفسه، أَلا ترى أنّ الحقّ سبحانه وتعالى حينما ذكر أوقات الاستئذان في سورة النّور جعل منها هذا الوقت، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النّور: من الآية ٥٨]، فالمستقرّ شيء، والمقيل للرّاحة النّفسيّة الشّخصيّة شيء آخر؛ لأنّك قد تستقرّ في مكان ومعك غيرك، أمّا المقيل فمكان خاصّ بك، فلك في الجنّة مكانان: عامّ وخاصّ؛ لذلك قالوا في قول الله عز وجل: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرّحمن]، قالوا: جنّة عامّة وجنّة خاصّة، كما يكون لك مكان لاستقبال الضّيوف، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القَدَرِ، باب ٨، الحديث رقم (٢٦٦٤).

(الآية ٢٥) - ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾:

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله ﷻ أنْ ينزل عليهم ملائكة، فها هي الملائكة تنزل عليهم كما يريدون، لكن في غير مسرّة لهم، ولا إجابة لسؤال منهم.

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: هي السّقف المرفوع فوقنا، المحفوظ الّذي ننظر إليه، فلا نرى فيه فطوراً ولا شروخاً، ولنا أن ننظر إلى السّماء حال صفائها، وسوف نراها ملساء لا نتوءَ فيها، ولا اعوجاج على اتّساعها هذا، وقيامها بلا عَمَد، لذلك يدعونا الله سبحانه وتعالى إلى النّظر والتّأمّل، يقول لنا: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك]، والسّماء الّتي نراها فوقنا على هذه القوّة والتّماسك لا يُمسكها فوقنا إلّا الله ﷻ، كما يقول جل جلاله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: من الآية ٦٥]، فهناك للسّماء أن تقع على الأرض، وأنْ تتشقّق وتتبدّل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٤٨]، ويقول سبحانه وتعالى عن تشقُّق السّماء في الآخرة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾ [الانشقاق]، معنى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ [الانشقاق: من الآية ٢]، يعني: استمعتْ وأطاعتْ بمجرّد الاستماع، وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾: أي: تنشقّ وينزل من الشّقوق الغمام، وقد ذُكِر الغمام أيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾: يدلّ على قوّة النّزول ليباشروا عمليّة الفصل في موقف القيامة.

(الآية ٢٦) - ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾:

إنْ كانت الدّنيا يُملّك اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها بعض خَلْقه لبعضهم الآخر، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: من الآية ٢٦]، وقلنا: فَرْق بين المِلْك والمُلْك: المِلْك كلّ ما تملك، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك، وهذا يعطيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه جَلَّ جَلَالُهُ، هذا في الدّنيا، أمّا في الآخرة فلا مِلْك ولا مُلْك لأحد، فقد سلب هذا كلّه، والملْك اليوم لله عَزَّ وَجَلَّ وحده: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦]، فما في يدك من مُلْك الدّنيا مُلْك غير مستقرّ، سرعان ما يُسلَب منك، فنحن ننظر لهذا اليوم الّذي سيزول فيه كلّ شيء، وهناك الملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾: لماذا قال: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ ولم يقل: (للجبّار)؟ الجواب: لأنّ اجتماع الملْك يوم القيامة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مظاهر الرّحمة بنا، فلا نأخذها على أنّها احتكار أو جبروت؛ لأنّها في يد الرّحمن الرّحيم، وكأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُطمئننا: لا تقلقوا، فالملْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته، إنّما الملك يومئذ الحقّ للرّحمن.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾: الشّيء الثّابت الّذي لا يتغير، وما دام ثابتاً لا يتغيّر فهو لا يتناقض ولا يتعارض.

ومن رحمانيّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾،

فينبّهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربّنا عز وجل، وإلّا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً.

(الآية ٢٧) - ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾:

﴿وَيَوۡمَ﴾: هذه عدّة أيّام ذكرتها هذه الآيات: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الفرقان: من الآية ٢٢]، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: من الآية ٢٥]، ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: من الآية ٢٦]، ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: من الآية ٢٧]، فيوم القيامة جامع لهذا كلّه.

﴿ٱلظَّالِمُ﴾: الّذي يأخذ حَقَّ غيره، والحقّ سبحانه وتعالى يُوضِّح هذا الظّلم بقوله جل جلاله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: من الآية ٥٧]؛ لأنّهم لا يقدرون على ظُلْم الله عز وجل، ولا على ظُلْم النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فكلمة الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هي العُلْيا، وسينتصر دين الله سبحانه وتعالى في نهاية المطاف.

والظّالم: هو الّذي يظلم نفسه بأن يُقدِّم لها شهوة عاجلة على نعيم دائم، وأيضاً هو الّذي يظلم غيره من النّاس، وحين يرى الظّالمُ عاقبةَ ظُلْمه، ويعاين جزاء فِعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة.

﴿يَعَضُّ﴾: العَضُّ: انطباق الفكّيْن الأعلى والأسفل على شيء، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزع الّذي يُلجىء الإنسانَ إليه، وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١١٩]، والأنامل: أطراف الأصابع، وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما

يتعرّض الإنسان لموقف يصعُب عليه التّصرّف فيه، فيعضُّ على أنامله عَضّاً يناسب الموقف والحدث، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرّد أصابعه، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معاً كما يحدث لهم في الآية الّتي معنا: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾؛ لأنّه في موقف حسرة وندم على الفرصة الّتي فاتته ولن تعود، والخطأ الّذي لا يمكن تداركه؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب، فيعضُّ على يديْه معاً. ثمّ يُبيِّن علّة ذلك:

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾: وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في حدث مخصوص وفي شخص بعينه، إلّا أنّها تعمّ كلّ مَنْ فعل هذا، فالعبرة -كما يقولون- بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، فهذا جزاء كلّ ظالم حَادَ عن الجادّة، وهذه الآية نزلت في حدث خاصّ باثنين: عقبة بن أبي معيط وأميّة بن خلف، حيث كان عقبة رجلاً كريماً يُطعم الطّعام، فدعا مرّة رسول الله ﷺ إلى طعامه، لكنّ رسول الله ﷺ اعتذر له، وقال: لا أستطيع أن أحضر طعامك إلّا أنْ تشهد أن: لا إله إلّا الله، وأنّ مُحَمَّداً رسول الله، فلمّا شهد الرّجل الشّهادتين زاره رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فأغضب ذلك أميّة بن خلف صاحب عقبة، فقال له: لقد صبوتَ يا عقبة، فقال عقبة: والله ما قلتُ ذلك إلّا لأنّني أحببتُ أن يأكلَ مُحَمّد عندي كما يأكل النّاس، فقال أميّة: فلا يبرّئك منّي إلّا أنْ تذهب إلى مُحَمّد في دار النّدوة فتطأ عنقه وتبصق .. إلخ، وجاء عقبة ليفعل ذلك، فنزلت الآية: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، والمراد بالسّبيل قوله: لا إله إلّا الله مُحَمّد رسول الله.

(الآية ٢٨) - ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾:

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾: الويل: الهلاك، فهو يدعو بالهلاك والويل؛ لأنّه اتّخذ أميّة ابن خلف صديقاً له، والنّتيجة أنّ كلّ إنسان يسلك غير سبيل النّبيّ ﷺ سيتحسّر ويعضّ على يديه، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾.

﴿لَيۡتَنِي﴾: تمَنٍّ، والتّمنّي طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله، كما قال الشّاعر:

فيا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبره بِمَا فعَل المشيبُ

﴿لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾: كلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحبّ حتّى ذِكْر اسمه، فعقبة بن أبي مُعيط لم يقل: ليتني لم أتّخذ أميّة بن خلف خليلاً، إنّما قال: ﴿فُلَانًا﴾؛ لأنّه كاره له، يبغض حتّى ذكر اسمه.

﴿خَلِيلٗا﴾: الخليل: من الخُلَّة والمخالَّة، يعني: الصّداقة المتداخلة المتبادلة.

(الآية ٢٩) - ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾:

﴿خَذُولٗا﴾: صيغة مبالغة من الخذلان، نقول: خاذل وخذول، ومعنى خذلك؛ أي: تخلّى عنك في الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك، كذلك الشّيطان يفعل بأوليائه، كما جاء في آيات أخرى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِذۡ

﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٨]، وفي موضع آخر يقول لأتباعه: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢].

(الآية ٣٠) - ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾:

أعظم وأشدّ عتاب لكلّ مؤمن على وجه الأرض هو هذا العتاب، فلنبادر فوراً إلى القرآن الكريم.

﴿إِنَّ قَوۡمِي﴾: قوْم الرّجل: أهله وعشيرته والمقيمون معه، ويجمعهم: إمّا أرض، وإمّا دين، وسُمُّوا قَوْماً؛ لأنّهم هم الّذين يقومون على أمر الأشياء.

﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾: أضاف القوم إليه ﷺ؛ لأنّهم يعرفونه ويعرفون أصْله.

﴿مَهۡجُورٗا﴾: من الهجر، وهو قَطْع الصّلة، فإنْ كانت من جانب واحد فهي (هَجْر)، وإن كانت من الجانبين فهي: (هاجراً)، والمعنى: أنّهم هجروا القرآن الكريم، وقطعوا الصّلة بينهم وبينه، ممّا يعني أنّهم انقطعوا عن الألوهيّة، وعن الرّسالة المحمّديّة، فلم يأخذوا أدلّة اليقين العقديّة، وانقطعوا عن الإسلام حينما تركوا القرآن الكريم، وتركوا الأحكام وعصوها، وبذلك اتّخذوا هذا القرآن الكريم مهجوراً في هذه المسائل كلّها: العقائد والعبادات والتّصديق بالرّسول، مع أنّ العرب لو فهموا قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: من الآية ٤٤]، لمجّدوا القرآن الكريم وتمسّكوا به، فهو الّذي عصمهم وعصم لغتهم، وأعْلَى ذِكْرهم بين الأمم، ولو أنّ كلّ أمّة من الأمم المعاصرة أخذتْ

لهجتها الخاصّة الوطنيّة، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربيّة كلغة، ولكنّ القرآن الكريم حفظ اللّغة العربيّة، وفي كثير من بلدان الوطن العربيّ لو حدَّثونا بلهجتهم الخاصّة لا نفهم منها شيئاً، ولولا أنّ الفُصْحى لغة القرآن الكريم تربط بين هذه اللّهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصّة، كما حدث في اللّغات اللّاتينيّة الّتي تولّدت منها الفرنسيّة والإيطاليّة والألمانيّة والإنجليزيّة، ولكلّ منها أسسها وقواعدها الخاصّة بها، وكانت في الأصل لغة واحدة، إلّا أنّها لا رابطَ لها من كتاب مقدّس كالقرآن الكريم، وليس هناك مثل القرآن الكريم، فالحقّ سبحانه وتعالى يُنبِّههم إلى أنّ القرآن الكريم فيه ذِكْرهم وشرفهم وعزّتهم، وفيه شهرتهم وصيتهم، وفيه هداية وعطاء ورحمة وقِيَم وأخلاق، فالقرآن الكريم جعل العرب على كلّ لسان، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم وحضارات لم يسمع عنها أحد، لذلك يقول لهم النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «**فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدّنيا والآخرة، وإن تردّوه إليَّ أصبر لأمر الله، حتّى يحكم الله بيني وبينكم**»[1]، فلنأخذ العهد على أنفسنا ألّا نهجر القرآن الكريم، ليس فقط في قراءة الحروف، بل في إقامة الأحكام والحدود في كلّ ما أمر به الله سبحانه وتعالى ونهى عنه، فلنجعل القرآن الكريم في كلّ يوم، وفي كلّ بيت، وفي كلّ طفل وامرأة وشابّ وهَرِم، في كلّ حياتنا، في صباحنا وفي مسائنا، ونجعل القرآن الكريم زادنا وموئلنا، فهو نجاتنا يوم القيامة، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشّعراء].

(١) شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاريّ: ج٢، ص٥٣٦.

(الآية ٣١) - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾:

لو انتظرنا من الجميع ساعةَ يأتي الرّسول أنْ يُصدِّقوه ويؤمنوا به فلماذا يأتي الرّسول؟ لا يأتي الرّسول إلّا إذا طَمَّ الفساد وعَمّ، كما أنّنا لا نأتي بالطّبيب إلّا إذا حدث مرض أو وباء، وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة، وقد جاء الإسلام ليُسوّي بين النّاس، ويسلب هؤلاء الّذين طغوا وبغوا السّيادة، فلا بُدَّ أن يقفوا منه موقف العداء، وهذا العداء هو حيثيّة وجود أيّ رسول، وليس النّبيّ ﷺ بِدْعاً في ذلك، فما من نبيّ إلّا وكان له أعداء، مع أنّ الأنبياء السّابقين كان النّبيّ منهم في فترة زمنيّة محدودة وفي مكان محدود، أمّا رسالة مُحَمَّد ﷺ فكانت رسالة عامّة في الزّمان وفي المكان، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء مع انتشار الرّسالة وعمومها في الزّمان والمكان إلى قيام السّاعة، وعلى النّبيّ ﷺ أن يُوطِّن نفسه على ذلك، وعلى أتباع النّبيّ ﷺ أن يوطّنوا أنفسهم على ذلك.

﴿عَدُوًّا﴾: كلمة (عدوّ) من الكلمات الّتي تُطلق مفردة، وتشمل المثنّى والجمع، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على لسان سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشّعراء]، وفي سورة الكهف: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: من الآية ٥٠]، ولم يقل: أعداء، وفي بعض الآيات تأتي بصيغة الجمع كما في قوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، فلو كانت قضيّة لغويّة لجاءتْ

بصيغة المفرد في الآيات كلّها، لكن، لماذا عدلَ القرآن الكريم هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع؟ قالوا: إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنّى والجمع عداوة واحدة، قال: (عدوّ) بصيغة المفرد لاتّحاد سبب العداوة، فإنْ كانت العداوات مختلفة: هذا يعاديك لشرفك، وهذا يعاديك لعلمك، وهذا يعاديك لمالِك، فتعدّدت أسباب العداوة، قال: (أعداء)، أمّا في مسألة الإيمان واليقين بالنّسبة إلى الكافرين فالعداوة واحدة، لكن في أمور الدّنيا العداوات متعدّدة: هذا يعاديك لكذا، وهذا يعاديك لكذا؛ لأنّه مخالف لهواه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: يعني: كأعدائك الّذين اتّخذوا القرآن الكريم مهجوراً، والّذين وقفوا منك موقف التّعنّت والإيذاء والسّخرية.

﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي: الّذين يُجرِمون، يعني: يرتكبون الجرائم، وهي المعاصي والذّنوب حَسْب مدلولاتها.

الحقّ ﷻ حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه، وأنّهم كثيرون ومجرمون إنّما ليوَطِّن النّبيّ ﷺ نفسه على ذلك، فلا يُفَاجأ، ويتحمّل أذاهم إنْ أصابوه بسوء، وهذه المسألة كالمصْل والتّحصين الّذي يُعطَى للنّاس لمواجهة المرض قبل حدوثه، فيقال عنه: مناعة، فالحقّ ﷻ يُعطي رسوله المناعة اللّازمة لمواجهة أعداء الدّعوة.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾: أي: أنّ الله ﷻ سيهديك إلى الطّريق الّذي بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً، والحقّ ﷻ يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٩]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات].

(الآية ٣٢) – ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾: هذا أيضاً من الأمور الّتي يتعلّقون بها كي لا يؤمنوا، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن الكريم جملةً واحدة، وهم لا يطيقون منه آية واحدة؟ لكنّه الجدل والسّفسطة والإفلاس في الحجّة، فلا غضاضة عندهم في القرآن الكريم، وعَيْبه في نظرهم أنّه نزل على مُحمَّد ﷺ بالذّات، وأنّه ينزل مُنجّماً لا جملة واحدة، وكأنّ طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن الكريم جملة واحدة!!

﴿كَذَٰلِكَ﴾: يعني: أنزلناه كذلك مُنجّماً حَسْب الأحوال، والحكمة من ذلك:

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾: لأنّك ستتعرّض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل النّفوس، فكلّما تعرّضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن الكريم تسليةً لك وتثبيتاً وَصِلةً بالسّماء لا تنقطع، ولو نزل القرآن الكريم مرّة واحدة لكان التّثبيت مرّة واحدة، ثمّ تأتي بقيّة الأحداث دون تثبيت، ولا شكَّ أنّ الصّلة بالسّماء تُقوِّي المنهج وتُقوِّي الإيمان، كما أنّ القرآن الكريم لو نزل مرّة واحدة، كيف سيتسنّى لهم أنْ يسألوا عمّا سألوا عنه ممّا حكاه القرآن الكريم: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: من الآية ١٠٥]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٢]، .. إلخ، فنزوله مُنجّماً اقتضاء لحكمة الحقّ ﷻ ليُعدِّدَ مواقف تثبيتك، لتعدّد مواقف الإيذاء لك.

﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾: أي: أنزلناه مُنجمّاً حَسْب الأحوال، فكلّما نزل نجمٌ تمكّنتم من حِفْظه وتكراره في الصّلاة، فنزول القرآن الكريم على قلب المصطفى هكذا مُنجّماً أدعى للتّثبيت وأدعى للحفظ أيضاً.

(الآية ٣٣) - ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾:

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: المَثَل، مثل قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]، أو قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، والمثل: الأشياء العجيبة الّتي طلبوها.

﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: ولو أجابهم الله ﷻ لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه، كما قال ﷻ عن اليهود: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٢]، فالله ﷻ يعطي النّبيّ ﷺ الحقّ دائماً.

﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾: أي: ردّ على ما يأتون به من طلبات لدحض النّبوّة.

(الآية ٣٤) - ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾:

﴿ٱلَّذِينَ﴾: إجمال الأشخاص معروفين بذواتهم، وقفوا من الرّسول ﷺ موقف العداء، ومنهم مَنْ سبق أن قال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ [الفرقان: من الآية ٢٧- الآية ٢٨].

﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الحشر: الجمع للحساب، لكن

سيُحشَرون على وجوههم؛ لذلك لمّا نزلت هذه الآية سألوا رسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»(١)، فالّذي يمشي على وجهه كالّذي يمشي على بطنه، ولعلّه يُجَرّ جرّاً، سواء أكان على وجهه أم على أيّ شيء آخر، ثمّ إنّ الإنسان لا ينبغي له أن يسأل عن أمور هي مناط القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، فهو القادر على كلّ شيء، والله سبحانه وتعالى يُوضِّح هذه المسألة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النّور]، فالمشْي لا ينحصر في الحالات الّتي نعرفها فقط، إنّما هي طلاقة القدرة الإلهيّة الّتي تفعل ما تشاء، لكن، لماذا لم يذكر القرآن الكريم أسماء هؤلاء الأشخاص الظّالمين المعاندين للإسلام؟ قال العلماء: هذا من باب إرخاء العِنَان للخَصْم، وكلمة: (العنان) تأتي بكسر العين وفتحها، واللّغويّون يقولون: هي على وزن ما هي بمعناه، فإن قصدتَ بها عَنان السّماء فهي على وزن سَحَاب، وإن أردتَ بها عِنان الفرس، فهي على وزن لِجَام، وراكب الدّابّة إنْ أرخى لها العِنان تركها تسير كما تشاء، كذلك الله سبحانه وتعالى -ولله المثل الأعلى- يُرخِي للخصم العِنان ليقول كلّ ما عنده، وكلّ ما يستطيع، ثمّ يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وقد علّم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ كيف يردُّ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، الحديث رقم (٨٦٤٧).

عليهم ويجادلهم الجدل الهادىء بالّتي هي أحسن، فحين قالوا عنه: مفتر، وعن القرآن الكريم: مُفترى ومكذوب، ردّ عليهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: من الآية ٣٨]، ثمّ يترقّى في جدالهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود]، وفي آية أخرى يردّ عليهم: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: من الآية ٢٤]، فانظروا إلى أسلوب القرآن الكريم الحواريّ! وهل النّبيّ ﷺ لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضّلال؟ لا شكَّ أنّه يعرف، ولكنّه يرخي لهم العِنان، يقول لهم: أنا وأنتم على طَرَفي نقيض: أنا أقول بإله واحد وأنتم تُكذِّبون قولي، فأنا متناقض معكم في هذه القضيّة، فإمَّا أنا على الهدى، وإمّا أنتم، وبالتّأكيد هم ليسوا على هدى، ولكن هذا أسلوب حوار، والنّبيّ ﷺ لا يمكن أن يكون على ضلال، وكأنّ النّبيّ ﷺ يحاول أن ينصحهم بأسلوب العقل، وأسلوب الهداية، وعندما تكلّم القرآن الكريم عن كفّار قريش الّذين تعنّتوا في اقتراحاتهم، وعاندوا وآذوا رسول الله ﷺ بأنواع الإيذاء كلّها جاء بأسلوب عامّ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: (هؤلاء)، فقد جاء بالقضيّة العامّة، ولم يُواجههم بالجزاء، ممّا يدلّ على التّلطّف في أمر الدّعوة، وهذا نوع من استمالة الخَصْم، لنقطع منه شراسة العداء والعناد، لذلك يخاطب الحقّ سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩]، بأيّ رحمة أعطاك إيّاها الله سبحانه وتعالى لنت لهم يا محمّد؟! كأنّك لم تَلِنْ لهم بطبْعك؛ لأنّ عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكون قاسياً معهم، ولكنّ رحمة

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شملتْك فَلِنْتَ لهم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩]، هذا يعني أنّ الدّاعية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصّدر، رَحْب السّاحة؛ ذلك لأنّه يُخرِج أهل الضّلال عمّا أَلِفوه إلى شيء يكرهونه، فلا نجمع عليهم شدّتين، إنّما نتلطّفْ معهم، كما قال عَزَّ وَجَلَّ لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندما أمرهما بدعوة فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه]؛ لأنّ الّذي بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله، إنّما على الخالق فيدّعي الألوهيّة، لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليّن لطيف، وفي آية أخرى يُعلِّم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف يُجادِل المشركين، فيقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ [سبأ: من الآية ٢٥]، وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وفي المقابل: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبأ: من الآية ٢٥]، مع أنّ منطق الجدل هنا أن يقول: ولا نُسأل عمّا تُجرِمون، لكنّه نسب الإجرام لنفسه، ولم يذكره في حَقِّ الآخرين، فهل هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا؟!

الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعرض لهذه المسائل كلّها ليثبت أنّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصاً على إيمان قومه، وأنّه لم يدّخِرْ وُسْعاً في سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه؛ لدرجة أنّه حمّل نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق ما يطلبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه، حتّى قال له ربّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشّعراء]، يعني: مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم، وما عليك إلّا البلاغ، ولا يقول له ربّه هذا الكلام إلّا إذا كان قد عَلِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة في هداية قومه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: قال ﷻ: ﴿شَرٌّ﴾، ولم يقُلْ: (أشرّ)؛ لأنّ معناها: أنّ الجهة الثّانية فيها شرّ، وهذا أيضاً من إرخاء العِنان للخصم. ثمّ يحدّثنا الحقّ ﷻ عن الرّسل السّابقين:

(الآية ٣٥) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥﴾:

سبق قول الحقّ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: من الآية ٣١]، فلا بُدَّ أن يكون لكلّ نبيّ أعداء؛ لأنّه جاء ليعدّل ميزان المكارم الّذي تحكّم فيه ناس مُستبدّون في شراسة، وأهلُ فساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد، فطبيعيّ أنْ يقفوا في وجه الدّعوة، لذلك يضرب الحقّ ﷻ لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرّسالات، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾، كأنّ الحقّ ﷻ يقول لرسوله ﷺ: لقد تعرّضتَ لمشقّة دعوة أُناس لا يؤمنون بالإله، أمّا موسى عليه السلام فقد تعرّض لدعوة مَن ادّعى أنّه إله، فهناك مَنْ تحمّل كثيراً من المشقّات في سبيل الدّعوة، لدرجة أنّ موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمّة وحده، فنراه -وهو النّبيّ الرّسول الّذي اختاره الله ﷻ- يقول: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: من الآية ٣٤]، وهذا يعني أنّ موسى عليه السلام يعلم مدى المشقّة، وحجم المهمّة الّتي سيقوم بها، فالرّسالات السّابقة كان الرّسول يُبعَث إلى أمّته المحدودة في الزّمان وفي المكان، ومع ذلك لاقوا المشقّات، أمّا أنت يا محمّد فقد أُرسلتَ برسالة عامّة في الزّمان وفي

المكان إلى أنْ تقوم السّاعة، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك أكبر من متاعب مَنْ سبقوك جميعاً.

(الآية ٣٦) - ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾:

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾: الخطاب للرّسول موسى عليه السلام، وللوزير هارون عليه السلام.

﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: مع أنّ فيهم مَنِ ادّعى الألوهيّة استمراراً لإرخاء العِنَان للخَصْم، فقد كذّب فرعون بأنّ من آيات الله سبحانه وتعالى أن يؤمن بإله واحد.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: ثمّ كانت النّهاية أن دمَّرناهم تدميراً؛ لأنّهم وقفوا من موسى وهارون عليهما السلام موقفَ العداء، وقامت بينهما معركة تدخّل فيها الحقّ سبحانه وتعالى، ودمّرهم تدميراً، كأنّ الحقّ جل جلاله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: اطمئنّ فإنْ حادوا عن جادّة الحقّ وأبَوْا أنْ يأتوك طائعين، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء.

(الآية ٣٧) - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾: ذكر الحقّ سبحانه وتعالى نوحاً بعد موسى عليهما السلام؛ لأنّ كلّاً منهما تميَّز في دعوته بشيء، وتحمَّل كلٌّ منهما ألواناً من المشقّة، فموسى عليه السلام واجه مَنِ ادّعى الألوهيّة، ونوح عليه السلام أخذ سُلْطة زمنيّة واسعة انتظمتْ الموجودين على الأرض في وقته كلّهم، ولا يعني هذا أنّه عليه السلام أُرسِل إلى

النّاس كلّهم، إنّما كان قومه هم الموجودون على الأرض في هذا الوقت، فقد لَبِثَ فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً، ولنقرأ قصّته عليه السلام في سورة نوح لنقف على مدى معاناته في دعوة قومه طوال هذه الفترة، ومع ذلك ما آمن معه إلّا قليل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح]، وكانت الغَلَبة له في النّهاية، وأيضاً لأنّه عليه السلام تعرّض لأمرٍ يتعلّق بالبنوّة، بُنوّة في المنهج، وبُنوّة في النّسب، فقد كان ابنه -نسباً- كافراً، ولم يتمكّن من هدايته، ولمّا قال لربّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: من الآية ٤٥]، قال له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: من الآية ٤٦]، فجعل حيثيّة النّفي: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: من الآية ٤٦]، فالنّسب هنا عمل وطاعة، فكأنّ البنوّة للأنبياء بنوّة عمل، لا بنوّة نسب، فابنك الحقّ مَنْ سار على منهجك، وإنْ لم يكُنْ من دمك.

مسألة أخرى نلحظها في الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام في مقام تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهما يشتركان في ظاهرة كونيّة تستحقّ التّأمّل والنّظر، فمظاهر الكون كلّها الّتي أمامنا لو حقّقنا في كلّ مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَننا أن نستنبط منها ما يُثري حياتنا ويُترِفها ويُسعدها، لذلك الحقّ سبحانه وتعالى ينعي على الّذين يُعرضون عن النّظر في آياته، فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف]، وهنا نلاحظ أنّ العلاقة بين موسى ونوح عليهما السلام أنّ الله سبحانه وتعالى يُهلِك

ويُنجي بالشّيء الواحد، فالماء الّذي نجّى موسى عليه السلام هو الماء الّذي أغرق فرعون، والماء الّذي نجّى نوحاً عليه السلام هو الماء الّذي أغرق الكافرين من قومه، فهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّي، وإنْ أراد الإهلاك يُهلِك، ولو بالشّيء الواحد، وأصحاب موسى عليه السلام حينما رأوا البحر من أمامهم، وفرعون من خلفهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشّعراء: من الآية ٦١]، فهذه حقيقة وقضيّة كونيّة مَنْ يملك ردّها؟ إنّما ردّها موسى عليه السلام فقال: ﴿كَلَّآۖ﴾ [الشّعراء: من الآية ٦٢]، لن نُدرَك، قالها بملء فيه، لا ببشريّته، إنّما بالرّبوبيّة الّتي يثق في أنّها لن تسلمه، ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشّعراء]، وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام، لكن بطريقة أخرى، هي السّفينة، وفكرة السّفينة لم تكُنْ موجودة قبل نوح عليه السلام، ألم يصادف أحدهم شجرة مُلْقاة في الماء تطفو على سطحه، ففكّر في ظاهرة الطّفوّ هذه، وكيف أنّ الشّجرة لم تغطس في الماء؟ لقد كان النّجّارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يُلْقوه في الماء، وبمقدار الغطس منه في الماء يعرفون كثافته، هذه الظّاهرة تنبّه لها أرشميدس وبنَى عليها نظريّة الأجسام الطّافية والماء المُزَاح، وتوصّل من خلالها إلى النّقائض، فبها تطفو الأشياء أو تغوص في الماء، إنْ زادت الكثافة يثقل الشّيء ويغوص في الماء، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو، ونلاحظ ذلك إذا رمينا قطعة نقود مثلاً، فإنّها تغطس في الماء، فإنْ طرقناها حتّى جعلناها واسعةَ الرّقعة رقيقة، فإنّها تطفو مع أنّ الكتلة واحدة، نعم الكتلة واحدة، لكنّ الماء المُزَاح في الحالة الثّانية أكثر، فيساعد على طفوّها، وقد أراد الحقّ سبحانه وتعالى أن يُنبِّه الإنسان إلى هذه الظّواهر، ويهديه إلى صناعة السّفن

الّتي تحمله في الماء؛ لأنّ ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة مياه، وقد جعل الله ﷻ لنا وسائل مواصلات في الرّبع؛ أي: البرّ، ألَا يجعل لنا مواصلات في الباقي، فنأخذ خيرات البحر، كما أخذنا خيرات البَرِّ؟

ولنتأمّل أسلوب القرآن الكريم: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾، ومعلوم أنّهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرّسل، قال العلماء: لأنّ النّبوّة لا تأتي بمتعارضات، إنّما تأتي بأمور مُتّفق عليها؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرّسل، ثمّ ذكر عاقبة ذلك:

﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾: وكلمة: ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ تعني: أنّ الّذي أغرق المكذّبين نَجّى المؤمنين، وإغراق المكذّبين عمليّة تردُّ على سخريتهم من نوح ﵇، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السّفينة: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: من الآية ٣٨]، ولم يكن الغرق نهاية الجزاء، إنّما بدايته، فهناك العذاب الّذي ينتظرهم في الآخرة.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: وهكذا جمع الله ﷻ عليهم الغرق في الدّنيا والحرق في الآخرة. ثمّ يضرب الحقّ ﷻ لرسوله مثلاً آخر:

(الآية ٣٨) - ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾:

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾: إنّها نماذج من المتاعب الّتي لاقاها الرّسل عليهم السّلام من أممهم، كما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: من الآية ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: من الآية ٧٣]، وكانت

النّهاية أن نصر الله سبحانه وتعالى أولياءه ورسله، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم، كلّ ذلك ليقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: يا مُحمَّد لست بدعاً من الرّسل، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتّكذيب، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله عز وجل لك، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافّات]، إنّها قضيّة يطلقها الحقّ سبحانه وتعالى لا للتّأريخ فقط، ولكن لتربية النّفس البشريّة، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ من جند الله عز وجل، ولن تُهزَم أبداً.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: الرّسّ: هو البئر أو الحفرة، وكانت في اليمامة، ويُسمُّونها الأخدود، وقد ورد ذكرها في سورة البروج: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [البروج]. وقد قال سبحانه وتعالى هنا:

﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾: لم يُرِد الحقّ سبحانه وتعالى أنْ يُعدِّد الأمم السّابقة كلّها، واكتفى بذِكْر نماذج منها، وفي مواضع أخرى يجمعهم جملةً، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٠].

(الآية ٣٩) - ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾:

﴿وَكُلًّا﴾: أي: كُلٌّ من المتقدّمين.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ﴾: يَعني: لم أدع رسولاً إلّا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله، يقول الله سبحانه وتعالى له: انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه؟ وكيف عاندوه

ووقفوا منه هذا الموقف؟! ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم؛ ذلك ليأخذ كُلُّ نبيّ شحنةَ مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدّعوة، فلا يلين، ولا ييأس، وليْكُنْ على يقين أنّ النّهاية له وفي مصلحته.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: أي: أهلكنا ودمّرنا كلّ من كذّب الرّسل بأنواع مختلفة ومتعدّدة من ألوان العذاب، فعوقب بعضهم بالصّيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالرّيح الصّرصر العاتية.

(الآية ٤٠) - ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾: هذه المشاهد لم تكن مجرّد تاريخ يحكيه القرآن الكريم، إنّما مشاهد ومَرَاءٍ رآها كفّار مكّة في رحلة الصّيف يمرّون على هذه الدّيار، كما قال سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصّافّات]، فهذا التّاريخ له واقع يسانده، وآثار تدلّ عليه، والقرية الّتي أُمطرتْ مطر السَّوْء هي سدوم قرية قوم لوط عليه السلام.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾: ألم يشاهدوها في أسفارهم؟

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: كلمة: ﴿بَلْ﴾ للإضراب، فهي تنفي ما قبلها، وتُثبِت ما بعدها، فالمعنى: أنّهم مَرُّوا عليها وشاهدوها، ويَعْرفونها تمام المعرفة، لكنّهم: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، يعني: لا ينتظرون البعث، ولا يؤمنون به، ولا يعترفون بالوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى للحساب، فكانوا يقولون: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون].

في نهاية هذه النّماذج الّتي ذكرها الله ﷻ اختتم بسدوم، القرية الّتي أُمطِرَت مطر السّوء، بفعل قوم لوط، بالفاحشة، بماذا يُذكِّرنا هذا؟ يذكّرنا بالحملات المتتالية والقوانين النّاظمة والدّعوات الغربيّة من أجل الشّذوذ، ومن أجل ما سمّوه المثليّة، والّتي هي تجميل لكلمة شاذّ، هذا شذوذ وانقلاب للفطرة، وانقلاب لما أراده الله ﷻ من الإنسان، هذا ذكر وهذا أنثى، فالعقاب سيكون كما جرى لسدوم.

(الآية ٤١) - ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾:

﴿إِن﴾: نافية بمعنى: ما يتّخذونك إلّا هُزُواً، ثمّ ذكر صيغة الاستهزاء: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾: وفي موضع آخر، قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٦]، كأنّه ﷺ دون هذه المنزلة، وما دام الرّسول في نظرهم دون هذه المنزلة، فإنّهم يريدون شخصاً على مستواهم كما يدّعون ويفترون على الله ﷻ الكذب، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، فالعظمة بنظرهم هي بالمال، ومعنى هذا أنّهم ممكن أن يؤمنوا بوجود إله ورسول ومنهج، لكنّ اعتراضهم على شخصيّة النّبيّ ﷺ، وأنّى لهم؟! ثمّ يتناقضون مع أنفسهم، فيقولون:

(الآية ٤٢) - ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾: فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرّسالة، ثمّ تقولون: إنّه كاد أنْ يُضلّكم عن آلهتكم، يعني: قَرُبَ أنْ

يُضلّكم عن آلهتكم، مع ما أنتم عليه من التّعنّت والعناد؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله ﷺ أنّه قويٌّ وأنّه على مستوى الرّسالة، وأنّه لم يدّخر وُسْعاً في دعوتهم، حتّى كاد أنْ يصرفهم عن آلهتهم، والدّليل على أنّهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله ﷺ عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن الكريم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]، فيريدون أنْ يُشوِّشوا على القرآن الكريم لما يعلمون من تأثيره في النّفوس، وهم أمّة فصاحة وبلاغة، فإنْ سمعوا القرآن الكريم، فلا بُدَّ أن يُؤثّر في قلوبهم ويجذبهم إليه، وقصّة إسلام عمر رضي الله عنه هي أكبر دليل، وكيف كان قبل الإسلام شديداً جبّاراً، فلمّا تهيّأت له الفرصة واستمع للقرآن الكريم كيف تغيّر؟!، فعندما سمعه من أخته، وصادف منه قلباً نقيّاً وفطرة سليمة تأثّر به، فأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه، فقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ دليل على أنّه كُفْء للمهمّة الّتي بُعث بها، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾: قولهم هذا يدلّ على أنّه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا على الضّلال.

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾: سيعرفون ذلك، لكن بعد فوات الأوان، وعندما لا تنفعهم هذه المعرفة.

(الآية ٤٣) - ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى يضع لرسوله ﷺ قضيّة، هي أنّ الدّين إنّما جاء ليعصم

النّاس من أهواء النّاس، فلكُلِّ نفس بشريّة هَوىً، وكلّ إنسان يعجبه هواه، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره؛ لأنّ غيره أيضاً له هوىً؛ لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، لكن، لماذا تختلف الأهواء؟ قالوا: لأنّ طبيعة الحياة تتطلّب أن تكون الأهواءُ مختلفةً؛ لأنّ مجالات الحياة متعدّدة، فهذا هواه في كذا، وهذا هواه في كذا، فترى الصَّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر، ويشاركه طعامه وشرابه، فلا يفرّقهما شيء، فإذا ما ذهبا لشراء شيء ما تباينتْ أهواؤهما، فالّذين اختلفوا مثلاً في تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والرّؤى، لذلك يقولون: خلاف هو عَيْن الوفاق؛ لأنّه يؤدّي إلى التّعدّد، ووفاق هو عَيْن الخلاف، لكن إذا اتّخذ الإنسان هواه إلهاً فهنا تكون المشكلة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: الهَوى: أن تكون هناك قضيّة ظاهرٌ فيها وَجْه الحقّ، إلّا أنّك تميلُ عنه وأنت تعرفه، لا أنّك تجهله، لذلك يقول العلماء: آفةُ الرّأْي الهوى، فالرّأي قد يكون صائباً، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان، وقلنا: لا أدلّ على ذلك من أنّ الرّجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الّذي يعبده، فيُلْقي الإله الّذي يعبده ليأخذ هذا الّذي هو أجمل منه فيتّخذه إلهاً، فهواه في جمال الحجر غلب أنّه إله.

وقد وقف المستشرقون عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حَقِّ النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النّجم]، يقولون: كيف يحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنّ رسوله لم ينطق عن الهوى، وقد عدَّل له بعض ما نطق به، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التّحريم: من الآية ١]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَكَ﴾ [التّوبة: من الآية ٤٣]، وهنا نجيبهم: لا بُدَّ أن نُحَدِّد مفهوم الهوى أوّلاً، فصاحب الهوى لديه قضيّتان: الحقّ واضح في إحداهما، إلّا أنّ هواه يميل إلى غير الحقّ، أمّا النّبيّ ﷺ فإنّه نطق؛ لأنّه لم تكن هناك قضيّة واقعة وهو يعرف وجه الحقّ فيها فحاد عنها -حاشاه-، فهو ﷺ لم يَسِرْ على الهوى، إنّما على ما انتهى إليه اجتهاده، ألَا نرى قوله جل جلاله لرسوله ﷺ في مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة رضي الله عنه: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: من الآية ٥]، فمعنى أنّ نسبته لأبيه أقسط أنّ رسول الله ﷺ لم يكُنْ جائراً، فما فعله قِسْط، لكنّ فِعْل الله سبحانه وتعالى أقسط منه، فالحقّ سبحانه وتعالى لم يُخطِّىء رسوله صلى الله عليه وسلم، وسمّى فِعْله عدلاً، وهو عَدْل بشريّ يُناسب ما كان من تمسُّك زيد رضي الله عنه برسول الله ﷺ، وتفضيله له على أهله، فلم يجد رسول الله ﷺ أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾: وكيلاً يتولّى توجيهه، ليترك هواه ويتّبع الحقّ، كما قال سبحانه وتعالى في موضعٍ آخر: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية]، وقال جل جلاله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: من الآية ٩٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٨]، فالّذي اتّبع هواه حتّى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ يعدل عن هواه؛ لأنّ الأهواء مختلفة، فبعض النّاس يريد أنْ يتمتّع بجهد غيره، فيضع يده في جيوب الآخرين ليسرقهم، لكن أيسرُّه أن يفعل النّاسُ معه مثلَ فِعْله معهم؟! فهوى صادمَ هوى، فأَيُّهما يغلب؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى، لا لك ولا عليك، وقضيّة الحقّ في ذاتها لا توجد إلّا من الله سبحانه وتعالى، فقضيّة: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾

نراها اليوم بكلّ معانيها، فليست القضيّة أن تجعل هواك تمثالاً ثمّ تعبده، قد تكون تصلّي وتعبد الله ﷻ، لكنّك تعبد إلهاً آخر هو أنّك تريد أن تسير وفق هوى نفسك، تعبد نفسك بدلاً من ربّك، عندما ترى المنكرات وعندما تفعل الموبقات، وعندما تسرق وتزني وترتشي وتكذب وتنمّ فأنت تعبد إلهاً آخر، هو هوى النّفس.

(الآية ٤٤) - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾: أي: سماع تعقُّل وتدبُّر، فلو سَمِعُوا وعَقِلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدّ.

يقول الحقّ ﷻ: أتظنّ أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ وكلمة: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ تدلّ على أنّ بعضهم يسمع ويعقل، وهذا من قانون صيانة الاحتمال، فكثيرٌ من كفّار قريش ناصبوا رسول الله ﷺ العداء، وانتهى بهم الأمر إلى أَنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم، فكان فيهم مَنْ يسمع، ومَنْ يفكّر ويعقل؛ لذلك قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾، ولم يقل: (كلّهم)، ليحمي هذا الحكم، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء، هذا دِقَّة في تحرِّي الحقيقة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾: مع أنّ الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّي مهمّتها، ولم تمتنع عن شيء خُلِقَتْ له، فقد شبَّههم الله ﷻ بالأنعام؛ لأنّ الأنعام لا دخلَ لها في مسألة الهداية أو الضّلال؛ لأنّها مُسخَّرة لا اختيارَ لها، والّذي يُطلَب منه السّماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل؛ لذلك ضرب الله ﷻ

بها المثل لليهود: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ﴾ [الجمعة: من الآية ٥]، فالحمار مهمّته أنْ يحمل فحسب، أمّا أنت أيّها اليهوديّ فمهمّتك أن تحمل وتطبّق المنهج الّذي أُنزل على موسى عليه السلام، الحمار لا يطبّق؛ لأنّه لم يُطلب منه ذلك، مع أنّ الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه، ويعرف طريقه ومكان مبيته، حتّى أنّ أحدهم مات على ظهر جواده، فسار به الجواد إلى بيته، فالأنعام تفهم وتعقل في حدود المهمّة الّتي خلقها الله سبحانه وتعالى لها، ولا تُقصِر في مهمّتها، أمّا المهمّة الدّينيّة فللإنسان، افعل ولا تفعل، هذا حلال وهذا حرام.

(الآية ٤٥) - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى وهو خالق الآيات في الكون يُنبِّه إليها الخَلْق، وكان من المفروض ممَّن يرى الآيات أنْ يتنبّه إليها دون أنْ يُنَبّه، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأمّلها، وقال: سبحان مَن خلقها، ففي الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهنا لنبحث فيها وفي آثار وجودها، وكلّها آيات عالية عَنّا وفوق إمكاناتنا: الشّمس والقمر، الهواء والمطر.. إلخ، ومع ذلك لم يتركنا الله سبحانه وتعالى، بل نبَّهنا ولفتَنا وجذب انتباهنا لهذه ولهذه.

وهنا، الحقّ سبحانه وتعالى يعرض الآيات والكونيّات الّتي يراها الإنسان برتابة كلّ يوم، يراها الفيلسوف كما يراها راعي الشّاة، يراها الكبير كما يراها الصّغير كلّ يوم على نظام واحد، لا يكاد يلتفت الإنسان إليها.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: أي: ألم تعلم، فإذا أخبر ﷻ فإخباره أصدق من حواسّك، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: ألم تنظر إلى صَنْعة ربّك؟!

﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾: نعم نرى الظّلّ، فما هو؟ الظّلّ أنْ يَحْجب شيء كثيف على الأرض -مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه- ضوءَ الشّمس، فتظهر منطقة الظّلّ في المكان المُشْمِس، فالمسألة متعلّقة بالشّمس، وبالأرض الّتي نعيش عليها، وقد علمنا أنّ الأرض كرة تواجه الشّمس، فالجهة المواجهة منها للشّمس تكون مُضَاءة، والأخرى تكون ظلاماً، لا نقول: ظلّاً، فما الفرق بين الظّلِّ والظّلام؟ قالوا: إذا كان الحاجبُ لضوء الشّمس من الأرض نفسها فهي ظُلْمة، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظلّ.

والظّلّ نراه في كلّ وقت، وقد ورد في عدّة مواضع من كتاب الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١﴾ [المرسلات]، وقال ﷻ: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: من الآية ٥٧]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ [النّحل: من الآية ٤٨]، ينبّهنا ربّنا ﷻ إلى مهمّة أخرى من مهامّ الظّلّ، وهي أنّه يحمينا من وَخْزة الشّمس وحرارتها، ويرتقي الإنسان في استخدام الظّلّ فيجعله كما قال ﷻ: ﴿ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: من الآية ٥٧]؛ أي: أنّ الظّلّ نفسه مُظلَّل، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتّى لا يتأثّر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها، لذلك نجد ظلّ الشّجرة ألطفَ من ظِلِّ الحائط مثلاً أو المظلّة؛ لأنّ أوراق الشّجرة يُظلّل بعضها بعضاً، فالظّلّ يأتينا من مُظلّل آخر، فالأوراق تَحجب عنّا حرارة الشّمس، في حين تسمح بمرور الهواء، قال ﷻ: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ

ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧١]، وحين نتأمّل هذه الظّاهرة ساعة طلوع الشّمس نرى الشّيء الكثيف الّذي يحجب ضوء الشّمس يطول ظِلُّه إلى نهاية الأفق، ثمّ يأخذ في القِصر كلّما ارتفعتْ الشّمس إلى أنْ يصير في زوال، ثمّ ينعكس الظّلّ مع ميل الشّمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق، والحقّ ﷻ يريد منّا أن نلاحظ هذه الظّاهرة، وأنْ نتأمّلها:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: أي: ساعة طلوع الشّمس.

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾: لأنّ مشيئة الله ﷻ تستطيع أن تخلق الشّيء ونقيضه، فإنْ شاءَ مَدَّ الظّلّ، وإنْ شاء أمسكه، ولكنّه يتغيّر: ينقص في أوّل النّهار، ويزيد في آخره وكلّ ما يقبل الزّيادة يقبل النّقص، والنّقص أو الزّيادة حركة، وللحركة نوعان: حركة قَفْزيّة كحركة عقرب الدّقائق في السّاعة، وهي أنْ يمرَّ على المتحرّك وقت ساكن ثمّ يتحرّك، إنّما أتدرك ذلك في حركة عقرب السّاعات؟ لا؛ لأنّه يسير بحركة انسيابيّة، بحيث توزّع أجزاء الحركة على أجزاء الزّمن، ومثَّلْنا هذه الحركة بنموّ الطّفل الصّغير الّذي لا تدرك حركة نموّه حالَ نظرك له منذ ولادته، إنّما إنْ غبْتَ عنه فترة أمكنك أنْ تلاحظ أنّه يكبر ويتغيّر شكله؛ لأنّ نموّه مُوزَّع على فترات الزّمن، لا يكبر هكذا مرّة واحدة، فهي مجموعات كِبَر تجمّعتْ في أوقات متعدّدة، وليس لديك المقياس الدّقيق الّذي تلاحظ به كبر الطّفل في فترة قصيرة، وإذا كنّا نستطيع إجراء هذه الحركة في السّاعات مثلاً، فالحقّ ﷻ يُحدِثها في حركة الظّلّ وينسبها لعظمها إلى نفسه ﷻ؛ لأنّ الظّلّ لا يسير بحركة ميكانيكيّة كالّتي نراها في السّاعة إنّما يسير بقدرة الله ﷻ.

والحقّ ﷻ يلفتنا إلى هذه الظّاهرة، لا لأنّها مجرّد ظاهرة كونيّة نراها ونتعجّب منها، إنّما لأنّنا سنستغلّها وننتفع بها في أشياء كثيرة، فالمصريّون القدماء أقاموا المسلّات ليضبطوا بها الزّمن عن طريق الظّلّ، وصنع العرب المسلمون المزْولة لضبط الوقت مع حركة الشّمس، ونرى الفلّاح البسيط الآن ينظر إلى ظلّ شيء، ويقول لك: السّاعة الآن كذا؛ لأنّه تعوَّد أن يقيس الوقت بالظّلّ، مع أنّ مثل هذا التّقدير يكون غير دقيق؛ لأنّ للشّمس مطالعَ متعدّدة على مرِّ أيّام العام؛ لذلك في حماة في أحد القلاع (٣٦٥) طاقة، تدخل الشّمس كلّ يوم في واحدة منها، فأفادنا الظّلّ في المسلّات والمزاول، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل السّاعات، وأوّلها السّاعة الدّقّاقة الّتي كانت تعمل بالماء، وقد أهدى العرب شارلمان ملك فرنسا واحدة منها، فقال: إنّ فيها شيطاناً، هكذا كان المسلمون الأوائل، وهكذا كان الغرب.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: أي: أنّ الضّوء هو الّذي يدلّ على الظّلِّ.

(الآية ٤٦) - ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾:

الحقّ ﷻ يُبيّن الحركة البطيئة للظّلّ فيقول: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾، لا تدركه أبداً؛ لأنّ في كلّ لحظة من لحظات الزّمن حركة، ولا يخلو الوقت مهما قَلَّ من الحركة، لكن ليس لدينا المقياس الّذي نُدرك به بُطْءَ هذه الحركة.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ دليل على أنّ المسألة ليست ميكانيكيّة، إنّما هي بقيّوميّة الله ﷻ؛ لذلك فكأنّ الحقّ ﷻ يقول: يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم، فربُّكم قيُّوم على مصالحكم لا ينام.

وأهل المعرفة يستنبطون من ظاهرة الظّلّ أسراراً، فيروْنَ أنّ ظِلّ الأشياء الشّاهقة المتعالية يخضع لله ﷻ، ويسجد على الأرض، مع أنّه متعالٍ شامخ، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾ [الرّعد]، وقال ﷻ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النّور: من الآية ٤١].

(الآية ٤٧) - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾:

﴿اللَّيْلَ﴾: يعني: الظّلمة لا الظّلّ، فالظّلمة هي الّتي منعتْ النّور، وإيّاك أن تظنّ أنّ الظّلمة ضدّ النّور، وتحاول أن تنسخ الظّلمة بنور من عندك، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ اللّيل نهاراً، وقد تنبّه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحّة الإنسان، وقد جاء في الحديث الشّريف قول رسول الله ﷺ: «أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ»[١]، فالشّعاع له عمل وقت حركتك، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمّة، بل هو ضارّ في هذا الوقت، والحقّ ﷻ يمتنُّ علينا باللّيل والنّهار، فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]، فللّيل مهمّة، وللنّهار مهمّة يُوضِّحها هنا الحقّ ﷻ بقوله:

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الأَشْرِبَةِ، بَابُ تَغْطِيَةِ الإِنَاءِ، الحديث رقم (٥٦٢٤).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾: أي: ساتراً، كما أنّ اللّباس يستر الجسم، والنّوم ردع ذاتيّ يقهر الكائن الحيّ، وليس ردعاً اختياريّاً، لذلك تلاحظ أنّك إنْ أردت أنْ تنامَ في غير وقت النّوم تتعب وترهق، أمّا إنْ أتاك النّوم فتسكن وتهدأ، ومن هنا قالوا: النّوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أَعْنَتكَ، وإنْ طلبك أراحك، لذلك ساعة يطلبك النّوم تنام مِلْء جفونك، ولو على الحصى يغلبك النّوم فتنام، وكأنّ النّوم يقول لك: اهمد واسترح، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة، أمّا مَنْ غالب هذه الطّبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السّهر، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين، كما أنّ الّذي يغالب النّوم تأتي حركته مضطربة غير متوازنة، فعليك أن تخضع لهذه الطّبيعة الّتي خلقك الله سبحانه وتعالى عليها وتستسلم للنّوم إنْ ألحَّ عليك، ولا تكابر لتقوم في الصّباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قويّاً صالحاً للعمل والعطاء.

﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾: السّبْت أي: القطْع، فمعنى: ﴿سُبَاتًا﴾، يعني: قاطعاً للحركة، لا انقطاعاً نهائيّاً، إنّما انقطاعاً مُسْتأنفاً لحركة أفضل، وبدن أقوى وأصحّ، فالّذي يقضي ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً، على خلاف مَنْ جعل وقت النّوم للنّوم؛ لأنّ الخالق عز وجل جعل نومك باللّيل على قَدْر ما تتحرّك بالنّهار، فإنْ أردتَ حركة مُتّزنة نشيطة وقويّة فنَمْ على مقدار هذه الحركة.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾: النّشور، مثل: الشُّكور: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان]؛ أي: شكر، وكذلك النّشور؛ أي: نشر، والنّشر يعني الانطلاق في الأرض بالحركة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: من الآية ١٠].

(الآية ٤٨) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا ٤٨﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾: قلنا: إنّ الرّياح إذا جاءت بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير، وإنْ جاءتْ مفردة فهي آتية بالشّرّ، وإذا نظرنا إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السّحاب، نقول: ما الّذي يُقيم هذه المباني العالية، فلا تميل؟ الجواب: الّذي يمسكها هو الهواء الّذي يُحيط بها من كلّ ناحية، ولو فرَّغْنا الهواء من أحد نواحيها لانهارت فوراً، فالرّيح من هنا، ومن هنا، ومن هنا، فهي رياح متعدّدة تُصلِح ولا تُفسِد، وتُحدِث هذا التّوازن الّذي نراه في الكون، أمّا الرّيح الّتي تأتي من ناحية واحدة فهي مدمّرة مهلكة، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقّة: من الآية ٦]، وقال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾ [الأحقاف: من الآية ٢٤].

﴿بُشۡرَۢا﴾: بسكون الشّين، مع أنّها في الأصل بُشُراً، مثل: رُسُل، فلمّا خُفِّفَتْ صارت بُشْراً، والبُشْرى: هي الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه، فلا نقول: (يبشّر) إلّا في الخير، وكان العربيّ ساعة تمرّ عليه الرّياح يعرف كم بينه وبين المطر، فيحكم على مجيء المطر بحركة الرّياح الطّريّة الّتي تداعب خدّه.

﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: يقال: بين يديك، يعني: أمامك، والمراد هنا المطر الّذي يسبق رحمة الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: السّماء لها معنى لُغويّ، ومعنى شرعيّ، فهي لغةً: كلّ ما علاك فأظلّك، وشرعاً: هي هذه السّماء العالية المتماسكة، الّتي

تتكوّن من سبع سموات، لكن أينزل المطر من السّماء أم من جهة السّماء؟

الجواب: المطر ينزل من الغمام من جهة السّماء، والغمام أصله من الأرض نتيجة عمليّة البخر الّذي يتجمّع في طبقات الجوّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النّور: من الآية ٤٣]، فرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي الماء الّذي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ منه كلّ شيء حيٍّ.

﴿مَآءً طَهُورًا﴾: الطَّهُور: الماء الطّاهر في ذاته، المطهِّر لغيره، فالماء الّذي تتوضّأ به طاهر ومطهّر، أمّا بعد أنْ تتوضّأ به فهو طاهر في ذاته غير مُطهِّر لغيره، وماء السّماء طاهر ومُطهّر؛ لأنّه مُصفّى مُقطّر، والماء المقطّر أنقى ماء، بالإضافة إلى أنّ الماء قِوَام الحياة، منه نشرب ونسقي الزّرع والحيوان والطّير، فالماء يعطينا الحياة، ويعطينا الطّهارة.

(الآية ٤٩) - ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾:

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: فرْق بين ميْت وميِّت، الميْت: هو الّذي مات بالفعل، والميِّت هو الّذي يؤول أمره إلى الموت، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطباً نبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزّمر]، والأرض الميْتة هي الجرداء الخالية من النّبات، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنّبات، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحجّ: من الآية ٥].

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾: يُقال: سقاه وأسقاه، أسقاه: أعدَّ له ما يستقي منه، وإنْ لم يشرب الآن، لكن سقاه يعني: ناوله ما يشربه، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: من الآية ٢١]، أمّا في المطر فيقول ﷻ: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]؛ أي: أعددناه لِسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا.

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: جمع إنسان، وأصلها أناسين، وخُفِّفَتْ إلى أناسيّ.

(الآية ٥٠) - ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾: التّصريف: التّحويل والتّغيير، والمعنى: حوّلناه من هنا إلى هنا، ومع هذه العبر والآيات كلّها:

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾: فالكافرون بآيات الله ﷻ كثير، ولا يلتفتون إلى آياته ﷻ، حتّى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانيّة، وقف النّاس على كثير من الآيات، ومع ذلك أكثرهم لا يؤمنون، فالحقّ ﷻ يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتّى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم، فليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار، إنّما المسألة مرادات خالق، ومرادات حقّ.

(الآية ٥١) - ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾:

يريد الحقّ ﷻ أن يمتنّ على رسوله ﷺ مِنَّة، فيقول له: المسألة ليست قلّةَ رسل عندنا حتّى نرسل رسولاً للنّاس كافّة وللزّمن كلّه، ونحن نستطيع أن

نُخفِّف عنك ونبعث في كلّ قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرّسالة، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة، فجمعناها كلّها لك إلى أنْ تقوم السّاعة. ونستفيد من هذه المسألة أنّ الحقّ ﷻ حين يَهَبُ الطّاقات لا يعني هذا أنّ الطّاقة هي الّتي تحكم قدرته في الأمر أن يبعث في كلّ قرية رسولاً، إنّما يقدر ﷻ أن يرسل رسولاً، ويعطيه طاقة تتحمّل هذا كلّه.

﴿نَذِيرًا﴾: النّذير: هو الّذي يُنذِر من عذاب الآخرة، وعندما يتحدّث عن الكفّار، يقول: نذير، أمّا البشير، فهو الّذي يُبشِّر بالرّحمة والجنّة.

(الآية ٥٢) - ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾:

ما دُمْنا قد جمعنا لك كلّ القرى والمدن، وحمّلناك الرّسالة العامّة في الزّمان والمكان، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمّة.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو المال أو الجاه والشّرف، واعلم أنّ ما أعدّه الله ﷻ لك وما ادّخره لك فوق هذا كلّه، وحين يقول ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإنّه يعذره أمامهم، فالرّسول ينفّذ أوامر الله ﷻ، ونَهْي الرّسول عن طاعة الكافرين لا يعني أنّه ﷺ يطيعهم، فهذه كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النّساء: من الآية ١٣٦]، فكيف يطلب الإيمان ممَّنْ ناداهم بالإيمان؟ فالمعنى: استمرّ على عدم طاعة الكافرين أنت ومن يسير على نهجك يا محمّد؛ لأنّك أُسوة.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾: أي: بما جاءك من القرآن الكريم، فكلمة الجهاد الّتي عرّفها المتطرِّفون والإرهابيّون والقَتَلة والمجرمون بأنّها الجهاد القتاليّ هي كلمة

غير صحيحة بنصّ القرآن الكريم؛ لأنّ الجهاد يكون بالكلمة، الجهاد يكون بالقرآن الكريم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾: الجهاد الكبير بالإقناع والحجّة والبرهان، وبالدّعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وجدلٌ بالّتي هي أحسن، هذا هو الجهاد الكبير، أمّا الجهاد القتاليّ فعندما يكون هناك اعتداء، فلا بدّ من ردّ الاعتداء، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، فنحن أُمِرنا أن نقاتل المشركين ليس لكونهم مشركين، وإنّما لكونهم معتدين.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾: ولتعلم أنّك غالب بأمر الله سبحانه وتعالى عليهم، فتيّار الإيمان أقوى، وسوف نعطيك مثلاً كونيّاً في أهمّ شيء في حياتك، وهو الماء:

(الآية ٥٣) - ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾:

تأتي هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله سبحانه وتعالى في الكون الّتي تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسبق أنْ ذكر سبحانه وتعالى: الظّلّ واللّيل والرّياح.. إلخ، فكلّما ذكر عنادهم أتى بآية كونيّة ليلفتهم إلى أنّهم غفلوا عن آيات الله عز وجل، وجدالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلّ على أنّهم لم يلتفتوا إلى شيء من هذا؛ لذلك ذكر آية كونيّة من آيات الله سبحانه وتعالى المرئيّة للجميع، وعليها الدّليل القائم إلى يوم القيامة، فقال سبحانه وتعالى:

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: المَرْج: المرعى المباح، أو الكلأ العامّ الّذي يسوم فيه الرّاعي ماشيته تمرح كيف تشاء، فمعنى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: جعل العَذْب والمالح يسيران، كُلٌّ كما يشاء، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة الّتي تمثّل ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسيّ منتظم، بل تجده تعاريج والتواءات، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة، وكأنّ الماء يسير على هواه دون نظام، فلا يشكّل مستطيلاً أو مربّعاً أو دائرة، وكذلك الأنهار الّتي تولّدتْ من الأمطار على أعلى الجبال، فتراها حين تتجمّع وتسير تسير كما تشاء، ملتوية ومُتعرِّجة؛ لأنّ الماء يشقُّ مجراه في الأماكن السّهلة، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك، ليكمل مساره، وانظر إلى التواء النّيل مثلاً عند (قنا)، فالماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه، وليست المسألة منتظمة كالّتي يشقُّها الإنسان، فتأتي مستقيمة، والبحر يقال عادة للمالح والعذب على سبيل التّغليب، كما نقول: الشّمسان، للشّمس والقمر.

ومرْج البحرين آية كونيّة تدلّ على قدرة الله ﷻ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصّيّة الاستطراق، يسير إلى المناطق المنخفضة، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر، ولو اختلطا لَفسدا جميعاً؛ لأنّ العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشّرب، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح، وقد خلقه الله ﷻ على درجة معيّنة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد، وتحفظه أن يكون آسناً، فالماء العذب حين تحصره في مكان يأسن ويتغيّر، أمّا البحر فقد أعدَّه الله ﷻ ليكون مخزن الماء في الكون

ومصدر البَحْر الّذي تتكوّن منه الأنهار؛ لذلك حفظه، وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سِلْميّاً، لا يبغي أحدهما على الآخر مع تجاورهما.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: أي: مُفرِط في العذوبة مستساغ، ومن هذه الكلمة سَمَّوْا نهر الفرات لعذوبة مائه، فلَيس المراد بالفرات أنّ الماء كماء نهر الفرات؛ لأنّ الكلمة وُضِعت أوّلاً، ثمّ سُمِّيَ بها النّهر؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى الأزليّ.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: أي: شديد الملوحة، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائيّة، وتتغذّى عليه كما تتغذّى على الماء العَذْب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: من الآية ١٢].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: البرزخ: شيء بين شيئين، وأصل كلمة برزخ: اليابسة الّتي تفصل بين ماءين، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: الحِجْر: هو المانع الّذي يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا، والحِجْر نفسه محجور، مبالغة في المنع من اختلاط الماءيْن، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]، ومثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النّساء: من الآية ٥٧].

(الآية ٥٤) - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾:

وفي آية عامّة عن الماء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٠]، يعني: كلّ شيء فيه حياة فهو من الماء، لا أنّ الماء داخل في كلّ شيء، فالمعنى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٠]؛ أي: كلّ شيء

موصوف بأنّه حيّ، فالماء دليل الحياة؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيّةَ فتموت، والإنسان الّذي كرّمه الله سبحانه وتعالى وجعله أعلى الأجناس، خلقه من الماء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾: وفي موضع آخر قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطّارق]، وهو ماء له خصوصيّة، وهو المنيُّ الّذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة].

﴿بَشَرًا﴾: أي: الإنس.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: فمن الماء خلق الله سبحانه وتعالى البشر، وهم قسمان: ذكور وإناث، فكلمة: ﴿نَسَبًا﴾ تعني: الذّكورة، ﴿وَصِهْرًا﴾ تعني: الأنوثة؛ لأنّ النّسب يعني انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة، فيظلّ الإنسان فلان بن فلان بن فلان.. إلخ، فالنّسب يأتي من ناحية الذّكورة، أمّا الأنوثة فلا يأتي منها نسب، إنّما مصاهرة، حينما يتزوّج رجل ابنتي، أو أتزوّج ابنته، يُسمُّونه صِهْراً، فمن عظمة الخالق عزَّ وجلَّ أن خلق من الماء هذيْن الشّيئين، كما قال في موضع آخر: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة]، وقد توصَّل العلماء مُؤخّراً إلى أنّ بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها في نوع الجنين، وما هي إلّا حاضنة للميكروب الذّكريّ الآتي من منيّ الرّجل، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة]، فالذّكر والأنثى كلاهما من المنيّ، فالحيوان المنويّ يخرج من الرّجل، منه ما هو خاصّ بالذّكورة، ومنه ما هو خاصّ بالأنوثة، ثمّ تتمّ عمليّة انتخاب للأقوى الّذي يستطيع تلقيح البويضة، وهذه الظّاهرة

واضحة في النّحل، حيث تضع الملكة البيض، ولا يُخصِّبها إلّا الأقوى من الذّكور، لذلك تطير على ارتفاعات عالية؛ لتنتخب الأقوى من الذّكور، كذلك الميكروب ينزل من الرّجل، والأقوى منه هو الّذي يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة، فإنْ سبق الخاصّ بالذّكورة كان الجنين ذكراً، وإنْ سبق الخاصّ بالأنوثة كان أنثى، والحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى]، وبهذه الآية الكونيّة في خَلْق الإنسان نردّ على الّذين يحلو لهم أن يقولوا: إنّ الإنسان خُلِق صُدْفة، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة، إلّا أنّ الذّكَر يختلف في الجهاز التّناسليّ وكذلك الأنثى، فهل يُردّ هذا إلى الصّدفة؟ ومعلومٌ أنّ الصُّدْفة من أعدائها الاتّفاق، فإذا جاء الذّكر صدفة، وجاءت الأنثى كذلك صدفة، فهل من الصّدفة أن يلتقيا على طريقة خاصّة، فيثمر هذا اللّقاء أيضاً ذكورة وأنوثة؟! فالمسألة ليست مصادفةً، إنّما هي غاية مقصودة للخالق عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: وذكر سُبحَانَهُ وَتَعَالَى القدرة هنا؛ لأنّ هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلّا بقدرة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبعد هذه الآية الكونيّة يعود سُبحَانَهُ وَتَعَالَى إلى خطابهم مرّة أخرى لعلّ قلوبهم ترقّ، فالحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يتعهّدهم مرّة بالنُّصح، ومرّة بإظهار آياته جَلَّجَلَالُهُ في الكون.

(الآية ٥٥) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني: أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم هذه الآيات كلَّها أنْ يلتفتوا إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، ويقصدوه بالعبادة؟

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾: بعضهم يرى أنّ هذه الآلهة لا تنفع لكنّها تضرّ، نقول لهم: هي لا تنفع، ولا تضرّ، أمَّا الّذي يضرّ فهو أنّك تعبدها؛ لأنّ الإنسان انصرف عن عبادة الله ﷻ إلى عبادة غيره، والمعنى هنا: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ﴾ إنْ عبدوه، ﴿وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ إنْ كفروا به وتركوه.

والقرآن الكريم يُسمِّي فعلهم من هذه الآلهة عبادة، وهم أنفسهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، وما أسهلَ أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك، والّذي يكرهونه في التّديُّن الحقيقيّ أنّه التزام وتكليف: افعل كذا، ولا تفعل كذا.

﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾: الظّهير: هو المعين: كما ورد في قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التّحريم: من الآية ٤]، وكانوا في الماضي يحملون الأحمال على الظّهْر قبل اختراع آلات الحمل، وحتّى الآن نرى (الحمّالين) يحملون الأثقال على ظهورهم، والمراد هنا بـ: الظّهير؛ أي: المعين على الضّلال، لكن، كيف يكون الكافر ظهيرّاً على الله ﷻ؟ قالوا: لأنّه يفعل المعصية، ويُتَّخذ أُسْوة فيها يُقلّده النّاس، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ، فالكافر أسوة شرّ، وأسوة فساد، وهو شيطان الإنس الّذي يوازي شيطان الجنّ الّذي عصى ربّه، ورفض السّجود لآدم.

كما أنّ الظّهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك، لا تأبه به، ولا تلتفت إليه، ومنه قول العرب: (لا تجعلنَّ حاجتي منك بظهر)، يعني: اجعلها أمام عينيك لا تجعلها وراء ظهرك.

فكِلا المعنيين جائز:

- ظهيراً؛ أي: مُعِيناً، كأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يقول لنبيّه صلى الله عليه وسلم: اعلم يا مُحَمّد أنّ الكافر ظهير على الله سبحانه وتعالى، فقِفْ له بالمرصاد، وجاهده ما استطعتَ، فكأنّه جل جلاله يُحمِّس رسوله صلى الله عليه وسلم ليقف هذا الموقف، ويُشجِّعه ليكون من عدوّه على حَذَر ويقظة.

- أو: ظهيراً لا يُؤبه له، وهذا طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالكافر هَيِّن على الله عز وجل، فلا يهمّك كيدهم، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ [الطّارق].

(الآية ٥٦) - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾:

صحيح أنّ الله سبحانه وتعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: من الآية ٧٣]، لكن لا يعني هذا أن يهلك رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه في دعوتهم، ويألم أشدّ الألم لعدم إيمانهم؛ لأنّ مهمّة الرّسول البلاغ، وقد أسف رسول الله صلى الله عليه وسلم لحال قومه حتّى خاطبه ربّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، وقد أمره الله سبحانه وتعالى ألّا يترك جُهْداً إلّا بذله معهم، فرسالة الرّسول صلى الله عليه وسلم أنّه مُبشِّر ومُنذِر:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾: أي: بالخير قبل أوانه ليتلفّت النّاس إلى وسائله.

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: بالشّرّ قبل أوانه ليحذره النّاس، ويجتنبوا أسبابه ووسائله. ثمّ يوجّه ربّ العزّة نبيّه ورسوله صلى الله عليه وسلم:

(الآية ٥٧) - ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾:

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾: في آيةٍ أخرى: يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور]، يعني: غير قادرين على دَفْع الثّمن؛ لأنّهم بخلاء ولا يريدون أنْ يُخرِجوا من جيوبهم شيئاً، مع أنّك لم تسألهم أجراً، فهل يعني ذلك أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان من المفروض أن يسألهم أجراً؟ قالوا: إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التّبادل والمعاوضة، وكأنّه صلى الله عليه وسلم يقول لهم: لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أنّ لي عليه أجراً، لكنّي لا أريد منكم أجراً، والمسألة من عندي تفضُّل.

الأجر: جُعْلٌ يقابل عملاً، والثّمن: جُعْل يقابل تملُّكاً، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقّة العمل، وطُول زمنه، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل، ومخاطر ما يقتضيه العمل، فكلّ أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقّة ومخاطرة ومهارة.. إلخ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرّسول صلى الله عليه وسلم وإلى مدى إفادتكم من رسالته، انظروا إلى المنهج الّذي جاءكم به، وكيف أنّه يريحكم مع أنفسكم، ويريحكم مع المجتمع، ويريحكم مع ربّكم عز وجل، ويريحكم من شرور أنفسكم، ومن شرور النّاس جميعاً، فللرّسول عمل كبير ومجهود عظيم، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً، إنّما هو صلى الله عليه وسلم لا يريد أجراً، لا كراهية في الأجر، إنّما المطلوب هو الهداية واتّخاذ السّبيل إلى الله عز وجل، هذا

هو المعنى في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: من الآية ٢٩]، وفي موضع آخر يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: من الآية ٧٢]، فما العلاقة بين الأجر وبين: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: من الآية ٧٢]؟ كأنّ المسلم ينبغي عليه أن يعمل العمل، ولكن يعمله لله عَزَّوَجَلَّ ويكون أجره على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يفعل ليقال وانتهتْ المسألة، لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة الرّسل كلّهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٠٩].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: أي: سبيلاً للمثوبة، وسبيلاً للأجر من جهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو صدقة على الفقراء.. إلخ.

(الآية ٥٨) - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾:

الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُطمئن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا مُحَمَّد لا تهتمّ بكثرة الكفّار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجنّ؛ لأنّ هؤلاء سيتساقطون ويموتون، أمّا أنت، فتوكّل على الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: العاقل لا يتوكّل إلّا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته، وأنّه سيوافقه في كلّ ما يريد، وكأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أن ينصح خَلْقه: إنْ أردتَ أنْ تتوكّل فتوكّل على مَنْ ينفعك ولا يتركك، على مَنْ يظلّ على العهد معك لا يتخلّى عنك، على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾: سبِّح يعني: نزِّه، والتّنزيه تضعه في إطار: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فللّه ﷻ وجود، ولك وجود، لكنّ وجوده ﷻ ليس كوجودك، ولله ﷻ صفة ولك الصّفة نفسها، لكنّ صفته ﷻ ليست كصفتك، ولله ﷻ فعل، ولك فعل، لكنّ فعله ﷻ ليس كفعلك، فنزِّه الله ﷻ في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله عن مشابهة الخَلْق، وما دام الحقّ ﷻ مُنزَّهاً في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التّغيير أبداً، وهذا التّنزيه لله ﷻ، وهذه العظمة والكبرياء له ﷻ في مصلحة الإنسان، ومن مصلحته ألّا يوجد لله ﷻ شبيه، لا في وجوده، ولا في بقائه، ولا في تصرُّفه، ومن مصلحة الإنسان أن يعرف أنّ هناك مَنْ هو أعلى منه، وأنّ الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ﷻ، فهذا يضمن للإنسان أن يعيش معهم آمناً، فمن الخير لنا أن يكون الإله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، وأن يكون ﷻ عالياً فوق كلّ شيء، ويجب علينا حين نُنَزّه الله ﷻ ألّا نُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً، إنّما تنزيهاً مقروناً بالحمد: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾، فنحمده على أنّه واحد لا شريك ولا مثيلَ له، وليس كمثله شيء، ففي ظلّ هذه العقيدة لا يستطيع القويُّ أن يطغى على الضّعيف، ولا الغنيّ على الفقير.. إلخ.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾: نقول: كفاك فلان، يعني: لا تحتاج غيره، كقولنا: حَسْبُك الله، يعني: كافيك عن الاحتياج إلى غيره؛ لأنّه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه، ويمنع عنك الشّرّ، وإنْ كنت تظنّه خيراً لك.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾: المعنى: إذا توكلتَ على الحيِّ الّذي لا يموت، فآثار هذا التّوكّل أنْ يحميك من ذنوب العباد، فهو وحده الّذي يعلم ذنوبهم، ويعلم حتّى ما يدور في أنفسهم.

﴿خَبِيرًا﴾: الخبير: الّذي يعلم خبايا الأمور، حتّى في مسائل الدّنيا المهمّة نقول: نستدعي لها الخبير؛ لأنّ المختصّ العاديّ لا يقدر عليها، وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك].

ثمّ ينقلنا الحقّ ﷻ إلى آية كونيّة، تُضَاف إلى الآيات السّابقة، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونيّة أنّه لعلّها تصادف رِقَّة قلبٍ واستمالة مواجيد، فتعطف الخَلْق إلى الخالق، وتُلفِت الأنظار إليه ﷻ.

(الآية ٥٩) - ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: بعض النّاس يظنّ أنّ خَلْق السّموات والأرض شيء سهل، وأعظم منه خَلْق الإنسان، لكنّ الله ﷻ يقول: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، فالإنسان يخلقه الله ﷻ، وقد يموت بعد يوم، أو بعد مئة عام، وقد تصيبه في حياته الأمراض، أمّا السّموات والأرض، فقد خلقها الله ﷻ بهندسة دقيقة، وقوانين لا تختلف ولا تختلّ مع ما يمرُّ عليها من أزمنة، وكأنّ الحقّ ﷻ يقول للإنسان: إنّ السّموات والأرض هذه خلْقتي وصَنْعتي، لو تدبّرتَ فيها وتأمّلتَها لوجدتَها أعظم من خَلْقك أنت.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾: سبق أن تكلّمنا في هذه المسألة وقلنا: إنّ جمهرة آيات القرآن الكريم تدلّ على أنّ الخَلْق تمَّ في مدّة ستّة أيّام، وهناك مَن يسأل خُلِقَت الأرض أوّلاً أم السّماء؟ والأيّام مرهونة بالشّمس والقمر، فما

هي هذه الأيّام وما هي مدّتها؟ المولى سبحانه وتعالى أطلق الكلام هنا، المدّة قال عنها: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فهو يريد أن يُقَرِّب الموضوع إلى أذهاننا، وكأنّها أيّام كأيّامكم، الّتي يعادل فيها اليوم (٢٤) ساعة، والآيات كلّها تقول: إنّها ستّة أيّام، إلّا سورة واحدة تُشعِر آياتها أنّ الخلق في ثمانية أيّام، وهي سورة فصّلت: حيث يقول فيها الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصّلت]، وجملة هذه ثمانية أيّام، وكلّ مُجمل يخضع للتّفصيل إلّا تفصيل العدد فيرجع للمجمل، كيف؟ الحقّ سبحانه وتعالى يتكلّم هنا عن خَلْق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، ثمّ تكلَّم عن خَلْق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيّام، فخلق الأرض في يومين والباقي أكمل الأربعة، كما تقول: سِرْتُ إلى حمص في ساعة، وإلى طرطوس في ساعتين؛ أي: يدخل فيهما السّاعة الأولى إلى حمص، لكن، كيف نُقدِّر هذا اليوم؟ الله سبحانه وتعالى يخاطبنا باليوم الّذي نعرفه ونعرف مدلوله، فالمعنى: في ستّة أيّام من أيّامكم الّتي تعرفونها، وإلّا لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن، فسيكون لا معنى له؛ لأنّنا لا نفهمه، وبعضهم يقول: كيف يستغرق الخَلْق هذه المدّة كلّها والحقّ سبحانه وتعالى يخلق بـ ﴿كُن﴾، و﴿كُن﴾ لا تحتاج وقتاً؟ قالوا: فَرْق بين عمليّة الخَلْق وما يحتاجه المخلوق

في ذاته، فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون خلق أسباباً وربط الأسباب بالمسبّبات، وترك الأسباب لتتفاعل في ستّة أيّام، ومن حكمة خلقه أن يجعل المعالجة، والله سبحانه وتعالى يفعل ويخلق دون معالجة، وبالتّالي دون زمن؛ لأنّه سبحانه وتعالى يقول للشّيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولكن عندما تركها ستّة أيّام وذلك حتّى تتفاعل، وحتّى تكون الحياة الدّنيا مربوطة بالأسباب، فهذه إرادة الله سبحانه وتعالى، وإلّا فالله سبحانه وتعالى قادر على خلق السّموات والأرض بكلمة ﴿كُن﴾ دون زمن، وانتهى الأمر، ولكن حتّى يعلم الإنسان أنّ هذه الحياة هي حياة مكوّنة من أسباب، فيأخذ بالسّبب ليصل إلى النّتائج.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾: سبق أن تكلّمنا في هذه المسألة، استوى: تعني: صعد وارتفع وعلا وجلس، ونحن نُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن استواءٍ يُشابه استواء خَلْقه، والاستواء هنا رمزيّة لتمام الأمر بما نعرفه نحن، في عادة الملوك في الجلوس على كرسيّ العرش حين يتمّ لهم الأمر ويستتبّ، فهي تقريب للأذهان.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: دليلٌ على أنّ مسألة الخَلْق كلّها تدور في إطار الرّحمانيّة، فلم يقل: (ٱللَّهُ)، أو: (القادر)، بل قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ليطمئنّ المخلوق إلى رحمانيّته سبحانه وتعالى، فكلّ شيء يدور في إطار الرّحمانيّة.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾: لأنّه سبحانه وتعالى خلق السّموات والأرض وخلقنا، ومع ذلك لا نعرف: كيف تمّ هذا الخَلْق؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيله، إلّا إذا أطلعنَا الخالق جلّ جلاله عليه، وإلّا فهذا أمر لم نشاهده، فكيف نخوض فيه، كمن يقول: إنّ الأرض كانت قطعةً من الشّمس، ثمّ انفصلتْ عنها مع

دوران الشّمس.. إلى آخر هذه الأقوال، لذلك الحقّ سبحانه وتعالى يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النّظريّات؛ لأنّ مسألة الخَلْق لا تخضع لأقوال النّاس، يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف]، فسيوجد في الكون مُضلّون يقولون للنّاس مثل هذه الأقوال في الخَلْق ويدَّعُون بها أنّهم علماء يعرفون ما لا يعرفه النّاس، فاحذروهم فهم لم يشاهدوا عمليّة الخَلْق، وما كانوا مساعدين لله سبحانه وتعالى، فيطّلعوا على تفاصيل الخَلْق، لذلك تقوم هذه الأقوال في خَلْق الإنسان وخَلْق السّماء والأرض دليلاً على صِدْق هذه الآية، وبعض النّاس الّذين يحلو لهم التّعصّب للقرآن الكريم ضدّ الحديث النّبويّ، يقول لك أحدهم: حدِّثني عن القرآن الكريم، سبحان الله، أتتعصّب للقرآن الكريم ضدّ الرّسول الّذي بلَّغك القرآن الكريم، وما عرفتَ القرآن الكريم إلّا من طريقه؟! ويهاجم الحديث النّبويّ، نقول له: أنت صلّيتَ المغرب ثلاث ركعات، فأين هذا من القرآن الكريم؟ لذلك يقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «**أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَاماً حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللهُ**»(١)، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا، فنجد اليوم مَن يقولون: نحن لا نأخذ بالأحاديث، ونكتفي بالقرآن، فهم يُثبتون صحّة الحديث.

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب العلم، باب ما نُهي عنه أن يُقال عند حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم (٢٦٦٤).

نعود إلى موضوعنا، ونحن بصدد الكلام عن خَلْق السّموات وخَلْق الأرض، واستواء الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العرش، وهاتان المسألتان لا تسأل فيهما إلّا الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسْـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾؛ لأنّه وحده الّذي يعلم خبايا الأمور، وهذه أمور لم يطَّلِع عليها أحد فيُخبرك بها.

﴿فَسْـَٔلۡ﴾: الإنسان لا يسأل عن شيء إلّا إذا كان يجهله، والسّؤال له مراحل: فقد تجهل الشّيء ولا تهتمّ به، ولا تريد أن تعرفه، فأنت واحد من ضمن الّذين لا يعرفون، وقد تجهل الشّيء لكن تهتمّ به، فتسأل عنه لاهتمامك به، فمرَّة نقول: اسأل به، ومرّة نقول: اسأل عنه، والمعنى: اسأل اهتماماً به؛ أي: بسبب اهتمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد، فهو وحده الّذي يعرف خبايا الأمور ودقائقها، وعنده خبر خَلْق السّموات وخَلْق الأرض، ويعلم مسألة الاستواء على العرش؛ لذلك إنْ سألتَ عن هاتين المسألتين، فلا تسأل إلّا خبيراً، والّذين قالوا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾؛ أي: ممَّنْ يعلم الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ من أهل الكتاب، نقول: لا بأسَ؛ لأنّه سيؤول إلى الله عَزَّوَجَلَّ في النّهاية.

(الآية ٦٠) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾:

نلحظ أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حينما ذكر الصّفة الملزمة لأنْ نخضع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لم يَقُلْ مثلاً: اسجدوا لله، إنّما: ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، وأتى بالصّفة الّتي تُعدّي رحمانيّته إلينا، فكان من الواجب أنْ نطيعه، وأن نخضع له، فلنجعل طاعتنا لمن لا نستغني عنه، ولنجعل خضوعنا لمن لا نخرج عن مُلْكه.

﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: كأنّهم لا يعرفون هذه الكلمة.

﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾: دليل على أنّ الامتناع عن السّجود ليس للذّات المسجود لها، بل لمن أمر بالسّجود، كما سبق وأنْ قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، فكأنّهم إنْ أمرهم الله ﷻ بالسّجود لسجدوا، لكن كيف يأتي الأمر من الرّسول خاصّة؟ وما ميْزته عليهم حتّى يأمرهم؛ لذلك قال بعدها:

﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩﴾: والنّفور: الانفكاك عن الشّيء بِكُرْه.

(الآية ٦١) - ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾:

يعود السّياق القرآنيّ مرّة أخرى لذِكْر آية كونيّة؛ لأنّ الحقّ ﷻ يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله ﷻ وعظمته، وهذا يدلّ على مدى تعنّتهم وعنادهم، وحرص الحقّ ﷻ على لَفْتهم إلى الآيات الكونيّة، لكي يتّعظوا، ولو شاء ﷻ لَسرَد الآيات الكونيّة مرّة واحدة، وآيات التّكذيب مرّة واحدة، ولكن يُزاوج ﷻ بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين.

﴿تَبَارَكَ﴾: يعني: تنزّه، وعَلا قدره، وعَظُم خيره وبركته.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾: البروج: جمع بُرْج، وهو الحصن الحصين العالي الّذي لا يقتحمه أحد، والآن تُطلَق على المباني العالية، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ [البروج]، وقوله ﷻ: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨].

والبروج: منازل في السّماء يحسب النّاسُ بها الأوقات، ويربطون بينها وبين الحظوظ، وقد دلَّتْ الآيات على أنّ هذه البروج جعلها الله سبحانه وتعالى لتُسهِّل على النّاس أمور الحساب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرّحمن]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٦]، يعني: بها تُحسَب المواقيت، فالشّمس تعطينا المواقيت اليوميّة واللّيليّة، والقمر يدلُّنا على أوّل كلّ شهر؛ لأنّه يظهر على جِرْم معيّن، وكيفيّة مخصوصة تُوضّح لنا أوّل الشّهر ومنتصفه وآخره، ثمّ تُعطينا الشّمس بالظّلّ حساب جزئيّات الزّمن.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾: السّراج هو المصباح الّذي نشعله ليعطي حرارة وضوءاً ذاتيّاً، والمراد هنا الشّمس؛ لأنّ ضوءَها ذاتيٌّ منها، وكذلك حرارتها، على خلاف القمر الّذي يُضيء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه، فإضاءته غير ذاتيّة؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر: الضّوء الحليم؛ لأنّه ضوء بلا حرارة، والعجيب أنّ سطح القمر -كما وجدوه- حجارة، ولكن هلْ قَلَّ ضوء القمر عندما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه بحوثهم؟ الجواب: لا؛ لأنّ دائرته الكاملة هي الّتي تعكس إلينا ضوء الشّمس، وحين نأخذ منه حجراً يعكس لنا ما تحته أشعة الشّمس، وفي موضع آخر، يوضِّح الحقّ سبحانه وتعالى هذه المسألة، فيقول جلّ جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: من الآية ٥]، فالضّياء هو الّذي يأتي من الكوكب ذاتيّاً، والنّور هو انعكاس الضّوء على جسم آخر، فهو غير ذاتيّ.

(الآية ٦٢) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾: عرفنا أنّ اللّيل: غياب الشّمس عن نصف الكرة الأرضيّة، والنّهار مواجهة الشّمس للنّصف الآخر، واللّيل والنّهار متعاقبان: ﴿خِلۡفَةً﴾ يأتي اللّيل ثمّ يعقبه النّهار، كلّ منهما خَلْف الآخر، وهذه المسألة واضحة لنا الآن، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله سبحانه وتعالى الخَلْق الأوّل، فساعتها، هل كانت الشّمس مواجهة للأرض أو غائبة عنها؟ فلا بدّ أنّهما خِلْفة منذ الخَلْق الأوّل؛ ذلك لأنّ الأرض -كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شكّ في هذه المسألة- كرويّة، والحقّ سبحانه وتعالى حينما خلق الشّمس والقمر الخَلق الأوّل كان المواجه منها للشّمس نهاراً، والمواجه منها للقمر ليلاً، ثمّ تدور حركة الكون، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية، وهذه النّظريّة لا تستقيم إلّا إذا قُلْنا بكرويّة الأرض، وهذه يؤيّدها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: من الآية ٤٠]، والمعنى أيضاً: ولا النّهار سابق اللّيل، لكن ذكر اللّيلَ؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ اللّيل خُلِق أوّلاً، لماذا؟ لأنّ الزّمن عندهم يثبت بليله، كما يحدث مثلاً في الصّوم، فهل تصوم أوّلاً في النّهار ثمّ ترى الهلال باللّيل؟ إنّما ترى الهلال باللّيل أوّلاً، فكأنّ رمضان يبدأ يومه بليله، وما دام الأمر كذلك فاللّيل سابقُ النّهار عندهم، وهذه قضيّة يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم، وجاء القرآن الكريم وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد: أنتم تعتقدون أنّ اللّيلَ سابقُ النّهار، يعني: النّهار لا يسبق اللّيل، لكن، اعلموا أيضاً أنّ اللّيل لا يسبق النّهار، فالمحصّلة: لا اللّيلُ سابقُ

النّهار، ولا النّهار سابق اللّيل، ولو قلنا: بأنّ الأرض مسطّحة لَمَا استقام لنا هذا القول، لكن، أيّ ليل؟ وأيّ نهار؟ نهاري أنا، أم نهار المقابل لي؟ وكلّ واحد على مليون من الثّانية يولد نهار ويبدأ ليل؛ لأنّ الشّمس حين تغيب عنّي تشرق على آخرين، والظّهر عندي يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين، فالزّمن كلّه فيه الزّمن، وهذا الاختلاف في المواقيت يعني أنّ كلمة: (الله أكبر) شائعة في الزّمن كلّه، فالله ﷻ معبود بكلّ وقت وفي كلّ زمن، فأنت تقول: (الله أكبر)، وغيرك يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله.. وغيره يقول: حيّ على الصّلاة.. وهكذا، وإنْ كان الحقّ ﷻ خلق اللّيل للسُّبات والرّاحة، والنّهار للسّعي والعمل، فهذه الجمهرة العامّة لكنّها قضيّة غير ثابتة، حيث يوجد من مصالح النّاس ما يتعارض وهذه المسألة، فمن النّاس مَنْ تقتضي طبيعة عمله أن يعمل باللّيل، كالخبّازين والحرّاس والممرّضين.. إلخ، فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل باللّيل والرّاحة بالنّهار، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا: إنّ هذا الكلام متناقض مع كونيّات الخَلْق؛ لذلك يقول ﷻ في آية أخرى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٣]، فتراعي هذه الآية ظروف هؤلاء الّذين يضطرّون للعمل ليلاً، وللرّاحة نهاراً.

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾: يعني: يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربّه انتهِزْ فرصة اللّيل، ويا مَنْ شغله نوم اللّيل عن ذِكْر ربّه انتهز فرصة النّهار، وذلك كقول النّبيّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»**[1].

(١) صحيح مسلم: كتاب التّوبة، باب ٥، الحديث رقم (٢٧٥٩).

ومعنى ﴿يَذَّكَّرَ﴾: يتمعّن ويتأمّل في آيات الله ﷻ، في اللّيل وفي النّهار، كأنّه يريد أن يجدّد لله ﷻ نعماً يشكره عليها، على خلاف الغافل الّذي لا يلتفت إلى شيء من هذا، فمن فضل الله ﷻ علينا أن يُنبِّهنا إلى هذه النّعم، ويلفت نظرنا إليها؛ لأنّنا أهل غفلة.

﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾: أي: شكراً، فهي صيغة مبالغة في الشّكر.

(الآية ٦٣) - ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾:

يعطينا الحقّ ﷻ صورة للعبوديّة الحقّة، ونموذجاً للّذين اتّبعوا المنهج، كأنّه ﷻ يقول لنا: دَعْكُم من الّذين أعرضوا عن منهج الله ﷻ وكذَّبوا رسوله، وانظروا إلى أوصاف عبادي الّذين آمنوا بي، ونفَّذوا أحكامي، وصدَّقوا رسولي.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: نقول: عباد وعبيد، والتّحقيق أنّ عبيد جمع لعبد، وأنّ عباد جمع لعابد، مثل: رجال جمع راجل، كقوله ﷻ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [الحجّ: من الآية ٢٧]، فعبيد غير عِبَاد.

وسبق أن تحدّثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد، فكلّنا عبيد لله ﷻ: المؤمن والكافر، والطّائع والعاصي، فما دام يطرأ على الإنسان في حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه، كالمرض والموت.. إلخ، فهو مقهور، فالعبد الكافر الّذي تمرَّد على الإيمان بالله ﷻ، وتمرَّد على تصديق الرّسول ﷺ، وتمرّد على أحكام الله ﷻ فلم يعمل بها، هو مقهور للمرض والموت، فهم عبيد، فأنت

عبد رغماً عنك، وكلّنا عبيد بهذا المعنى، أمّا الّذي يختار الطّاعة فيسمّى عابداً، فاستحقّ أن يكون من عباد الله ﷻ، وهنا يأتي قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فنحن وإنْ كنّا عبيداً فنحن سادة؛ لأنّنا عبيد الرّحمن؛ لذلك كانت حيثيّة تكريم الله لرسوله ﷺ في الإسراء هي عبوديّته لله ﷻ، حيث قال ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ١]، فالعبوديّة هي علّة الارتقاء، فلمّا أخلص رسول الله ﷺ العبوديّة لله ﷻ نال هذا القُرْب الّذي لم يسبقه إليه بشر، لذلك وصف الله ﷻ الملائكة بأنّهم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٦].

وأوّل ما نلحظ في هذه الآية أنّه ﷻ أضاف العباد إلى الرّحمن، حتّى لا نظنّ أنّ العبوديّة لله ﷻ ذِلَّة، وأنّ القرآن الكريم كلام ربّ وُضِع بميزان، ثمّ يذكر ﷻ صفات هؤلاء العباد، صفاتهم في ذواتهم، وصفاتهم مع مجتمعهم، وصفاتهم مع ربّهم، وصفاتهم في الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنّقاء، أمّا في ذواتهم، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام: إمّا قاعد، وإمّا سائر، ونُخرِج حالة النّوم؛ لأنّه وقت سكون، أمّا حال القعود فالحركة محدودة في ذاته، والمهمّ حال الحركة والمشي، وهذا هو الحال الّذي ينبغي الالتفات إليه، لذلك يوضّح لنا ربّنا ﷻ كيف نمشي فيقول:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾: يعني: برفق وسكينة ولين دون اختيال، أو تكبُّر، أو غطرسة، لماذا؟ لأنّ المشي هو الّذي سيُعرِّضنا لمقابلة مجتمعات متعدّدة، وهذا الأدب الرّبّانيّ في المشي يُحدِث في المجتمع استطراقاً إنسانيّاً يُسوِّي بين الجميع، وفي موضع آخر يقول ﷻ في هذه

المسألة: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: من الآية ١٨]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾ [الإسراء: من الآية ٣٧]، والمتكبِّر شخص ضُرِب الحجاب على قلبه، فلم يلتفت إلى ربّه الأعلى، ويرى أنّه أفضل من خَلْق الله ﷎ جميعاً، ولو استحضر كبرياء ربّه ﷻ لاستحى أن يتكبّر على خَلْق الله ﷎، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة، وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشي، فيقول ﷻ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: من الآية ١٩]، وقالوا: إنّ المراد بالمشي الهَوْن، هو الّذي يسير فيه الإنسان على سجيّته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر، لكن دون انكسار وذِلّة، وسيّدنا عمر ﵁ حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه، ونهاه عن الانكسار والتّماوت في المشية، وهكذا فمِشْية المؤمن وَسَط، لا مُتَكبّر ولا مُتَماوت مُتَهالك.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: الجاهل: هو السَّفيه الّذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخَلْق ولا في الأدب، وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأمّيّ، الأمّيّ هو خالي الذّهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السّهل إقناعه بالصّواب، أمّا الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً في إقناعه؛ لأنّه يحتاج أوّلاً أن تُخرِج من ذهنه الخطأ، ثمّ تُدخِل في قلبه الصّواب.

والمعنى: إذا خاطبنا الجاهل، فحذار أن نكون مثله في الرّدِّ عليه فنسْفَه عليه كما سَفِهَ علينا، بل نقرّعه بأدب، ونقول: ﴿سَلَٰمًا﴾، لنُشعِره بالفرق بيننا وبينه، والحقّ ﷻ يُوضِح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب، فيقول: ﴿ٱدْفَعْ

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، وما أجملَ ما قاله الإمام الشّافعيّ في هذا المعنى:

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْر مِنْ إجَابتهِ السُّكُوتُ

فإنْ كلّمتَه فرّجتَ عَنْه ... وَإنْ خلّيْته كَمَداً يمُوتُ

فإنِ اشتدّ السّفيه سفاهة، وطغى عليك وتجبّر، فلا بُدَّ لك من رَدِّ العدوان بمثله؛ لأنّك حَلُمتَ عليه، فلم يتواضع لك، وظنَّ حلْمك ضعفاً، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضّعف وكرم الخُلق.

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾: قالوا: المراد هنا سلام المتاركة، فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول، ويتعدّى عليك باللّسان تقول له: سلام، يعني: سلام المتاركة، وبعض العلماء يرى أنّ كلمة: ﴿سَلَٰمٗا﴾ هنا تعني المعنيين: سلام المتاركة، وسلام التّحيّة والأمان، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجاريهِ، تقول له: لو تماديتُ معك سأوذيك، وأفعل بك كذا وكذا، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التّحيّة والأمان.

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم، وحالهم مع النّاس، تتحدّث الآن عن حالهم مع ربّهم عزّ وجلّ:

(الآية ٦٤) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ﴾: والبيتوتة تكون باللّيل، حين يأوي الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه، وبعد أن تقلَّب في ألوان شتَّى من نِعَم الله تعالى عليه، فحين يأوي إلى مبيته يتذكّر نِعَم الله عزّ وجلّ الّتي تجلّتْ عليه في

ذلك اليوم، وهي نِعَم ليست ذاتيّة فيه، إنّما موهوبة له من الله عزّ وجلّ؛ لذلك يتوجّه إليه سبحانه وتعالى بالشّكر عليها، فيبيت لله سبحانه وتعالى ساجداً وقائماً، كما قال جلّ جلاله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزّمر: من الآية ٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذّاريات]، لكن، أيطلبُ اللهُ سبحانه وتعالى منَّا ألّا نهجعَ باللّيل، وقد قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النّبأ]، قالوا: ليس المراد قيام اللّيل كلّه، إنّما جزء منه حين تجد عندك النّشاط للعبادة، كما قال الحقّ سبحانه وتعالى في خطاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزّمّل]، حتّى قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله سبحانه وتعالى ساجداً وقائماً"، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام، وأن تتأمّل نِعَمه عليك فتشكره عليها.

وذكر سبحانه وتعالى حالتي السّجود والقيام: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾؛ لأنّ بعض النّاس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا، وآخرين يسهل عليهم السّجود، ويصعب عليهم القيام، فذكَر الله سبحانه وتعالى الحالتين.

(الآية ٦٥) - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾:

هذا القول يناسب عباد الرّحمن الّذين يفعلون الخيرات، طمعاً في الثّواب، وخوفاً من العقاب، فهم الّذين يقولون: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

﴿غَرَامًا﴾: كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحبّ والهُيَام والعشق، ومعناها: اللّزوم؛ أي: لازم لهم لا ينفكّ عنهم في النّار أبداً؛ لأنّ العاقبة إمّا جنّة أبداً، وإمّا نار أبداً.

فمعنى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: لازماً دائماً، ليس مرّة واحدة وتنتهي المسألة، ومنه كلمة (الغريم)، وهو الّذي يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، كأنّهم متصوّرون أنّ جهنّم ستسعى إليهم، وأنّ بينها وبينهم عداءً، بدليل أنّها ستقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: من الآية ٣٠]. ثمّ تذكر الآيات سبب هذه المقوله:

(الآية ٦٦) - ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾:

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ﴾: ساء الشّيء؛ أي: قَبُحَ، وضدّه حَسُن، لذلك قال ﷻ عن الجنّة في مقابل هذه الآية: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان: من الآية ٧٦]، وهكذا السّوء يلازمه القُبْح، والحُسْن يلازمه الحُسْن.

﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: قال ذلك حتّى لا يظنّوا أنّ النّار فترة وتنتهي، ثمّ يخرجون منها، فهي مستقرّهم الدّائم، ومُقامهم الّذي لا يفارقونه.

أو أنّ الحقّ ﷻ أراد بهذا نوعين من النّاس: مؤمن أسرف في بعض السّيّئات ولم يتُبْ، أو لم يتقبّل الله ﷻ منه توبته، فهو في النّار لحين، والمستقرّ هنا بمعنى المكان المؤقّت، ومشرك له إقامة دائمة، وهو المراد بـ (المقام) هنا، فالنّار ساءتْ مستقرّاً لمن أسرف على نفسه ولم يتُبْ، أو لم يتقبّل الله ﷻ توبته، وساءت مُقاماً للمشركين.

(الآية ٦٧) - ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾:

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾: الإسراف: تبديد ما تملك فيما عنه غَنَاء، فلا نقول: (مسرف) مثلاً للّذي يأكل ليحفظ حياته؛ لذلك يقول سيّدنا عمر رضي الله عنه لولده عاصم: كُلْ نصف بطنك، ولا تطرح ثوباً إلّا إذا استخلقْتَه، ولا تجعل رزقك كلّه في بطنك وعلى جسدك.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: أي: بين الإسراف والتّقتير.

﴿قَوَامًا﴾: يعني: وسطاً؛ أي: أنّ الإنفاق وسط بين طرفين، وقوام الشّيء: ما به يقوم، والحياة كلّها تقوم على عمليّة التّوسُّط بين الإسراف والتّقتير، ويروى أنّ عبد الملك بن مروان لـمّا أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اختبره بهذا السّؤال ليعرف ميزانه في الحياة: يا عمر، ما نفقتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، نفقتي حسنة بين سيّئتين، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، فعلم الخليفة أنّ زوج ابنته يسير سَيْراً يضمن له ولزوجته مُقوّمات الحياة، ويضمن كذلك المقوّمات العليا للنّفس والمجتمع.

وسبق أن ذكرنا أنّ الإنسان الّذي ينفق دَخْله كلّه لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده؛ لأنّه أسرف في الإنفاق، ولم يدّخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً، أو يشتري سيّارة.. إلخ، ومصيبة المجتمع أعظم في حال التّقتير، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق، وأن يكون الادّخار على قدر الحاجة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٩]، وهكذا جعل الله ﷻ لنا ميزاناً بين الإسراف والتّقتير؛ ذلك لأنّ المال قِوَام الحياة، والّذي يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى النّاس، فالتّقتير يكون بقدر، والإنفاق كذلك يجب أن يكون ضمن ضروريّات الحياة الّتي أرادها الله ﷻ، وخُتِمَتْ الآية السّابقة بقوله ﷻ: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: من الآية ٢٩]، لما بدّدتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى في حياته وأنت لم تفعل شيئاً، فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف، محسورٌ إنْ قتّر، والقوام في التّوسُّط بين الأمرين، وبالحسنة بين السّيّئتين، كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ولذلك قالوا: خير الأمور الوسط.

(الآية ٦٨) - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾:

وهنا قد يسأل سائل: أبعد هذه الصّفات كلّها لعباد الرّحمن ننفي عنهم هذه الصّفة: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وهم مَا اتّصفوا بالصّفات السّابقة إلّا لأنّهم مؤمنون بالإله الواحد ﷻ؟ قالوا: هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن الكريم أن يكرّرها، ويهتمّ بالتّأكيد عليها.

ومعنى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: ليس الأصنام والتّماثيل والحجارة والشّمس وغيرها؛ أي: أنّهم لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم، وهذا هو الشّرك الخفيّ، كمن يعتقد أنّ فلاناً يضرّ وينفع، والله ﷻ هو الضّارّ

والنّافع، أو كمن يتوكّل على الله ﷻ وعلى فلان، فنقول له: انتبه، الأمر كلّه بيد الله ﷻ، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا يعتقدون أنّ هناك ضارّ ولا نافع إلّا الله سبحانه وتعالى، ويمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين في الأسباب الّذين ينتظرون منها العطاء، وينسْونَ المسبِّب سبحانه وتعالى، وهذا هو الشّرك الخفيّ، يقول ﷺ: «**الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا**»(١).

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: سبق أنْ تحدّثنا عن الفرق بين الموت والقتل، وقلنا: إنّ كليهما تذهب به الحياة، لكن في الموت تذهب الرّوح أوّلاً، ثمّ تُنقض البنية بعد ذلك، أمّا في حالة القتل فتُنقض البنية أوّلاً، ثمّ يتبعها خروج الرّوح، فالموت بيد الله ﷻ، أمّا القتل فقد يكون بيد البشر، وهنا نَهْي صريح عن هذه الجريمة؛ لأنّه ملعون مَنْ يهدم بنيان الله ﷻ، ويقضي على الحياة الّتي وهبها الله سبحانه وتعالى لعباده.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: حقّ يبيح القتل، كالقصاص من القاتل، ضمن الأنظمة والقوانين.

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾: تحدّثنا عن هذه المسألة في أوّل سورة النّور، وقلنا: إنّ الإنسان الّذي كرّمه الله سبحانه وتعالى وجعله خليفة له في أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة، وأنْ يسكن الدّنيا على مقتضى قانون الله ﷻ، فلا يُدخِل في

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابٌ مِنْهُ فِي الرِّيَاءِ وَخَفَائِهِ، الحديث رقم (١٧٦٦٨).

عنصر الحياة شيئاً يخالف هذا القانون؛ لأنّ الله ﷻ يريد أن يُبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر وعلى عناية المربِّي بالمربَّى، وعلى الفطرة السّليمة، وألّا يوجد في المجتمع شخص غير منسوب لأبيه الحقّ، من هنا نهى الإسلام عن الزّنا، وجعل من صفات عباد الرّحمن أنّهم لا يزنون، فالزّنا كما قال ﷻ عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإسراء: من الآية ٣٢].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾: أثاماً، مثل: نكالاً وَزْناً ومعنىً، والآثام: عقوبة الإثم والجزاء عليه.

(الآية ٦٩) - ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾:

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: كيف نفهم مضاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله ﷻ في آية أخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٠]، وقوله ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام]، الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم، فالّذي يرتكب هذه الفِعْلة يكون أسْوة في المجتمع تُجرِّىء غيره على ارتكاب هذه الجريمة؛ لذلك عليه وزرةٌ كفاعل أوّلاً، وعليه وِزْر مَنِ اقتدى به، كما جاء في قوله ﷻ حكايةً عن الكافرين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣]، فوجود الآباء كقدوة للشّرّ يزيد من شرِّ الأبناء، فكأنّهم شركاء فيه، لذلك يقول الله ﷻ في موضع آخر: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾

[النّحل: من الآية ٢٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ١٣]، فالوِزْر الأوّل لضلالهم الذّاتيّ، والوِزْر الآخر؛ لأنّهم أضلّوا غيرهم، وهذا هو المراد بمضاعفة العذاب.

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾: معنى: ﴿مُهَانًا﴾: حينما وصف القرآن الكريم العذاب وصفه مرّةً بأنّه: أليم، ومرّةً: عظيم، ومرّة: مُهين، فالّذي ينظر إلى إيلام الجوارح يقول: هذا عذاب أليم؛ لأنّه يُؤلم كلّ جارحة فيه، فالعذاب أمر حِسّيّ، أمّا الإهانة فأمر معنويّ، ومن النّاس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثّر فيه.

والخالق عَزَّ وَجَلَّ خلق النّاس وعَلِمَ أزلاً أنّهم أبناء أغيار، ليس معصوماً منهم إلّا الرّسل، فالسّيّئة مُحْتملة منهم، ومن تمام رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بربوبيّته أنْ فتح باب التّوبة لعباده، لمن أسرف منهم على نفسه في شيء؛ لأنّ صاحب السّيّئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده، لكن إنْ فتحتَ له باب التّوبة والمغفرة عاد إلى الجادّة، واستقام على الطّاعة، وفي هذا رحمة بالمجتمع كلّه.

(الآية ٧٠) - ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾:

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾: فربُّكم كريم ورحيم، إنْ تُبتُم تاب عليكم وقَبِلكم، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصّالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيّئاتكم حسنات.

وللتّوبة أمران: مشروعيّتها من الله ﷻ أوّلاً، وقبولها من صاحبها ثانياً، فتشريعها فَضْل، وقبولها فَضْل آخر؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التّوبة: من الآية ١١٨]، والمعنى: تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التّوبة حتّى لا يستحُوا من الرّجوع إلى الله ﷻ.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾: تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان، فالعاصي لم يقارف المعصية إلّا في غفلة عن إيمانه، كما جاء في الحديث الشّريف: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١)، ولو استحضر العاصي جلالَ ربّه ما عصاه، ولتضخّمتْ عنده المعصية فانصرف عنها، وما دام قد غاب عنه إيمانه، فلا بُدَّ له من تجديده، ثمّ بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان في العمل الصّالح.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾: وليس المراد أنّ السّيّئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة، إنّما يرفع العبد السّيّئة ويحلّ محلّها التّوبة، وبعد التّوبة يضع الله ﷻ له الحسنة.

(الآية ٧١) - ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾:

﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾: يعني: توبة نصوحاً، لا عودة بعدها إلى المعصية، لا يرجع في توبته كالمستهزئ بربّه، يقول: أفعل كذا ثمّ أتوب،

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَاب المَظَالِم وَالغَصْبِ، بَابُ النُّهْبَى بغير إِذْنِ صاحبه، الحديث رقم (٢٤٧٥).

وكلمة: ﴿مَتَابًا﴾ تعني: العزم ساعةَ أنْ يتوبَ ألّا يعود، والخطر في أن يُقدِم العبد على الذّنب لوجود التّوبة، فقد يُقبَض في حال المعصية، وقبل أنْ يُمكِنه التّوبة. ثمّ تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرّحمن:

(الآية ٧٢) - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: الزُّور: الشّيء الكذب، ويُزوِّر في الشّهادة؛ أي: يُثبت الحقّ لغير صاحبه، لكن نلاحظ أنّ الآية لم تقُلْ: والّذين لا يشهدون بالزّور، ممّا يدلّ على أنّ للآية معنى أوسع من النّطق بقول الزّور في مجال التّقاضي، ليس فقط شهادة الزّور، فالزّور الكذب في كلّ شيء، فللشّهادة معنى آخر؛ أي: لا يحضرون الزّور، والزّور كلُّ مَا خالف الحقّ، فمعنى: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾؛ أي: لا يحضرون الباطل في أيّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً، وكلّ ما خالف الحقّ، لذلك يقول الحقّ سُبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص]، ومعلومٌ أنّ قَوْل الزّور والشّهادة بغير حقّ تقلب الحقائق وتضرُّ بالمجتمع؛ لأنّه حين يشهد الإنسان بالزُّور يأخذ الحقّ من صاحبه ويُعطيه لغيره، وهذا يؤدّي إلى تعطّل حركة الحياة، ويجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه، فيحجم النّاس عن السّعي والعمل ما دامت المسألة زوراً في النّهاية، عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**»، ثَلَاثاً، «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ –أَوْ**

قَوْلُ الزُّورِ-»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئاً، فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[1]، لماذا؟ لأنّ شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحقّ في المجتمع.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾: اللّغو: هو الّذي يجب في عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك، وهو الهُراء الّذي لا فائدة منه؛ لذلك قال فيمن يتركه:

﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾: والكرام يقابلها اللّئام، فكأنّ المعنى: لا تدخل مع اللّئام مجالَ اللّغو والكلام الباطل الّذي يُصادِم الحقّ ليصرف النّاس عنه، ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن الكفّار ليصرفوا النّاس عن الاستماع لآيات الذّكر: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦].

(الآية ٧٣) - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾:

﴿ذُكِّرُوا﴾: لا تُقال إلّا إذا كان المقابل لك الّذي تذكره عنده إلْفٌ بالذّكْر، وعنده عِلْم به، والآيات الّتي تُذكِّر بها لها قدوم أوّل، ولها قدوم ثانٍ: القدوم الأوّل: هو الإعلان الأوّل بها، والقدوم الثّاني: حين تنسى نُذكّرك بها.

والآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة: إمّا آيات كونيّة تُلفِت النّظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، وإمّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرّسل وإثبات صِدْقهم في البلاغ عن الله عزّ وجلّ، وإمّا آيات القرآن الكريم، والّتي تُسمَّى حاملة الأحكام، وهي تُنبِّه النّاس من الغفلة.

---

(١) صحيح مسلم: كِتَابُ الإيمان، بَابُ بَيَانِ الكَبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، الحديث رقم (٨٧).

فالمعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: بالقرآن الكريم.

﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾: الخرّ: هو السّقوط بلا نظام ولا ترتيب، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النّحل: من الآية ٢٦]، فالسّقف إنْ خَرّ يخرّ بلا ترتيب، ومنه قوله ﷻ في صفات المؤمنين: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء]؛ لأنّهم يخرّون بانفعال قَسْريّ، ينشأ من سماع القرآن الكريم، فحين يُذكَّرون بآيات الله ﷻ لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً، إنّما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء، ومبصرون تمام الإبصار.

(الآية ٧٤) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾:

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرّحمن، يطلبون فيها أمرين:

١- ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾: والذّرّيّة لا تأتي إلّا بعد الزّواج؛ لذلك جاء الدّعاء للأزواج، ثمّ للذّرّيّة.

وكلمة: ﴿قُرَّةَ﴾ تُستعمل بمعنيين، وفي اللّغة شيء يسمّونه: (عامل اشتقاق)، يعني: يشتقّ اللّفظ من معنى عامّ، وقد يختلف معناه، لكن في النّهاية يلتقيان على معنى واحد.

وكلمة: ﴿قُرَّةَ﴾ تأتي بمعنى اللّزوم والثّبات، مِن قَرَّ في المكان، يعني: لزمه وثبت فيه، وتأتي بمعنى السّرور؛ والقُرُّ يعني أيضاً: شدّة البرودة.

فمعنى: ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾؛ أي: اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به.

٢- ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: نلحظ أنّ الدّعوة هنا جماعيّة، ومع ذلك لم يقُلْ: أئمّة، وذكر ﴿إِمَامًا﴾ بصيغة المفرد، فلماذا؟ قالوا: لأنّه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنبّهنا إلى أنّ الإمام هو الّذي يسير على وَفْق منهج الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يحيد عنه؛ لذلك إنْ تعدّدتْ الأئمّة فهُمْ جميعاً في حُكْم إمام واحد؛ لأنّهم يصدرون عن ربّ واحد، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرّقهم، كالأمراء مثلاً.

ثمّ يقول الحقّ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن جزاء عباد الرّحمن:

(الآية ٧٥) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: خبر عن عباد الرّحمن الّذين تقدّمتْ أوصافهم، فجزاؤهم:

﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾: وجاءت الغرفة مفردةً مع أنّهم متعدّدون، يحتاج كلّ منهم إلى غرفة خاصّة به، قالوا: لأنّ الغرفة هنا معناها المكان العالي الّذي يشتمل على غرفات، كما قال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ: من الآية ٣٧]، وهذا الجزاء العظيم نتيجة:

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: صبروا على مشاقِّ الابتلاءات والطّاعات، وقد أوضح النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هذه المسألة بقوله: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(١)، فالجنّة تستلزم أن نصبر على مشاقِّ الطّاعات والابتلاءات، وأن نُقدِّر الجزاء على العمل، ونستحضره في الآخرة، فإنْ ضِقْنا بالطّاعات

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، الحديث رقم (٢٨٢٢).

وكذّبْنا بجزاء الآخرة، فَلِمَ العمل إذن؟ فالتّكاليف الشّرعيّة وابتلاءات الحياة تستلزم الصّبر، كما قال ﷻ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: من الآية ١٥٥- الآية ١٥٦]، وقَالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود: "الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ"[1]، فالحقّ ﷻ يريد منّا ألّا نعزل التّكاليف عن جزائها، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدِم على العمل، لذلك سأل النّبيّ ﷺ أحد صحابته: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟»، قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، إِنَّ لِكُلّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ»، قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا[2]، فالمسألة في نظرهم لم تكُنْ غيباً، إنّما مشاهدة، كأنّهم يرونها من شدّة يقينهم بها؛ لذلك قال له النّبيّ ﷺ: «يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ»[3]، والإمام عليّ -كرّم الله وجهه- يقول: لو كُشِف عنّي الحجاب ما ازددتُ يقيناً، لماذا؟ لأنّه بلغ من اليقين في الغيب إلى حَدِّ العلم والمشاهدة.

﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾: التّحيّة أن نقول له: إنّنا نُحيّيك يعني: نريد حياتك بأُنْسك بِنَا، والسّلام: الأمان والرّحمة، لكن ممَّنْ يكون

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب العين، خُطْبَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمِنْ كَلَامِهِ، الحديث رقم (٨٥٤٤).

(٢) شعب الإيمان: باب العين، الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

(٣) شعب الإيمان: باب العين، الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

السّلام؟ ورَد السّلام في القرآن الكريم بمعان ثلاثة: سلام من الله ﷻ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس]، وسلام من الملائكة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرّعد: من الآيتين ٢٣-٢٤]، وسلام من أهل الأعراف، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيّئاتهم، فلم يدخلوا الجنّة، ولم يدخلوا النّار، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: من الآية ٤٦]، فعباد الرّحمن يُلَقَّوْن في الجنّة سلاماً من الله ﷻ، وسلاماً من الملائكة، وسلاماً من أهل الأعراف.

(الآية ٧٦) - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾:

وسبق أنْ قال سبحانه وتعالى عن النّار: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان]؛ لأنّها قبيحة، ومقابلها هنا: ﴿حَسُنَتۡ﴾.

﴿مُسۡتَقَرّٗا﴾: المستقرّ: مكان الإقامة العابرة غير الدّائمة.

﴿وَمُقَامٗا﴾: المقام: مكان الإقامة الدّائمة، ومعلوم أنّ مَنْ يدخل الجنّة يقيم فيها إقامة أبديّة دائمة، أمّا مَنْ يدخل النّار فقد يخرج منها، إنْ كان مؤمناً. ثمّ يُنهي الحقّ ﷻ سورة الفرقان بقوله سبحانه وتعالى:

(الآية ٧٧) - ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾:

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾: بعد أن تحدّث الحقّ سبحانه وتعالى عن عباد الرّحمن، وذكر أوصافهم وجزاءهم، توجّه إلى الآخرين الّذين لم يتّصفوا

بهذه الصّفات ولن ينالهم شيء من هذا النّعيم، يقول لهم: إيّاكم أنْ تظنّوا أنّ الله ﷻ سيبالي بكم، أو يهتمّ، أو يكون في معونتكم؛ لأنّ الله ﷻ لا يبالي إلّا بعباده الّذين عبدوه حَقَّ العبادة، وأطاعوه حَقَّ الطّاعة، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخَلْق، ولم تحقّقوا معنى الاستخلاف في الأرض الّذي خلقكم الله ﷻ من أجله، فكما أنّكم انصرفتم عن منهج الله ﷻ، ولم تعبدوه، ولم يكُنْ على بالكم، فكذلك لا يعبأ الله ﷻ بكم، ولن تكونوا على ذِكْر منه ﷻ، وسوف يهملكم.

﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾: يعني: لولا عبادتكم، حيث إنّها لم تقع.

﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾: أي: بالأصل الأصيل، وهو أنّكم مخلوقون للعبادة.

﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾: كما لازمتم أنتم الكفر بي، ولم تعبدوني، وأصررتُم على الكفر، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم، فلا يُفارقكم أبداً.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (الشّعراء)

الآيات: (١–٢٢٧)

سورة الشّعراء

سمّيت هذه السّورة بسورة الشّعراء للآية الكريمة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾، وهي السّورة السّادسة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وعدد آياتها سبع وعشرون ومئتا آية، وهي مكّيّة في قول الجمهور، وهي السّورة السّابعة والأربعون بحسب ترتيب النّزول، نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النّمل.

(الآية ١) - ﴿طسٓمٓ ۝١﴾:

هذه الحروف الثّلاثة الّتي بدأت بها السّورة هي من الحروف المقطّعة، وعدد الحروف المقطّعة في أوائل السّور أربعة عشر حرفاً، تجمعها عبارة: (نصّ حكيم له سرّ قاطع)، وسبق أن تكلّمنا عن معاني الحروف المقطّعة في أوائل السّور، ولا بأس من التّذكير بشيء ممّا قلناه: قال الزّمخشريّ عن هذه الحروف: "إنّها على أصناف أجناس الحروف، يعني: من المهموسة والمجهورة، ومن الرّخوة والشّديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة، فسبحان الّذي دقّت في كلّ شيء حكمته"، وقلنا: هناك فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف، مُسمّى الباء، مثلاً: بَا، أو: بُو، أو: بِي، أو إبْ، في حالة السّكون، إنّما اسمها: باءٌ مفتوحة، أو مضمومة، أو ساكنة، لكن حين تنطق هذا الحرف في: (كَتَب) -مثلاً- تقول: كَتَبَ، فتنطق مُسمَّى الحرف لا اسمه، وقُلْنا: في هذه المسألة معانٍ كثيرة، أيسرها: أنّ القرآن الكريم، وهو كلام الله ﷻ المعجز مُنزَّل من حروف مثل حروفكم

الّتي تتكلّمون بها، وكلمات مثل الّتي في لغتكم، لكن ما الّذي جعله متميّزاً بالإعجاز عن كلامكم؟ نقول: لأنّه كلام الله ﷻ، هذا هو الفَرْق، أمّا الحروف فواحدة، ولو تأمّلنا لوجدنا أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السّور هي نصف الحروف الهجائيّة، فمرّة يأتي حرف واحد: ﴿نٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ومرّة حرفان: ﴿طه﴾، ﴿يسٓ﴾، ومرّة ثلاثة أحرف: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ومرّة أربعة أحرف: ﴿الٓمٓر﴾، ومرّة خمسة أحرف: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وهذا يدُلّنا على أنّ القرآن الكريم مُعْجِز، مع أنّه بحروف اللّغة العربيّة نفسها، فسِرّ الإعجاز في القرآن الكريم أن تكون مادّته ومادّة غيره من الكلام واحدة، حروفاً وكلمات؛ لذلك كثيراً ما يقول الحقّ سبحانه وتعالى بعد الحروف المقطّعة:

(الآية ٢) - ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: أنّ الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف، ولله سبحانه وتعالى معَانٍ أخرى، فيها مرادات له جلّ جلاله، لعلّ الزّمن يكشف لنا عنها، والقرآن الكريم كلام الله ﷻ، فإنِ استطعنا أن نصف الأشياء، هذا كذا، وهذا كذا، فهذه طاقة البشر والعقل البشريّ، أمّا آيات الله سبحانه وتعالى في كتابه المبين فهي الآيات الفاصلة الّتي لها بَدْء ولها نهاية، وتتكوّن منها سور القرآن الكريم.

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: الواضح المحيط بكلّ شيء، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨].

(الآية ٣) - ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾: هذه هي التّسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنّه حمّل نفسه

في تبليغ الرّسالة فوق ما يُطيق، وفوق ما يطلبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه حِرْصاً منه على هداية النّاس، وإرجاعهم إلى منهج الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ليستحقّوا الخلافة في الأرض، ولأنّ من شروط الإيمان أن تحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبّ الخير للبشر كلّهم. والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُسلّي رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال له في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف].

﴿بَٰخِعٞ﴾: أي: تحزن حزناً عميقاً، يستولي على نفسك حتّى تهلك، وهذا يدلّ على المشقّة الّتي كان يعانيها الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تكذيب قومه له، وفي موضع آخر، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: من الآية ٨]، فهذا أمر نهائيّ واضح، ونَهْيٌ صريح، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار، فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، وقد نبّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسوله في عِدّة مواضع حتّى لا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها، فقال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرّعد: من الآية ٤٠]، وقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [ق: من الآية ٤٥]، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يسِّر على نفسك، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقّاً مُضْنياً، والعتاب هنا لمصلحة الرّسول، لا عليه.

(الآية ٤) - ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾:

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾: الآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول، إنّما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم، وتُخضع البنية والقالب، وهذا ليس كلاماً

نظريّاً يُقال للمكذّبين، إنّما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل، ولنقرأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧١]، فأخذوا ما آتيناهم بقوّة، لماذا؟ بالآية الّتي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم، لكنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -كما قلنا- لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب، إنّما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتّباع، فلو شاء ربّك لآمن مَنْ في الأرض كلّهم جميعاً، لا يتخلّف منهم أحد، بدليل أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وبدليل أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث رسلاً وعصمهم، ولم يجعل للشّيطان سبيلاً عليهم، وبدليل أنّ الشّيطان بعد أن تعهّد أن يُغوي بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: من الآية ٤٢]، والشّيطان نفسه يقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص]، فلو أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لجعلَ النّاس جميعاً مؤمنين وما عَزَّ عليه ذلك، لكنّه أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون الإيمان باختيار المؤمن.

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: خَصَّ الأعناق؛ لأنّها مظهر الخضوع، فأوّل الخضوع أنْ تلوي الأعناق، أو: الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم؛ لذلك يقولون في التّهديد: هذه مسألة تضيع فيها رقاب، والمراد: الرّقاب الكبيرة ذات الشّأن، والمعنى: أنت لا تُخضِع النّاس؛ لأنّي لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم؛ لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ آخرى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس]، فإذا كان ربّك لا يُكرِهِ النّاسَ على الإيمان، أفتُكرههم أنت؟ ولماذا الإكراه في دين الله عَزَّ وَجَلَّ؟

إنّ الله ﷻ يوالي تنزيل القرآن الكريم عليهم -آية بعد آية- فلعلّ نجماً من نجومه يصادف فراغاً، وقلباً صافياً فيؤمن.

(الآية ٥) - ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾:

﴿مُحْدَثٍ﴾: يعني: جديد على أذهانهم؛ لأنّنا لا نلفتهم بآية واحدة، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: فكلّما جاءتهم آية كذّبوها، وهذا دليل على اللّدد والعداوة الّتي لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن الكريم قلوباً خالية، فكأنّ عداوتهم لك يا مُحمّد منعتْهم من الإيمان بالقرآن الكريم.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: أي: في غباء، وليس هناك غباء أشدّ من قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢].

(الآية ٦) - ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾: أي: كلّما جاءهم ذِكْر من الرّحمن، وآية من آياته أصرُّوا على تكذيبها.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: كما جاء في آيات أخرى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشّعراء: من الآية ٢٢٧]، وقال ﷻ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص]، يعني: غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم، فآيات

الله ﷻ تسير أمامكم، فكلُّ يوم يزداد المؤمنون بمحمّد، وهؤلاء على كفرهم وعلى عنادهم وعلى لددهم.

(الآية ٧) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾:

لَمَّا لم يُفلح الذّكر المُحْدث والآيات المتجدّدة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا، ردَّهم الله ﷻ إلى الآيات الكونيّة الظّاهرة لهم، والّتي سبقتهم في الوجود، آيات في السّماء: الشّمس والقمر والنّجوم، وآيات في الأرض: البحار والقفار والجبال والنّبات والحيوان، وكلّها آيات كونيّة لم يستطع أحد منهم أن يقول: إنّه خلقها، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾: وهي آية ظاهرة أمام أعينهم، يروْنَها هامدة جرداء مُقْفرة، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله ﷻ بالنّبات، ألم ينظروا إلى الجبال والصّحراء بعد نزول المطر، وكيف تكتسي ثوباً بديعاً من النّبات بعد فَصْل الشّتاء؟! ألم يسألوا أنفسهم: مَنْ نقل هذه البذور وبذرها في الجبال؟! لذلك يقول ﷻ في موضع آخر: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، وقوله ﷻ هنا:

﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾: كم: خبريّة تُفيد الكثرة، كما تقول لصاحبك: كم أحسنتُ إليك، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: الزّوج: الصّنف، والزّوج أيضاً الذّكر أو الأنثى، وبعض النّاس من العامّة يظنّ أنّ الزّوج يعني الاثنين وهذا خطأ، فالزّوج واحد معه مثله، كما في قوله ﷻ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ

﴿صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣- من الآية ١٤٤]، **فهذه أربعة أصناف، فيها ثمانية أزواج،** والحقّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النّجم]، وكذلك النّبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة، وإنْ كانت غير واضحة فيه كلّه، فهي واضحة مثلاً في النّخل، ففيه ذكر نُلقِّح منه الأنثى لتثمر، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى، لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة في أنواع أخرى، لماذا؟ قالوا: مرّة توجد الذّكورة والأنوثة في الشّيء الواحد كعود الذّرة مثلاً، قبل أنْ يُخرِج ثمرته تخرج سنبلة في أعلاه تحمل لقاح الذّكورة، وحينما تهزّها الرّيح يقع اللّقاح على (كوز) الذّرة، وتتمّ عمليّة التّلقيح، وقد تكون الذّكورة والأنوثة في شيء لا نعرفه، كالتّفاح مثلاً، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، وقال جل جلاله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذّاريات: من الآية ٤٩]. **ثمّ وصف الزّوج بأنّه:**

﴿كَرِيمٍ﴾: فماذا يعني الكرم هنا؟ قالوا: لأنّنا إذا أخذنا الثّمرة الواحدة ونظرنا وتأمّلنا فيها لوجدنا لها صفات متعدّدة ونِعَماً كثيرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وهي نعمة واحدة بصيغة المفرد ولم يقل: نِعَم الله عز وجل، لماذا؟ قالوا: لأنّ الحقّ عز وجل يريد أن يلفتنا إلى أنّ كلّ نعمة واحدة لو استقصينا عناصرها وتكوينها لوجدنا في طيّاتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فمعنى: ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: كثير العطاء والخيرات.

(الآية ٨) – ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: أي: في آية الإنبات، وكلّ زوج كريم يخرج من الأرض.

﴿لَآيَةً﴾: شيء عجيب ودلالة واضحة على مُكوِّن حكيم يعمل الشّيء بقصد ونظام، ينبغي أن تلفتنا إلى قدرة الخالق ﷻ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: يعني: مع كلّ هذه الآيات لم يؤمنوا، إلّا القليل منهم، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف]، مع أنّنا لو تأمّلنا آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتنا إلى الله ﷻ:

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

(الآية ٩) – ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: جاء الحقّ سبحانه وتعالى هنا بصفة: ﴿الْعَزِيزُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لنعلم أنّ الّذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ﷻ، إنّما كفروا بما أودع الله سبحانه وتعالى فيهم من الاختيار، وكلمة: ﴿الْعَزِيزُ﴾ تعني: الّذي لا يُغلَب ولا يُقْهر، وسبحانه هو الغالب أيضاً، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، فالله سبحانه وتعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب، ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: من الآية ١٤]، وقوله جلّ جلاله: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: من الآية ٨٨].

ثمّ يذكر سبحانه وتعالى بعدها صفة الرّحمة:

﴿الرَّحِيمُ﴾: فهو سبحانه وتعالى مع عزّته رحيم، فهو رحيم بنا، رحيم بخلقنا، رحيم

بإرسال موكب النّبوّات، رحيم بأنّه بيّن لنا هذه الآيات كلّها، بعد ذلك يأخذنا السّياق إلى موكب النّبوّات، بعد أن قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حتّى يقصّ علينا بعض القصص القرآنيّ الّذي يُثبت أنّ الله ﷻ عزيز ورحيم: عزيز لا يُغلَب، ورحيم بخلقه أرسل إليهم الرّسل لينبّههم.

(الآية ١٠) - ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾:

الحقّ ﷻ يقصُّ على رسوله ﷺ قصص الأنبياء، وهو أحسن القصص حكمة: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: من الآية ١٢٠]؛ لأنّ رسول الله ﷺ مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمرّ كلّما تعرّض لشدّة؛ لذلك نجد القصص القرآنيّ يختلف عن قصص البشر، ولا يوجد تكرار في القصص القرآنيّ، إنّما لقطات على مدى عمر الدّعوة، والقصص القرآنيّ لا يراد به التّأريخ لحياة الرّسل السّابقين، إنّما إعطاء النّبيّ محمّد ﷺ عِبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرّسل؛ لذلك كانت القصّة تأتي في عدّة مواضع، وفي كلّ موضع لقطة معيّنة تناسب الحدث الّذي نزلت فيه، وهنا يقول ﷻ:

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: يعني: اذكر يا محمّد، إذ نادى ربّك موسى؛ أي: دعاه، لكن لماذا بدأ بقصّة موسى عليه السلام بالذّات؟ قالوا: لأنّ كفّار مكّة كفروا بالنّبيّ ﷺ، وكان يعلّمهم اليهود، وموسى عليه السلام جاء إلى قوم أشدّ كفراً، وهم قوم فرعون الّذي ادّعى الألوهيّة، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: من الآية ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: من الآية ٢٤].

والسّياق هنا لم يذكر: أين ناداه ربّه عَزَّوَجَلَّ، ولا متى ناداه، وبدأ بمقاطع من الحوار معه مباشرة، لكن في مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كلّه.

﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: الّذين ظلموا أنفسهم، أنْ جعلوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريكاً، والشّرك قِمَّة الظّلم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، ولم يُبيِّن القرآن الكريم مَنْ هم هؤلاء الظّالمون؛ لأنّهم معروفون مشهورون، بحيث إذا قلنا: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ انصرف الذِّهْن إليهم، إلى فرعون وقومه؛ لأنّه الوحيد الّذي تجرّأ على ادّعاء الألوهيّة.

(الآية ١١) - ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾:

أي: قُلْ لهم يا موسى ألا تتّقون ربّكم؟ واعرض عليهم هذا العرض؛ والمعنى: ألا يتّقون الله عَزَّوَجَلَّ في ظلمهم لأنفسهم باتّخاذهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريكاً، وظلموا بني إسرائيل في أنّهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم؟! لكن، لماذا تكلّم عن قوم فرعون أوّلاً، ولم يعرض عليه هو أوّلاً، وهو رأس الفساد في القوم؟ لأنّه لو وقف له قومه ورَدَعوه لارتدع، لكنّهم تركوه، بل ساروا في رَكْبه إلى أنْ صار طاغية، وأعانوه حتّى أصبح طاغوتاً.

(الآية ١٢) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢﴾:

لمّا دعا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يُبادر بالذّهاب، إنّما أبدى لربّه هواجس نفسه وخلجاتها؛ لأنّه يعلم مُقدَّماً مشقّة هذه المهمّة، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته وبطشه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وكيف لمن يدّعي الألوهيّة أنْ يسمع لرسول؟

ويواصل موسى عليه السلام الحديث عن مخاوفه:

(الآية ١٣) - ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾:

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: يضيق صدري ساعةَ يكذّبونني، وضيق الصّدر ينتج عنه أن أتلجلج، فلا أستطيع أن أتكلّم الكلام المُقْنِع؛ لذلك قال:

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾: وفي آية أخرى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص]، يعني: مساعداً لي يتكلّم بدلاً منّي، إنْ عجز لساني عن الكلام، وهذا يدلّ على حرصه عليه السلام على تبليغ دعوة ربّه إلى فرعون وقومه، وعليه، فقد كان موسى وهارون عليهما السلام كلاهما رسول، إلّا أنّ القرآن الكريم قال مرّة عنهما: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشّعراء: من الآية ١٦] بصيغة المفرد، وقال مرّة أخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: من الآية ٤٧] بصغية المثنّى.

الرّسول: هو المرسَل من شخص لآخر، سواء كان واحداً أم مُثَنّى أم جمعاً.

(الآية ١٤) - ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾:

وليت المسألة تقف بين نبيّ الله موسى عليه السلام وبين قومه عند مسألة الكلام، إنّما لهم عنده ثَأْرٌ قديم؛ لأنّه قتل منهم واحداً، وإنْ كان عَنْ غير قصد، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: من الآية ١٥] فأخاف أنْ يقتلوني به، فيقول الحقّ سبحانه وتعالى لموسى وهارون عليهما السلام:

(الآية ١٥) - ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾:

﴿كَلَّاۖ﴾: تفيد نَفْي ما قبلها، وقبلها مسائل ثلاث:

١- ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٢].

٢- ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشّعراء: من الآية ١٣].

٣- ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٤].

فعلى أيٍّ منها ينصَبُّ هذا النّفي؟ النّفي هنا يتوجّه إلى ما يتعلّق بموسى عليه السلام لا بما يتعلّق بالقوم من تكذيبهم إيّاه، يقول له ربّه: اطمئنّ، فلن يحدث شيء من هذا كلّه، ولا ينصبُّ النّفي على تكذيبهم له؛ لأنّه سيُكذَّب؛ لذلك نرى دقّة الأداء القرآنيّ، حيث جاءت: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٢]، في نهاية الآية، وبعدها كلام جديد: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشّعراء: من الآية ١٣]، وهو المقصود بالنّفي.

وكلمة: ﴿كَلَّاۖ﴾ هذه أصبح لها تاريخ مع موسى عليه السلام فقد تعلّمها من ربّه جل جلاله، ووعى درسها جيّداً، فلمّا حُوصِر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم، وفرعون وجنوده من خلفهم، أيقن أتباعه أنّهم مُدْركون هالكون، قالها موسى عليه السلام بملء فيه: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشّعراء].

﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾: الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدّالّة على صِدْقهما في البلاغ عن الله عز وجل، وهي هنا العصا.

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾: كما قال لهما في موضع آخر: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: من الآية ٤٦]، فمرّة يأتي بالسّمع فقط، ومرّة بالسّمع والرّؤية،

لماذا؟ لأنّ موقفه مع فرعون في المقام الأوّل سيكون جدلاً ونقاشاً، وهذا يناسبه السّمع، وبعد ذلك ستحدث مقامات في (فعل) و(عمل) في مسألة السّحر وإلقاء العصا، وهذا يحتاج إلى سمع وبصر؛ فانظروا إلى هذا العطاء العظيم من الرّبّ الكريم.

(الآية ١٦) - ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾:

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ﴾: وسبق أن قال سبحانه وتعالى: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ [الشّعراء: من الآيتين ١٠-١١]، فذكر قومَ فرعون أوّلاً؛ لأنّهم سبب طغيانه، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه، وهنا يُذكِّره: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لأنّه حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الّذين أيَّدوه، فالكلام هنا مع قمّة الكفر مع فرعون.

﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: إنَّا: جمع يُقَال للمثنّى، ومع ذلك جاءت ﴿رَسُولُ﴾ بصيغة الإفراد، ولم يقُل: (رسُولا)؛ لأنّ الرّسول واسطة بين المرسَل والمرسَل إليه، سواء أكان مفرداً أم مُثَنّى أم جمعاً.

وكلمة: ﴿إِنَّا﴾ هل سيقولها موسى وهارون في نَفَسٍ واحد؟ لا، إنّما سيتكلّم المقدَّم منهما، وينصت الآخر، فيكون كمنْ يُؤمِّن على كلام صاحبه، أَلَا ترى القرآن الكريم حينما عرض قضيّة موسى عليه السلام وقومه يوضّح أنّ فرعون علا في الأرض.. إلخ، حتّى دعا عليهم موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: من الآية ٨٨]، هذا كلام موسى عليه السلام فردّ الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: من الآية ٨٩]، بالمثنّى مع أنّ المتكلّم واحد، قالوا: لأنّ موسى كان يدعو، وهارون يُؤمِّن على دعائه، والمؤمِّن أحد الدّاعيين، وشريك في الدّعوة.

(الآية ١٧) - ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧﴾:

فالأصل في لقاء موسى عليه السلام بفرعون أن ينقذ بني إسرائيل من العذاب، ثمّ يُبلِّغهم منهج الله عز وجل، ويأخذ بأيديهم إليه، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه في ادّعائه الألوهيّة تابعة لهذا الأصل، وفي موضع آخر قال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [طه: من الآية ٤٧]، فتلوين الأساليب في القصص القرآنيّ يشرح لقطاتٍ مختلفة من القصّة، ويُوضِّح بعض جوانبها، وإنْ بدا هذا لبعض النّاس تكراراً في المعنى الإجماليّ، وهذا واضح في قوله سبحانه وتعالى في أوّل قصّة موسى عليه السلام: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: من الآية ٨]، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى على لسان امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: من الآية ٩]، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ستأخذونه ليكون قُرَّة عين لكم، إنّما سيكون عدوّاً، والله جل جلاله يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، ففرعون في حين كان يقتل الأطفال من بني إسرائيل، ويستحيي البنات، جاءه هذا الطّفل بهذه الطّريقة اللّافتة للنّظر، فكان عليهم أنْ يفهموا أنّ مَنْ أُلقِي في التّابوت وفي اليمِّ بافتعال، هو بهدف نجاته من القتل، فلو كان فرعون إلهاً، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة؟

(الآية ١٨) - ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾: يريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى عليه السلام بما كان من أمر تربيته في بيته لعدّة سنوات، حتّى شَبَّ وكبر، وكأنّه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائيّ بعد ما كان منه؟

﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾: يقال: إنّ موسى عليه السلام لبث في بيت فرعون حتّى سِنّ الثّامنة عشرة، أو سِنِّ الثّلاثين، فالمعنى أنّه ربّاه ولبث معه عدّة سنوات، والمتأمّل في هذه الحجّة الّتي يظنّها فرعون لمصلحته يجد أنّها ضدّه، وأنّها تكشف عن غبائه، فلو كان إلهاً كما يدّعي لعرف أنّ هلاكه سيكون على يدي هذا الطّفل الّذي ضَمَّه إليه ورعاه.

(الآية ١٩) - ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾:

﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾: والمراد بالفَعْلة قتل موسى عليه السلام للرّجل الّذي وكزه فمات.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: من الكافرين بألوهيّة فرعون، أو من الجاحدين لنعمنا عليك، وتربيتنا لك.

(الآية ٢٠) - ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾:

يقول موسى عليه السلام: أنا لا أُنكر أنّني قتلتُ، لكنّني قتلتُ وأنا من الضّالّين، يعني: الجاهلين بما يترتّب على عمليّة القتل، وما كنت أعتقدُ أبداً أنّ هذه الوَكْزة ستقضي على الرّجل، فكلمة: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هنا لا تعني عدم الهدى، فمن هذا المعنى للضّلال قولهم: ضَلَّ الطّريق، وهو لم يتعمّد أن يضلّ، إنّما تاه رَغْماً عنه، ومنه قوله سبحانه وتعالى في الشّهادة: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٢]، وقوله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضّحى]؛ أي: متحيّراً بين الباطل الّذي يمارسه قومه، وبين الحقّ الّذي تبحث عنه.

(الآية ٢١) - ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿حُكْمًا﴾: أي: في أنْ أضع الأشياء في مواضعها، وجاءت هذه الكلمة بعد: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، كأنّه يقول: أنا وكزتُ الرّجل، هذا صحيح، فمات، وهذا خطأ غير مقصود وإنّني مظلوم فيه؛ لأنّ الله ﷻ قد أعطاني حُكماً وقدرة لأضع الأشياء في محلّها، ليس هذا فحسب، إنّما أيضاً: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(الآية ٢٢) - ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

يعني: ما منَّ به فرعون على موسى عليه السلام من قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾، كأنّه يقول له: أتمُنُّ عليَّ بهذه الأشياء، وتذكر هذه الحسنة، وهي لا تساوي شيئاً لو قارنتَها بما حدث منك من استعباد بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، وتسخيرهم في خدمتك.

(الآية ٢٣) - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

يعني: مسألة جديدة هذه الّتي جئتَ بها يا موسى، فمَنْ رَبُّ العالمين الّذي تتحدّث عنه؟!

(الآية ٢٤) - ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لأنّ السّموات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقِفَار

ونبات وحيوان وإنسان، قد وُجِدتْ قبل أن توجَد أنت أيّها الإله الفرعون!! فرَدَّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه، وقبل مولده، وكأنّ المعنى المراد لموسى عليه السلام: أخبرني يا فرعون، يا مَنْ تدّعي الألوهيّة، ما الّذي زاد في الكون بألوهيّتك له؟ وإنْ كان هذا الكون كلّه بسمائه وأرضه لله ربّ العالمين، فماذا فعلتَ أنت؟ ولم يقتصر على السّموات والأرض، وإنّما:

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: أي: من هواء وطير يَسْبح في الفضاء، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء، وانتقال الصّوت والصّورة من خلاله، ففي جَوِّ السّماء، فيما بين السّماء والأرض من الأسرار ما يستحقّ التّأمّل.

ثمّ يتلطّف معهم فيقول:

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: يعني: إنْ كنتم موقنين بأنّ هذه الأشياء لم يخلقها إلّا الله عزّ وجلّ. ثمّ يقول الحقّ سبحانه وتعالى ذاكراً جدال فرعون:

(الآية ٢٥) - ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٥﴾:

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الّذين أقرّوا له بالألوهيّة: ألا تستمعون لما يقول؟ يعني: موسى عليه السلام، وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلّا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى عليه السلام من نَفْي الرّبوبيّة والألوهيّة عن فرعون ونسبتها إلى الله عزّ وجلّ، خالق السّموات والأرض، وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى عليه السلام، فينهروه ويُسْكِتوه، لكن لم يحدث شيء من هذا، ممّا يدلّ على أنّهم كانوا يتمنّونَ أن ينتصر موسى عليه السلام، وأن يندحر فرعون؛ لأنّه كبت حرّيّاتهم وآراءهم، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه، بدليل ما حكاه القرآن الكريم عن الرّجل المؤمن الّذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون.

(الآية ٢٦) - ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾:

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجوّ الكونيّ المحيط به في السّماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه، يقول له: إنَّ لك آباء قبل أنْ تُولد، وقبل أن تدّعي الألوهيّة، فمن كان ربّهم؟! فلمّا ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة، فقال محاولاً إنقاذ موقفه:

(الآية ٢٧) - ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾:

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها، فقد شهد لموسى عليه السلام بأنّه رسول، وخانه لفظه من حيث لا يدري.

(الآية ٢٨) - ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾:

يردّ موسى عليه السلام بحجّة أخرى، لكن يختمها هذه المرّة بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد قال في سابقتها: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، كأنّه يقول لفرعون: ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتّهمني بالجنون، فلن أقول: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، إنّما: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فجاء بمقابل الجنون.

فيُنهي فرعون هذا النّقاش، ويأتي بخلاصة الأمر كما يرى، فيقول:

(الآية ٢٩) - ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾:

وهذا من فرعون إفلاس في الحجّة، ولو كان عنده رَدٌّ لما يقوله موسى لردّ عليه، ولَقرع الحجّة بالحجّة، لكنّه تقوّى على خَصْمه أن هدّده بالسّجن

والإبعاد، وكان المسجون عندهم يظلّ في السّجن حتّى الموت، ولم يُراع فرعون في هذه المسألة النّاس من حوله أن يكتشفوا هذا الإفلاس وهذا الحمق في ردِّه، ويُؤخِّر موسى عليه السلام ما معه من الآيات، ويستمرّ في الجدل وإظهار الحجّة:

(الآية ٣٠) - ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾:

يعني: إذا لم تقنع بالحجج السّابقة كلّها، فهل لو جئتك بآية واضحة دالّة على صدق رسالتي، أتجعلني أيضاً من المسجونين؟!

(الآية ٣١) - ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾:

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه، فكان عليه ساعةَ أنْ يسمع من موسى عليه السلام هذا الكلام أنْ يُصرّ على سجنه، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى يريد أنْ يُظهر حجّته، فيجعل فرعون هو الّذي يطلبها بنفسه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وما كان لموسى عليه السلام أن يأتي بآية إلّا أنْ يطلبها منه فرعون.

(الآية ٣٢) - ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾: إلقاء العصا له في القرآن الكريم ثلاث مراحل:

- الأولى: هي الّتي واكبتْ اختيار الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام ليكون رسولاً، حين قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه]، وقلنا: إنّ موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السّؤال لحرصه على إطالة مدّة الأُنْس بالله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: ١٨]، فالعصا في نظر موسى عليه السلام عود من الخشب قريب عهد بأصله، كغصن في

شجرة، لكنّها عند الله ﷻ لها قصّة أخرى: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه]، وما صارت العصا عصاً إلّا بعد أنْ قُطِعت من شجرتها، وفقدت الحياة النّباتيّة، وتحوّلت إلى جماد، فتحوّلت إلى الحيوانيّة، وهي المرتبة الأعلى من النّباتيّة؛ لذلك فزع منها موسى عليه السلام وخاف فطمأنه ربّه: ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١﴾ [طه]، وكانت هذه المرّة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام؛ ليألف العصا على هذه الحالة، وكأنّ الله ﷻ أراد لموسى عليه السلام أنْ يُجري هذه التّجربة أمامه، ليكون على ثقة من صِدْق هذه الآية، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف، وهو واثق من نجاحه في هذه الجولة.

- الثّانية: كان الإلقاء الثّاني للعصا أمام فرعون وخاصّته.

- الثّالثة: ثمّ كان الإلقاء للمرّة الثّالثة أمام السَّحَرة.

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾: يعني: واضح للجميع؛ لأنّهم كانوا يُجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للنّاس مثل هذه الأشياء، ويجعلونها تسعى وتتحرّك، ولم تكن عصا موسى عليه السلام كذلك، إنّما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقيّاً لا يشكّ في حقيقته أحد.

والمتتبّع للّقطات المختلفة لهذه الحادثة في القرآن الكريم يجد السّياق يُسمِّيها مرّة ثعباناً، ومرّة حيّة، ومرّة جانّاً، لماذا؟ قالوا: لأنّها جمعت هذه الصّفات كلّها: فهي في خفّة حركتها كأنّها جانّ، وفي شكلها المرعب كأنّها حيّة، وفي التّلوّي كأنّها ثعبان.

(الآية ٣٣) - ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾:

هنا يتكلّم عن نزع اليد؛ لأنّه قال في آية أخرى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [القصص: من الآية ٣٢]، وهكذا تتكامل لقطات القصّة الواحدة، والّتي يظنّها بعضهم تكراراً، وليست هي كذلك.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: يعني: أخرج يده.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾: مع أنّ موسى عليه السلام كان شديد السُّمْرة، ومع ذلك خرجتْ بيضاء، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار.

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنّه حذف من آية سورة الشّعراء (الجيب)، وهو فتحة الثّوب من أعلى، لا الجيب المتعارف عليه، والّذي نضع فيه النّقود مثلاً.

(الآية ٣٤) - ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾:

﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ﴾: الملأ: هم عليْة القوم، الّذين يملؤون العيون، ويتصدَّرون المجالس.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾: فاتّهمه بالسّحر ليخرج من ورطته، وقال: ساحر؛ لأنّ موسى عليه السلام لم يمارس هذه المسألة إلّا مرّة واحدة هي الّتي أجراها أمامه، لكنّ الملأ على علم بالسّحر وإِلْف له، وعندهم سحّارون كثيرون، وهناك فَرْق بين ساحر وسحَّار: ساحر لمن مارس هذه العمليّة مرّة واحدة، إنّما سحَّار مبالغة تدلّ على أنّها أصبحت حِرْفته، مثل ناجر ونجّار، وخائط وخيّاط.

﴿عَلِيمٌ﴾: أي: بسحره.

(الآية ٣٥) - ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾:

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾: هنا يستعدي فرعون قومه على موسى ﵇، ويُحذّرهم أنّه سيُفسِد العامّة والدّهماء، وتكون له الأغلبيّة، وتكون له شيعة يناصرونه عليهم حتّى يُخرِجهم من أرضهم، وهذا أقلّ ما يُنتَظر منه، يريد أن يهيّج عليه الملأ من قومه؛ ليكونوا أعداء له يقفون في صَفِّ فرعون، وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله لقومه: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾؟ فهذه هي الألوهيّة الكاذبة الّتي انحدرتْ إلى مرتبة العبيد، ومتى يأخذ الإله رأي عبيده، ويطلب منهم المعونة والمشورة؟ ولو كان إلهاً بحقّ لكان عنده الحلّ ولديه الرّدّ.

(الآية ٣٦) - ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾:

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾: من الإرجاء: وهو التّأخير؛ أي: أخِّره وأخاه لمدّة.

﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: ابعث رسلك يجمعون السَّحّارين من أنحاء البلاد، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون ﵉.

﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: جمع مدينة.

(الآية ٣٧) - ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾:

﴿سَحَّارٍ﴾: بصيغة المبالغة.

﴿عَلِيمٖ﴾: أي: بفنون السِّحْر وألاعيب السَّحَرة.

(الآية ٣٨) - ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ﴾: الميقات: أي: الوقت المعلوم، وفي آية أخرى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: من الآية ٥٩]، وكان يوماً مشهوداً عندهم، ترتدي فيه الفتيات أبهى حُلَلها، يختارون فيه عروس النّيل الّتي سيُلْقونها فيه، فحدّد اليوم، ثمّ لم يترك اليوم على إطلاقه، إنّما حدّد من اليوم وقت الضّحى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه: من الآية ٥٩]، وفي لقطة أخرى حدّد المكان، فقال: ﴿مَكَانٗا سُوٗى ٥٨﴾ [طه: من الآية ٥٨]، يعني: فيه سوائيّة، إمّا باستواء المكان حتّى يتمكّن جميعهم من رؤية هذه المباراة السّحريّة، بحيث تكون في ساحة مستوية الأرض، أو يكون مكاناً سواسية متوسّطاً بين المدائن الّتي سيُجمع منها السّحرة، بحيث لا يكون متطرّفاً، يشقّ على بعضهم حضوره، وهكذا تتكاتف اللّقطات المختلفة لترسم الصّورة الكاملة للقصّة، ونرى في هذه المشورة حِرْصَ الملأ على إتمام هذا اللّقاء، وأن يكون على رؤوس الأشهاد؛ لأنّهم يعلمون أنّها ستكون لمصلحة موسى عليه السلام، وسوف يفضح هذا اللّقاءُ كذبَ فرعون في ادّعائه الألوهيّة.

(الآية ٣٩-٤٠) - ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾:

أي: أخذوا يدعُون النّاس، وكأنّهم في حملة دعاية وتأييد، إمّا لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون في الخفاء، وإمّا لفرعون، فكانوا جميعاً حريصين على حضور هذه المباراة.

إنّنا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمّع لمشاهدة مباراة في كرة القدم مثلاً، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدَّعي الألوهيّة وموسى عليه السلام الّذي جاء برسالة جديدة، قائلاً: إنّ له إلهاً غير هذا الإله؟ إنّه حَدَثٌ هَزَّ الدّنيا كلّها، وجذب الجميع لمشاهدته.

(الآية ٤١) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾:

انظر إلى مسيرة الإله فرعون في رعيّته، فالإله الحقّ يُطْعِم ولا يُطْعَم، ويجير ولا يُجَار عليه، الإله الحقّ يُعطي ولا يأخذ، ولمّا اجتمع السّحرة وهم أبطال هذه المباراة، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم في هذا الموقف، بادروا بالاتّفاق معه والاشتراط عليه: إنْ كنت تُسخِّر النّاس في خدمتك من غير أجر، فهذه المسألة تختلف، ولن تمرّ من غير أجر، وهذا دليل على معرفتهم بفرعون؛ لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين.

(الآية ٤٢) - ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾:

﴿قَالَ نَعَمۡ﴾: هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه، ويذعن لشروط سَحرته، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا.

﴿وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: فسوف تكونون من خاصّتنا، نستعين بكم في مثل هذه الأمور، ولا نستغني عنكم؛ لأنّكم مَن حافظتم على باطل ألوهيّتنا.

(الآية ٤٣) - ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣﴾:

يوجد هنا كلام محذوف، نعرفه من سياق القصّة؛ لأنّ الآية السّابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسّحرة، والقرآن الكريم يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فِطْنة السّامع أو القارىء.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾: هذه هي الغاية الّتي انتهى إليها بعد المحاورة مع السَّحَرة.

(الآية ٤٤) - ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾:

﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾: كانت العِصيّ والحبال هي آلات سحرهم.

﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾: بعزّة فرعون: هذا قَسَمهم، وما أخيبه من قَسَم! قالوا ذلك؛ لأنّ فرعون لا يُغلَب ولا يُقهَر في نظرهم، وسبق أن أوضحنا أنّ العزّة تعني عدم القهر وعدم الغلبة، لكنّ عزّة فرعون عزّة كاذبة وكبرياء بلا رصيد من حقّ.

ويقال: إنّ أدوات سحرهم وهي العِصيّ والحبال كانت مُجوّفة، قد ملؤوها بالزّئبق، فلمّا ألقوها في ضوء الشّمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب، كأنّها تتحرّك، وهذا من حِيَل السَّحَرة وألاعيبهم الّتي تُخيِّل للأعين وهي غير حقيقيّة، فحقيقة الشّيء ثابتة، أمّا المسحور فيُخَيّل إليه أنّها تتحرّك.

(الآية ٤٥) - ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾:

لم يأْت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السّحرة، إنّما هنا أحداث ذُكِرتْ في آيات أخرى، وفي لقطات أخرى للقصّة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه]، هكذا كانت الصّورة، فلمّا خاف موسى عليه السلام ثبّته ربّه عز وجل، وأيّده بالحقّ والحجّة، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة؛ ليُعدِل

سلوكه، ويشدّ على قلبه، وما كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليرسله ثمّ يتخلّى عنه، وقد قال له ربّه جَلَّ جَلَالُهُ قبل ذلك: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ [طه: من الآية ٣٩]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: من الآية ٤٦]، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي نبيّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأوامر، ويعطيه الحجّة لتنفيذها، ثمّ يتابعه بعنايته ورعايته.

فحينما نجمع هذه اللّقطات نجدها تستوعب الحدث، ويُكمّل بعضها بعضاً، وهذا يظنّه بعضهم تكراراً، وليس هو كذلك، فجاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثناء المعركة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه: من الآية ٦٩]، وهنا قال: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

﴿تَلْقَفُ﴾: تبتلع وتلتهم في سرعة وقوّة، أمّا السّرعة واختصار الزّمن والقوّة، فتدلّ على الأخذ بشدّة وعُنْف، وفي هذا دليل على أنّه خاض المعركة بقوّة، فلم تضعف قوّته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: من الإفك، يعني: قلْب الحقائق؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً؛ لأنّه يقلب الحقيقة ويُغيّر الواقع، ومنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ٥٣﴾ [النّجم]، وهي القرى الظّالمة الّتي أهلكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فجعل عاليها سافلها، وسبق أن أوضحنا أنّ الكذب وقَلْب الحقائق يأتي عندما تكون النّسبةُ الكلاميّة مخالفة للواقع، وسَمَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يفعله السّحرة إفكاً؛ لأنّهم يُغيِّرون الحقيقة، ويُخيّلون للنّاس غيرها.

(الآية ٤٦) - ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾:

لم يقُل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فسجد السّحرة، إنّما: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾، والإلقاء يدلّ على سرعة الاستجابة، وأنّ السّجود تَمَّ منهم دون تفكير؛ لأنّه أمر

فوق إرادتهم، وكأنّ جلال الموقف وهيبته وروعة ما رَأَوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ﷻ صاحب هذه الآية الباهرة؛ لذلك لم يقولوا عندها: آمنَّا بربِّ موسى وهارون، إنّما قالوا:

(الآية ٤٧-٤٨) - ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾:

وحين نتأمّل ردَّ فِعْل السَّحَرة هنا نجد أنّهم خرُّوا لله ﷻ ساجدين أوّلاً، ثمّ أعلنوا إيمانهم ثانياً، ومعلومٌ أنّ الإيمان يسبق العمل، وأنّ السّجود لا يتأتّى إلّا بعد إيمان، فكيف ذلك؟ قال العلماء: هناك فَرْق بين وقوع الإيمان، وبين أنْ تُخبِر أنت عن الإيمان، فالمتأخّر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به؛ لأنّهم ما سجدوا إلّا عن إيمان واثق ينجلي معه كلّ شكٍّ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ﷻ، حتّى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانيّة في النّفس البشريّة، وقالوا: ربّ موسى وهارون بعد ربّ العالمين، ليقطعوا الطّريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً: أنا ربّ العالمين، فأزالوا هذا اللّبْس بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

(الآية ٤٩) - ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾:

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾: فهو لا يشكّ في أنّ ما رآه السّحرة موجب للإيمان، ولا يُشكّك في ذلك، لكنّ المسألة كلّها: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾،

فما يزال حريصاً على ألوهيّته وجبروته، حتّى بعد أن كُشِف أمره وظهر كذبه، وآمن الملأ بالإله الحقّ، ثمّ أراد أنْ يبرّر موقفه بين دهماء العامّة حتّى لا يقول أحد: إنّه هُزِم وضاعت هيبته، فقال:

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾: في حين أنّ القوم يعلمون أنّ موسى لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر، لكنّ فرعون يأخذها ذريعة، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الّذي تهدّم، وألوهيّته الّتي ضاعت، ثمّ يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه، وأنّه فقد توازنه، واختلّ حتّى في تعبيره، حيث يقول:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: سوف: تدلّ على المستقبل مع أنّه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنّه قال بعدها:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: يعني: اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أوضحه الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: من الآية ٧١]، فما كان جواب المؤمنين بربّ العالمين؟

(الآية ٥٠) - ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾: أي: لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا؛ لأنّ مصير الجميع إلى الموت، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فسوف نسعد نحن بلقاء ربّنا، وتَشْقى أنت بجزاء ربّك.

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين:

- الأوّل: نَفْي الضّرر؛ لأنّ دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة.
- والثّاني: التّأكيد على النّفع الّذي سينالونه من هذا القتل.

(الآية ٥١) - ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾:

لأنّك أكرهتنا على السّحر، وحمّلْتنا على الكذب، ومكثنا عمراً نعتقد أنّك إله، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أوّلَ المؤمنين يشفع لنا عند ربّنا، فيغفر لنا خطايانا، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ [طه: من الآية ٧٣]، فذكر هناك مسألة الإكراه، وذكر هنا العلّة: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

(الآية ٥٢) - ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾:

﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: الوحي لغةً: إعلام بخفاء، وشرعاً: إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول من رسله بمنهج خير لخَلْقه.

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى عليه السلام وحشد النّاس لمشاهدة هذه المباراة، وهذا دليل على أنّه قدَّر أنّه سيَغلِب، لكن خيَّب الله سبحانه وتعالى ظنّه، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام، فآمن السّحرة بالله سبحانه وتعالى ربّ موسى وهارون، فأخذ يهدّدهم ويتوعّدهم، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان، ومع ذلك لمّا غُلِب فرعون وضاعتْ هيبته وجبّاريّته وقاهريّته سكت جمهور النّاس، واكتفوا بسماع أخبار موسى عليه السلام، وظلّ هذا الوضع لمدّة طويلة من الزّمن حدث فيها الآيات التّسع الّتي أنزلها الله سبحانه وتعالى ببني إسرائيل، وهكذا استشرى أمر موسى عليه السلام وأصبحت له أغلبيّة وشعبيّة، وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، فالمؤامرة الآن عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين.

﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾: الإسراء: المشي ليلاً.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: يعني: سيتبعكم جنود فرعون، ويسيرون خلفكم.

(الآية ٥٣) - ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣﴾:

﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: الفاء هنا للتّعقيب، فأوْحى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يَسْري ببني إسرائيل وذلك قبل أن يبعثَ فرعون في المدائن حاشرين، وكأنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يحتاط لنبيّه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليخرج قبل أن يهيّج فرعونُ النّاسَ، ويجمعهم ضدّ موسى، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب الّتي تؤثّر على خروجهم.

﴿حَٰشِرِينَ﴾: من الحشر؛ أي: الجمع، لكن هذه المرّة جمع للجنود لا للسّحرة؛ لأنّهم هُزِموا في مُباراة السّحرة، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت، فإنْ فشلتْ الأولى فلعلّ الأخرى تفلح، لكنّ الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أخبر نبيّه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بما يُدبَّر له، وأمره بالخروج ببني إسرائيل.

(الآية ٥٤) - ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾:

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغري قومه بهم، ويُشجِّعهم على مواجهتهم، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم، فيقول:

(الآية ٥٥) - ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥﴾:

فأَعِدُّوا لهم العدّة، ولا تستهينوا بأمرهم.

(الآية ٥٦) - ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾:

يعني: لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

(الآية ٥٧) - ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧﴾:

أي: لم ينفعه احتياطه، ولم يُجْدِ حذره، فلا يمنع حَذَر من قَدَر.

﴿جَنَّٰتٖ﴾: أي: بساتين وحدائق.

﴿وَعُيُونٖ﴾: أي: عيون تجري بالماء.

(الآية ٥٨) - ﴿وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨﴾:

﴿وَكُنُوزٖ﴾: كانت عندهم.

﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾: يعني: عيشة مُتْرفة في سَعَةٍ ورَغَدٍ من الحياة، وخدَم وحَشَم.

(الآية ٥٩) - ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾:

﴿كَذَٰلِكَۖ﴾: أي: الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ.

﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أورثنا هذا النّعيم من بعدهم لبني إسرائيل الّذين اتّبعوا موسى عليه السلام، وهنا قد يسأل سائل: كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النّعيم؟ قالوا: المعنى أورثهم الله سبحانه وتعالى أرضاً مثلها.

(الآية ٦٠) - ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾:

﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾: أي: عند الشّروق، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصّباح، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧﴾ [الصّافّات]، وعادةً ما يقوم الإنسان من النّوم كسولاً غير نشيط، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوّه؟!

(الآية ٦١) - ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: أي: صار كلّ منهما يرى الآخر، وحدثتْ بينهما المواجهة، وعندها:

﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾: فالحال أنّ البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم، فلا مناصَ ولا مهرب، لكنّ موسى ﵇ وقد سبق أن تعلّم كلمة: ﴿كَلَّآۖ﴾ من ربّه ﷻ، حينما قال: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشّعراء]، فردّ عليه ربّه ﷻ: ﴿كَلَّآۖ﴾ [الشّعراء: من الآية ٦٢]، عندها تعلَّمها موسى ﵇، وعرف كيف ومتى يقولها قَوْلَةَ الواثق بها.

(الآية ٦٢) - ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾:

كيف يقول موسى ﵇ هذه الكلمة: ﴿كَلَّآۖ﴾ بملء فِيهِ، والأمر بقانون المادّيّات أنّه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يُكمِلها؟ الإجابة في بقيّة الآية:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾: فلم يقُلْ موسى ﵇: ﴿كَلَّآۖ﴾ اعتماداً على قوّته واحتياطه للأمر، إنّما قالها اعتماداً على ربّه ﷻ الّذي يكلؤه بعينه، ويحرسه بعنايته، فكان جوابه ﵇: الواقع أنّني لا أعرف ماذا أفعل، ولا كيف أتصرّف، لكنّ الشّيء الّذي أثق منه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، لذلك يأتي الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة:

(الآية ٦٣) - ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾:

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾: ذلك لأنّ البحر هو عائقهم من أمامهم، والبحر مياه لها قانونها الخاصّ من الاستطراق والسّيولة، فلمّا

ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين، كلّ فِرْقٍ -أي: كلّ جانب- كالطّوْدْ، يعني: الجبل العظيم، لكن بعد أن صار الماء إلى ضِدِّه وتجمّد كالجبل، وصنع بين الجبلين طريقاً، أليس في قاع البحر بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمي يغوص فيها الإنسان؟ إنّنا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار في وحل إلى ركبتيه مثلاً، فما بالك بوحْل البحر؟ لذلك قال له ربّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: من الآية ٧٧]، فالّذي جعل الماء جبلاً، سيجعل لك الطّريق يابساً، والحقّ سبحانه وتعالى لم يُبيّن لنا في انفلاق البحر، إلى كَمْ فلقة انفلق، لكنّ العلماء يقولون: إنّه انفلق إلى اثنتي عشرة فلقة بعدد الأسباط، بحيث يمرّ كلّ سَبْط من طريق، وفي لقطة أخرى من القصّة أراد موسى عليه السلام أنْ يضرب البحر مرّة أخرى ليعود إلى طبيعته، فيسُدّ الطّريق في وجه فرعون وجنوده على حَدِّ تفكيره كبشر، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى نهاه عن ذلك: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ [الدّخان]؛ أي: اتركه على حاله ليُغري الطّريق اليابس فرعون وجنوده؛ لذلك قال سبحانه وتعالى:

(الآية ٦٤) - ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾:

﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾: أي: قرّبناهم من منتصف البحر، ثمّ أطبقه الله سبحانه وتعالى عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه، وهكذا يُنجّي الله عزّ وجلّ ويُهلِك بالشّيء الواحد.

﴿ثَمَّ﴾: أي: هناك وسط البحر.

﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾: يعني: قوم فرعون.

وللعصا مع موسى عليه السلام تاريخ طويل منذ أن سأله ربّه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه]، ومن العجيب في أمر العصا أن يضرب بها البحر، فيصير جبلاً، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلّا الله عز وجل.

(الآية ٦٥) - ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥﴾:

فقد حُسِمتْ هذه المعركة لمصلحة موسى عليه السلام ومَنْ معه دون إراقة دماء، ودون خسارة جنديّ واحد، في حين أنّ المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر في الأرواح وفي العَتَاد، أمّا هذه فلا.

(الآية ٦٦) - ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾:

أي: بنفس السّبب الّذي أنجى الله سبحانه وتعالى به موسى عليه السلام وقومَه أهلك فرعون وقومه؛ لأنّه وحده جل جلاله القادر على أن يُنجِي، وأنْ يُهلِك بالشّيء الواحد.

(الآية ٦٧) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: أي: فيما حدث.

﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: وهي الأمر العجيب الّذي يخرج عن المألوف وعن العادة، آية دالّة، آية تُقنِع العقل بأنّ الله سبحانه وتعالى هو مُجْريها على يَدَيْ موسى عليه السلام، وتدلّ على صِدْق رسالته وبلاغه عن الله عز وجل، وإلّا فهي مسألة فوق طاقة البشر، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: أي: أنّ المحصّلة النّهائيّة للّذين آمنوا كانوا هم القلّة مع هذه الآيات، حتّى الّذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتّبعوه وأنجاهم الله سبحانه وتعالى من آل فرعون ومن الغرق، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا، كما حكى القرآن الكريم عنهم.

(الآية ٦٨) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ﴾: أي: بعد ما مرّ من حيثيّات فإنّ الله سبحانه وتعالى هو:

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: أي: الّذي لا يُغلَب ولا يُقهَر، إنّما هو الغالب وهو القاهر، فهو سبحانه وتعالى يغلِب ولا يُغلب، ويُطعِم ولا يُطعَم، ويُجير ولا يُجار عليه، ومع عِزّته سبحانه وتعالى وقوّته هو أيضاً:

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: لأنّه ربّ الخَلْق أجمعين، يرحمهم إنْ تابوا، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته.

(الآية ٦٩) - ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾:

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء في إيجاز مُبسّط لقصّة موسى عليه السلام مع فرعون، ثمّ تكلّم الحقّ سبحانه وتعالى عن نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ممّا يدلّ على أنّ المسألة في القرآن الكريم ليست سَرْداً للتّاريخ، فإبراهيم عليه السلام كان قبل موسى عليه السلام، ولو أراد القرآن الكريم التّأريخ لجاءت قصّة إبراهيم أوّلاً، إنّما الهدف من القصص في القرآن الكريم التقاط مواضع العِبْرة والعِظَة واتّخاذ الأُسوة من تاريخ الرّسل، ليُثبِّت الله سبحانه وتعالى بها فؤاد رسوله صلى الله عليه وسلم، حينما يواجه الأحداث الشّاقّة.

والمتأمّل في رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليه السلام يجد أنّ موسى جاء ليعالج مسألة هي قمّة العقيدة، ويواجه مَنِ ادّعى الألوهيّة وقال: إنّي إله من غير الله عز وجل، أمّا إبراهيم فقد عالج مسألة الشّرك مع الله سبحانه وتعالى وعبادة الأصنام، فعندهم طَرَف من إيمان، بدليل أنّهم إذا ضُيّق عليهم الخناق، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، لذلك كانت قصّة موسى أَوْلَى بالتّقديم هنا.

﴿وَاتْلُ﴾: أي: اقرأ، أو وضِّح، أو عبِّر، ونقول للقراءة: (تلاوة)؛ لأنّه لا يُتلَى إلّا المكتوب المعلوم المفهوم.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: على أمّة الدّعوة كلّها، أَمْ على المكذّبين خاصّة؟ قال العلماء: على المكذِّبين خاصّة؛ لأنّ المصدِّقين برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحتاجون هذه التّلاوة، وإنْ تُليَتْ عليهم فإنّما تكون للتّذكرة أو لعلم التّاريخ، فالمراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أنّ نهاية كلّ رسل الله سبحانه وتعالى في دعوتهم النّصر والغلبة، وأنّ نهاية المكذّبين المخالفين الهزيمة والاندحار، فكأنّ القرآن الكريم يقول لهم: لا تغترّوا بقوّتكم، ولا بجاهكم، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب. ومعلومٌ أنّ مكانة قريش بين العرب إنّما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام، وما أَمِنُوا في طرق تجارتهم إلّا بقداسة بيت الله وحُرْمته، ولولا البيت ما كان لقريش هذه المكانة كلّها، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش]، ولو انهدم البيت في قصّة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة على الجزيرة العربيّة، وما دام أنّ الله سبحانه وتعالى فعل معهم هذا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش].

﴿نَبَأَ﴾: أي: الخبر المهمّ الّذي يجب أنْ يُقال، ويجب أنْ يُنصتَ له، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعِظة، فلا يُقال: (نبأ) للخبر العاديّ الّذي لا يُؤبَهُ له.

ولو تتبّعنا كلمة (نبأ) في القرآن الكريم لوجدناها لا تُقَال إلّا للأمر المهمّ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ]، وقوله سبحانه وتعالى في قصّة سليمان عليه السلام والهدهد: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النّمل: من الآية ٢٢]، و﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، يعني: الخبر المهمّ عنه، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الّذي مدحه ربّه عز وجل مدحاً عظيماً في مواضع عدّة من القرآن الكريم، فقال الحقّ سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النّحل: من الآية ١٢٠]، والأمّة لا تُطلَق إلّا على جماعة تنتسب إلى شيء خاصّ، ويجمعهم مكان وزمان وحال، كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أضفى الله سبحانه وتعالى عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحمّلها، في جوانب شخصيّته كلّها: داعيةً وأباً وزوجاً.. إلخ، وخصال الخير من شجاعة، وحِلْم، وعِلْم، وكرم .. إلخ، وكذلك الخير في أمّته منثورٌ بين أفرادها، يأخذ كلٌّ منهم من الخير بطرف، وله منه نصيب، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمّديّ أبداً، ولا أن يتّصف به، كذلك كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام ﴿أُمَّةٗ﴾؛ لأنّ خصال الخير تُوزَّع على أفراد الأمّة: هذا ذكيّ، وهذا حليم، وهذا عالم، وهذا حكيم.. إلخ، أمّا إبراهيم عليه السلام فقد جمع من الخير ما في أمّة بأكملها، وهذا ليس كلاماً يُقَال في مدح نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، إنّما من واقع حياته العمليّة.

(الآية ٧٠) - ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠﴾:

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: فأوّل دعوته كانت لأبيه، وأقرب النّاس إليه لا للغريب، والدّعوة الّتي توجَّه أوّلاً للقريب، لا بُدَّ أنّها دعوة حَقٍّ ودعوة خير؛ لأنّ الإنسان يحبّ الخير أوّلاً لنفسه، ثمّ لأقرب النّاس إليه، ولو كانت في خيريّتها شَكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه، والمراد بأبيه هو (آزر) الّذي ورد ذكره في موضع آخر.

وسؤاله لأبيه وقومه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾؟ سؤال استهجان واستنكار، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة؛ لأنّ العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى، فالّذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم؟! فهي آلهة دون منهج، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الّذي لا يأمره بشيء، ولا ينهاه عن شيء، وكذلك هي آلهة دون جزاء ودون حساب؛ لأنّها لا تثيب مَنْ أطاعها، ولا تعاقب مَنْ عصاها، فكلمة عبادة هنا خطأ، ومع ذلك يُسمِّيها النّاس آلهة، لماذا؟ لأنّ الإله الحقّ له أوامر لا بُدَّ أن تُنفّذ، وإنْ كانت شاقّة على النّفس، وله نواهٍ لا بُدَّ أن تُترَك وإنْ كانت النّفس تشتهيها، فهي عبادة شاقّة، أمّا عبادة الأصنام فما أسهلها، فليس عندها أمْر ولا نَهْي، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام، وسمَّوْها آلهة، كما أنّ الإنسان في مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل، أو خرجت عن طاقته، عندها يجد له ربّاً يلجأ إليه، ويستعين به، فيقول: يا ربّ، فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل؟ هل يتوجّه إليها بالدّعاء؟ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا

﴿فَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾، فعبادة غير الله ﷻ حُمْق وغباء، لكن هذا البحث من إبراهيم عليه السلام، وهذا الجدل مع أبيه وقومه، أكان بعد الرّسالة أم قبلها؟ قالوا: إنّ إبراهيم عليه السلام كان ناضجاً مُتفتّحاً منذ صِغَره، وكان مُنكِراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل، لذلك قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾ [الأنبياء]، وكذلك كان نبيّنا مُحمّد ﷺ قبل بعثته كارهاً للأصنام، معترضاً على عبادتها، يتعجّب حين يرى قومه يعبدونها، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة، وقد كُسر ذراعه، فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله، فضحك رسول الله ﷺ وتعجَّب لما يرى: العابد يصلح المعبود؟! بعدها اعتزلهم ﷺ، ولجأ إلى الغار يفكّر في الإله الحقّ والمعبود الحقّ، فكأنّ أيَّ دين يأمر الله سبحانه وتعالى به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحقّ من غير رسول؛ لأنّ الفطرة السّليمة تدلّ على الله ﷻ، لكن لا بدّ من إرسال الرّسل ليعلِّمونا المنهج والهداية، ويستطيع الإنسان أنْ يعرض أيَّ قضيّة من قضايا الدّين على العقل السّليم، وسوف يجد أنّها طيّبة وجميلة توافق الذَّوْق السّليم والتّفكير السّويّ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل والدّين، وكذلك الرّشوة؛ لأنّك تأخذ بها ما ليس لك، وقد يُسلَّط عليك رَاشٍ، فيأخذ منك حقّك، كما أخذتَ حقوق النّاس.

(الآية ٧١) - ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾:

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾: شهد شاهد من أهلها، وقالوا بأنفسهم: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾، والعبادة طاعة، فماذا قالت لهم الأصنام؟ وبماذا أمرتهم؟ طبعاً، ليس عندهم جواب.

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: أي: قائمين على عبادتها ليلَ نهار؛ لأنّها آلهة دون تكليف، وعبادة بلا مشقّة ولا التزام.

لكن، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام؟ وبم رَدَّ عليهم؟

(الآية ٧٢-٧٣) - ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾:

فالأصنام لا تسمع مَنْ توجَّه إليها بالدّعاء، ولا تنفع مَنْ عَبَدها، ولا تضرّ مَنْ كفر بها؛ لذلك لم يجدوا ردّاً، وحاروا جواباً، ولم يجدوا حُجّة إلّا أن قالوا:

(الآية ٧٤) - ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤﴾:

فأنتم لم تُحكِّموا عقولكم في هذه المسألة، كما قالوا في موضع آخر: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣]، فهذا تقليد غير مقبول على الإطلاق.

(الآية ٧٥-٧٦-٧٧) - ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾:

يقول إبراهيم عليه السلام: لا تلقوا بالمسألة على الآباء، وتُعلِّقوا عليهم أخطاءكم، ثمّ يعلنها صريحة متحدّية.

﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾: وكلمة عدوّ جاءت مفردة مع أنّها مسبوقة بضمير جمع، وتعود على جمع: ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾، ومع ذلك لم يقل: أعداء لي، لماذا؟ قال العلماء: لأنّ العداوة في أمر الدّين واحدة على خلاف العداوة في أمر

الدّنيا؛ لأنّها متعدّدة الأسباب، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، فجاءت: ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، هنا جمع؛ لأنّها تعود على عداوة الدّنيا، وهي متعدّدة الأسباب، أمّا العداوة في الدّين فواحدة، ومن ذلك ما قلناه في سورة النّور عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النّور: من الآية ٦١]، كلّها بصيغة الجمع إلّا في: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ [النّور: من الآية ٦١]، جاءت بصيغة المفرد؛ لأنّ الصّداقة الحقّة هي ما كانت لله سبحانه وتعالى غير متعدّدة الأغراض. وفي إعلان إبراهيم عليه السلام لعداوته لهذه الأصنام تحدٍّ لهم، فإنْ كانوا يقدرون على مضرّته فليفعلوا، وبعد أن أعلن إبراهيم عليه السلام عداوته للأصنام نجحت دعوته، وظلّ إبراهيم هو إبراهيم، لم يُصبْه شيء.

(الآية ٧٨) - ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾:

كأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يقول لهم: اعلموا أنّ للعبادة أسباباً وحيثيّات، ويوضّح إبراهيم عليه السلام حيثيّات عبادة ربّه عزّ وجلّ، فيقول:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾: أي: خلقني من عدم، وأمدَّني من عُدْم، وجعل لي قانون صيانة يحفظ حياتي، ويضمن سلامتي حين كلَّفني بشرعه: افعل كذا ولا تفعل كذا، وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع بشيء من هذا، بل النّفع يعود علينا نحن، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا؟! بالتّأكيد لا، فهو وحده المستحقّ للعبادة.

﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾: أي: بقانون الصّيانة؛ ليضمنوا سلامة البشر وأدائهم لمهمّتهم على أكمل وجه. ثمّ يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة، فيقول:

(الآية ٧٩-٨٠) - ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾:

ونقف هنا عند الضّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ الّذي جاء للتّوكيد، والتّوكيد لا يأتي ابتداءً، إنّما يكون على درجات الإنكار، وقد أكّد الحقّ سبحانه وتعالى نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشّفاء إليه جلّ جلاله؛ لأنّ هذه المسائل الأربع قد يدّعيها غيره سبحانه وتعالى، وقد يظنّ بعض النّاس أنّ الطّبيب هو الشّافي، أو أنّ الأب مثلاً هو الرّازق؛ لأنّه الجالب له والمناول، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾، فالهداية لا تكون إلّا من الله سبحانه وتعالى، وفي شِرْعته جلّ جلاله، ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾، فلماذا نذهب إلى الطّبيب؟ نقول: الطّبيب يعالج، وهو سبب للشّفاء، أمّا الشّفاء فمن الله عزّ وجلّ، بدليل أنّ الطّبيب ربّما يمرض، ويعجز هو عن شفاء نفسه، وحين نُعرب: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ﴾، نقول: مرض، فعل ماضٍ، والتّاء فاعل، فهل أنا الّذي فعلتُ المرض؟ وهذا مِثْل أن نقول: مات فلان، ففلان فاعل مع أنّه لم يحدث الموت؛ لذلك يجب أن نتنبّه إلى أنّ الفاعل يعني مَنْ فعل الفعل، أو اتّصف به، والفاعل هنا لم يفعل الفعل، وإنّما اتّصف به، وقال: ﴿مَرِضۡتُ﴾ تأدّباً مع الله سبحانه وتعالى، فلم يقل: أمرضني، ونسب المرض الظّاهر إلى نفسه، أمّا في المسائل الّتي لا يدَّعيها أحد، فتأتي بالفعل دون توكيد، كما في الآية بعدها:

(الآية ٨١) - ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾:

فلم يقُل هنا: هو يميتني، أو: هو يُحييني؛ لأنّ الحياة والموت بيده ﷻ لا يدَّعيها أحد، فإنْ قُلْتَ: وماذا عن قتْل الإنسان لغيره ألَا يُعَدُّ موتاً؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]، فالموت أن تخرج الرّوح، والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء، وبعد خروج الرّوح تُنقض البنية، أمّا القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتّب عليه خروج الرّوح، فالموت لم يدَّعه أحدٌ لنفسه، ولـمّا ادّعاه النّمرود جادله إبراهيم ﵇ في ذلك، وكشف زيف هذا الادّعاء، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، ولم يفعل إلّا أنْ جاء برجل فأمر بقتله، ثمّ عفا عنه؛ لذلك رأى إبراهيم ﵇ أنْ يقطع عليه هذا الطّريق، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، وهكذا أنهى هذه السّفسطة، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند.

﴿يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾: لقد استخدم حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الّذي يُفيد العطف مع التّراخي، ولم يستخدم الواو؛ لأنّ الواو تُفيد مُطلَق العطف، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة، ألا ترى قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس].

(الآية ٨٢) – ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾:

عجيب أن يصدر هذا الدّعاء من إبراهيم عليه السلام، وما أدراك ما إبراهيم؟! إنّه أبو الأنبياء الّذي وصفه ربّه عزّ وجلّ بأنّه: ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٠]، إبراهيم عليه السلام الّذي ابتلاه ربّه بكلمات فأتمهنّ، ومع هذا كلّه يقول: ﴿أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، إنّه أدب عَالٍ مع الله سبحانه وتعالى، لقد نسي عمله كلّه؛ لأنّ الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو بأمسّ الحاجة إلى العبادة وطلب المغفرة مع الطّمع أن يرحمه الله عزّ وجلّ، ومتى دعا إبراهيم عليه السلام ربّه وتضرّع إليه؟ الجواب: بعد أن ذكر حيثيّات الألوهيّة، واعترف لله سبحانه وتعالى بالنّعم السّابقة وأقرَّ بها، فقد خلقه من عدم، وأمدَّه من عُدْم، ووفّر له مقومات الحياة كلّها، وإقرار العبد بنعم الله عزّ وجلّ عليه يقضي على كبرياء نفسه، ويُصفّي روحه وأجهزته، فيصير أهلاً لمناجاة الله سبحانه وتعالى، وأهلاً للدّعاء، فإن اعترفنا لله سبحانه وتعالى بالنّعم السّابقة أجابنا فيما نطلب من النّعم اللّاحقة، على خلاف مَنْ لا يذكر لله سبحانه وتعالى نعمة، ولا يقرّ له جلّ جلاله بسابقة خير، فكيف يقبل منه دعاء؟ وبأيِّ وجه يطلب من الله سبحانه وتعالى المزيد؟ فلا تَدْعُ ربّك إلّا بعد صفاء نفس وإخلاص عبوديّة؛ لذلك قيل: "مَنْ عمل بما علم أورثه الله سبحانه وتعالى علم ما لم يعلم"، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: من الآية ٢٩]، يقول لك ربّك: أنت مأمون على ما علمتَ، فاعمل به، فخُذ المزيد من هدايتي ونوري وتوفيقي، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيمانيّ وصفاء روحيّ، يجعلك أهلاً للمناجاة والدّعاء، فإبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء، لم

يجترىء على الدّعاء بشيء آتٍ إلّا بعد أنْ ذكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النّعم السّابقة، وشكره عليها، فوافق قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧].

(الآية ٨٣) - ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾: نلحظ أنّه لم يدْعُ بشيء من الدّنيا، وهناك فرق بين الحُكم والحكمة: الحكمة أن تضع الشّيء في موضعه، أمّا الحُكم فأنْ تعلم الخير أوّلاً، ثمّ تعمل بما علمت ثانياً، وقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿هَبْ لِي﴾؛ لأنّ الهبة عطاء دون مقابل، فكأنّه قال: يا ربّ أنا لا أستحقّ، فاجعلها لي هِبَة من عندك.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: أي: ألحقني بهم في العمل والأُسْوة لأنالَ بعدها الجزاء، وليس المراد: ألحقني بهم في الجزاء، إنّما في العمل، وقد أجابه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الدّعوة، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: من الآية ٧٥]، والملكوت: المخلوقات غير المحسّة، أطلعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها؛ لأنّه عمل بما علم من الملك المحسّ، وكذلك قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: من الآية ١٣٠].

(الآية ٨٤) - ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾: نعرف أنّ اللّسان وسيلة التّعبير، والمراد هنا: ذكراً حسناً يذكر بحقّ، ويذكر بصدق، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص، فنظلّ نكيل له المدائح، ونُثني عليه بالصِّدْق وبالكذب، وبما فعل وبما لم يفعل، فهذا ذكر، لكنّه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة

وللواقع، وسبق أن أوضحنا أنّ الصّدق هو الكلام المطابق للواقع، وقد ورد هذا المعنى في الأمّهات الخمس في القرآن الكريم:

١- قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾.

٢- ٣- في قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٠]، يعني: أدخلني بصدق -لا بغشٍّ- مدخلاً أستطيع الخروج منه، وكذلك أخرجني مخرج صدق.

٤- وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر].

٥- وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: من الآية ١٦]، هذه المواضع الخمسة لكلمة: الصّدق.

﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: يعني: يتعدّى الذّكْر الحسن مدّة حياتي إلى مَنْ بعدي، فالآن لا يصلّي أحدٌ على سيّدنا مُحَمّد إلّا صلّى على سيّدنا إبراهيم، أليس هذا مصداق لقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصّافّات].

(الآية ٨٥) - ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾:

بعد أن دعا لأمر في الدّنيا، ثمّ لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنّة النّعيم الدّائم في الآخرة، ولا شكّ أنّ ربّه عزّ وجلّ قد أجابه إلى هذه، فهو من ورثة جنّة النّعيم، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: من الآية ١٣٠]، وكلمة ميراث الجنّة وردتْ في القرآن الكريم أيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون]، والميراث أنْ تأخذ مِلكاً من آخر بعد موته، فكيف تكون الجنّة ميراثاً؟ قال

العلماء: إنّ الخالق عَزَّوَجَلَّ لم يخلق الجنّة على قدر أهلها وكذلك النّار، إنّما خلق الجنّة تتّسع للنّاس جميعاً، إنْ آمنوا، وخلق النّار تتّسع للنّاس جميعاً إنْ كفروا؛ ذلك لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الخَلْق مختارين، مَنْ شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليكفر، وعليه، فميراث الجنّة يعني أنْ يرث المؤمنون أماكن الّذين كفروا في الجنّة لو آمنوا، يتقاسمونها فيما بينهم، والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه، لكن لا يسأل عنها، إنّما يأخذها طيّبة؛ لأنّه وارث، فهذا هو ميراث الجنّة، فالجنّة جاءتهم كما يأتي الميراث لأهله من غير تعب وسَعْي منهم، وهذا تصديق لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث النّبويّ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[1]، فالجنّة ميراث؛ لأنّ الأصل أنّك لا تُجازَى على الخير الّذي قدّمته؛ لأنّه تكليف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعود خيره عليك في الدّنيا، حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها، وما دام التّكليف في مصلحتك، فكيف تأخذ أجراً عليه؟ فالأجر من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن جعل لك الجنّة ميراثاً لعملك الّذي أدّيته في هذه الحياة الدّنيا، لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

(الآية ٨٦) - ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾:

لم ينْسَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه أن يدعو لمن ربّاه؛ لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق، إنّما جعل الوالدين هما السّبب المباشر في الخَلْق والإيجاد؛ لذلك جعلهما أصحاب الفضل والأحقّ بالطّاعة بعده جَلَّ جَلَالُهُ، لكن قد ينجب

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٦٧٣).

الوالدان ويهملان ولدهما فيربّيه غيرهما؛ لذلك يأخذ المنزلة الثّالثة، فعندنا ربوبيّة خَلقَت من عدم، وأبوّة جاءت بأسباب الإيجاد، وأبوّة أخرى ربّت واعتنتْ، وهذا المعنى واضح في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، فحيثيّة الدّعاء بالرّحمة هنا، لا لأنّهما أبوان وهما سبب الإيجاد، إنّما لأنّهما ربّياني صغيراً، فلو ربّاني غير والديَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقّوا هذا الدّعاء، لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام في هذه؛ لأنّه سأل الله سبحانه وتعالى لأبيه قبل أن يعرف أنّه عدوّ لله عز وجل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التّوبة: من الآية ١١٤].

(الآية ٨٧) - ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾:

بأيِّ شيء يكون الخزي في الآخرة؟ الخِزي يكون حين يعاتبك ربّك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرط منك من تقصير؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربّه، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام في هذه الدّعوة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: من الآية ١٣٠].

(الآية ٨٨) - ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾:

أتى بالمسألة الّتي تشغل النّاس جميعاً، فكلّ إنسان يريد أن يكون غنيّاً صاحب مال وأولاد وعِزْوة، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزِن وتألّم أشدّ الألم، والحقّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، ويقول جل جلاله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤]، نعم، هي

زينة الحياة الدّنيا، ومعنى الزّينة: الحُسْن غير الذّاتيّ، فالحُسْن قد يكون ذاتيّاً في الجوهر، كالمرأة الّتي تكون جميلة بطبيعتها الّتي خلقها الله ﷻ عليها، دون أنْ تتزيّن.

(الآية ٨٩) - ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾:

يعني: مع أنّ المال والبنين زينة الحياة الدّنيا، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التّصرُّف في ماله، فأنفقه في الخير، وأحسن تربية أولاده التّربية الصّالحة، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلّا إذا ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يعني: توفّر له الإخلاص في هذا كلّه، وإلّا فالرّياء يُحبط العمل، ويجعله هباءً منثوراً، إنْ كنتَ تفعل الخير في الدّنيا ولا تؤمن بالله ﷻ ولا تُنزّهه ﷻ عن الشّريك، فلن ينفعك عملك، ولن يكون لك منه نصيب في ثواب الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٖ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]، وفي الحديث القدسيّ: فعلتَ: «**لِيُقَالَ**: ...، **فَقَدْ قِيلَ**»(١)، فقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ لا ينفي نفع المال والبنين، فهي نافعة شريطة أنْ تأتي الله ﷻ بقلب سليم، والسّلامة هنا تعني: أن يظلّ الشّيء على حاله وعلى صلاحه الّذي خلقه الله ﷻ عليه، لا يُصيبه عطب في ذاته، فيؤدّي مهمّته كما ينبغي، فكأنّ السّلامة تُوجد أوّلاً، ونحن الّذين نُفسِد هذه السّلامة، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة]، لذلك لو تأمّل

---

(١) صحيح مسلم: كِتَابُ الإِمَارَةِ، بَابُ مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، الحديث رقم (١٩٠٥).

النّاس فيما يُتعبهم في الحياة لوجدوا أنّه ثمرة إفسادهم في الكون المنظّم الّذي خلقه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مقتضى حكمته جَلَّ جَلَالُهُ، بدليل أنّ كلّ حركة في الكون لا يتدخّل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلّف، فإنْ تدخّل الإنسان وُجِد الفساد ووُجِد الظّلم للغير، حتّى للنّبات والجماد والحيوان، وقد نهانا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هذا كلّه، هذا إنْ تدخّل الإنسان في الكون على غير مقتضى منهج ربّه عَزَّ وَجَلَّ، فإنْ تدخّل على هَدْي من منهج الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استقامتْ الأمور وتحقّقتْ السّلامة، ألا ترى قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الرّحمن: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرّحمن]، لذلك نجد كلّ شيء في الكون موزوناً بقدر وحكمة: الشّمس والقمر والنّجوم والهواء والماء.. إلخ، وعناصر الكون هذه تسير مستقيمة في منظومة الكون المتكاملة، لماذا؟ لأنّه لا دَخْلَ للإنسان فيها.

فمعنى القلب السّليم: القلب الّذي لا يُعمَر إلّا بما أراد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُعمرَ به، فلا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدّنيا، واجعله خالياً لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنْشغلاً به، فهذه هي سلامة القلب؛ لأنّ القلب مفطور على هذا، مطبوع عليه، ساعة خلقه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقه صافياً سليماً من المشاغل؛ لذلك يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النّحل: من الآية ٧٨]، لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النّحل: من الآية ٧٨]، فلا نأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب؛ لأنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ۝٤٦﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، وفي آية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤]، ختمها الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ

﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٤]، ومن سلامة القلب أن يخلو من الشّرك، وأن يخلو من النّفاق؛ لأنّ المنافق يؤمن بلسانه، ولا يؤمن بقلبه، فقلبه لا يوافق لسانه؛ لذلك هو غير سليم القلب، وكذلك الرّياء ينافي سلامة القلب، فالمرائي يعمل للنّاس ولا يعمل لله ﷻ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة، ثمّ يتّهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنّه ناكر للجميل، نقول له: لماذا تتّهمه، وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ﷻ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير؟

(الآية ٩٠) - ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾:

﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾: يعني: قرِّبت، لكن كيف تقرّب منهم وهم بداخلها؟ قالوا: تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها، وهم ما زالوا في شدّة الموقف وهول القيامة والحساب، فتُقرَّب منهم الجنّة ليطمئنّوا بها، ويهون عليهم هذا الموقف الصّعب، وفي آية أخرى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾ [ق]، يعني: يروْنها عياناً، ويعرفون أنّها النّعيم الّذي ينتظرهم، وسوف يباشرونه عن قريب.

(الآية ٩١) - ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ﴾: وهذه لمن أتى الله ﷻ بقلب غير سليم، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: من الآية ٧١]، والورود لا يعني دخول النّار، إنّما رؤيتها والمرور بها؛ لأنّ الصّراط مضروب على مَتْن جهنّم، والحكمة من ورود النّار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فَضْل الإيمان عليه، وأنّه سبب نجاته من هذه النّار الّتي يراها، يقول ﷻ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥].

﴿لِلْغَاوِينَ﴾: جمع غاوٍ، وهو إمّا أنْ يكون غاوياً في نفسه، أو أغوى غيره، فتطلق على الغاوي، وعلى الّذي يُغوِي غيره.

(الآية ٩٢-٩٣) - ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾: أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ﷻ، أين هم الآن؟ وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصّافّات]، لقد ضلّوا عنكم، وتركوكم، بل وتبرّؤوا منكم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة].

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾: يعني: لا يستطيعون نصركم، أو الدّفاع عنكم، ولا حتّى نَصْر أنفسهم، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى، ففي الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من غير الله ﷻ.

(الآية ٩٤) - ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾: الفعل كَبْكب، يعني: كبّوا مرّة بعد أخرى على وجوههم، فكلّما قام كُبَّ على وجهه مرّة أخرى، وهي على وزن فعللة الدّالّ على التّكرار، كما تقول: زقزقة العصافير، ونقنقة الضّفادع، والمراد هنا الأصنام تُكَبّ على وجوهها، وتسبق مَنْ عبدها إلى النّار، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء].

﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾: فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلّوهم؛ ليقطع أمل التّابعين لهم في النّجاة، فلو دخل التّابعون أوّلاً، لقالوا: سيأتي مَنْ عبدناهم

لينقذونا، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم، كما قال ﷻ عن فرعون: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: من الآية ٩٨].

(الآية ٩٥) - ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥﴾:

ولإبليس جنودٌ من الجنّ، وجنود من الإنس، سيجتمعون جميعاً في النّار.

(الآية ٩٦) - ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦﴾:

هذه لقطة من ساحة القيامة، حيث يختصم أهل الضّلال مع مَنْ أضلّوهم، ويُلْقِي كلٌّ منهم بالتّبعة على الآخر، وهذه الخصومة وردتْ في قوله ﷻ على لسان الشّيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، والمعنى: لم يكُنْ لي عليكم سلطانُ قَهْر أحملكم به على طاعتي، ولا سلطان حجّة أقنعكم به، ثمّ يعترف أهل الضّلال بضلالهم، ويقسمون:

(الآية ٩٧-٩٨) - ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾: يعني: والله.

﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: يعني: ظاهر ومحيط بنا من كلّ ناحية، فأين كانت عقولنا ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ أي: في الحبّ، وفي الطّاعة، وفي العبادة، كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٥].

(الآية ٩٩) – ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾:

يعني: يا ربّ أرنا هؤلاء المجرمين، ومَكِنّا منهم لننتقم لأنفسنا، ونجعلهم تحت أقدامنا، وهكذا أخرجوا كلّ سُمِّهم في هؤلاء المجرمين، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه.

(الآية ١٠٠) – ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾:

﴿شَٰفِعِينَ﴾: الشّافع من الشَّفْع؛ أي: الاثنين، والشّافع هو الّذي يضمُّ صوته إلى صوتك في أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك، فيتوسّط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر، والشّفاعة في الآخرة لا تكون إلّا لمن أَذِن الله ﷻ له، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٨]، ويقول ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٥]، فليس كلّ أحد صالحاً للشّفاعة، مُعدّاً لها، وكذلك في الشّفاعة في الدّنيا فلا يشفع لك إلّا صاحب منزلة ومكانة، وله عند النّاس أيادٍ بيضاء تحملهم على احترامه وقبول وساطته، فهي شفاعة مدفوعة الثّمن، فللشّافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عمّا يطلب للمشفوع له.

(الآية ١٠١) – ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾:

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾: فرْق بين الشّافع والصّديق، فالشّافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك، أمّا الصّديق وخاصّة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه، إنّما يبادرك بالمساعدة، ووصف الصّديق بأنّه حميم؛ لأنّ الصّداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع، حيث كلّ إنسان مشغول بنفسه، فإذا لم تكُنْ الصّداقة داخلة في الحميميّة، فلن يسأل صديق عن صديقه، كما قالت ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ

ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]، وقد أثارت مسألة الشّفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الّذين يريدون تصيّد المآخذ على القرآن الكريم، فجاء أحدهم يقول: تقولون إنّ القرآن معجزة في البلاغة، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتي في أسلوبين، فإنْ كان الأوّل بليغاً فالآخر غير بليغ، وإنْ كان الثّاني بليغاً فالأوّل غير بليغ، ثمّ يقول عن مثل هذه الآيات: إنّها تكرار لا فائدة منه! ونقول له: أنت تنظر إلى المعنى في إجماله، وليس لديك الملَكة العربيّة الّتي تستقبل بها كلام الله ﷻ، ولو كانت عندك هذه الملَكة لما اتّهمتَ القرآن الكريم، فكلّ آية ممّا تظنّه تكراراً إنّما هي تأسيس في مكانها لا تصلح إلّا له، والآيتان محلّ الكلام عن الشّفاعة في سورة البقرة، وهما متّفقتان في الصّدر مختلفتان في العَجْز، إحداهما: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: من الآية ٤٨]، والأخرى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٣]، فصدْر الآيتين متّفق، أمّا عَجز الأولى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: من الآية ٤٨]، وعَجُز الأخرى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٣]، فهما مختلفتان، وحين نتأمّل صَدْرَيْ الآيتين الّذي نظنّه واحداً نجد أنّه مختلف أيضاً، نعم هو مُتّحد في ظاهره، لكن حين نتأمّله نجد أنّ الضّمير فيهما: إمّا يعود على الشّافع، وإمّا يعود على المشفوع له، فإنْ عاد الضّمير على المشفوع له، نقول له: لا نأخذ منك عدلاً، ولا تنفعك شفاعة، وإنْ عاد الضّمير على الشّافع نقول له: لا نقبل منك شفاعة -ونُقدّم الشّفاعة أوّلاً- ولا نأخذ منك عدلاً، فليس في الآيتين تكرار كما تظنّون، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا

تؤدّيه الآية الأخرى، وقد أوضحنا هذه المسألة أيضاً في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، والأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: من الآية ٣١]، فصدْرا الآيتين مختلف، وكذلك العَجْز مختلف، فعَجُز الأولى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، وعَجُز الأخرى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٣١]، وحين نتأمّل الآيتين نجد أنّ لكلّ منهما معناها الخاصّ بها، وليس فيهما تكراراً كما يظنّ بعضهم، ففي الآية الأولى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، فالفقر في هذه الحالة موجود فعلاً، وشُغل الأب برزق نفسه أوْلى من شغله برزق ولده؛ لذلك قال في عَجُز الآية: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، فقدَّمهم على الأولاد، أمّا في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: من الآية ٣١]، فالفقر غير موجود، والأب يخاف أن يأتي الفقر بسبب الأولاد، فهو مشغول برزق الولد، لا برزقه هو؛ لأنّه غنيّ غير محتاج؛ لذلك قدَّم الأولاد في عَجُز الآية: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٣١]، كأنّه يقول للأب: اطمئنّ فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أوّلاً، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم، فلكلّ آية معناها الّذي لا تؤدّيه عنها الآية الأخرى.

ثمّ يقول الحقّ ﷻ عنهم أنّهم قالوا:

(الآية ١٠٢) - ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾:

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: أي: عودة إلى الدّنيا ورجعة.

﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: نستأنف حياة جديدة، فنؤمن بالله ﷻ ونطيعه، ونستقيم على منهجه، ولا نقف هذا الموقف.

وفي آيات أخرى شرحت هذه المسألة، يقول ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون]، والمراد بقوله: ﴿كَلَّآۚ﴾؛ أي: لن يعودوا مرّة أخرى، وما هي إلّا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النّجاة بها، لكن هيهات، فبينهم وبين الدّنيا برزخٌ يعزلهم عنها، ويمنعهم العودة إليها، وسوف يظلّ هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون.

(الآية ١٠٣) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: أي: فيما سبق.

﴿لَأٓيَةًۖ﴾: هي الأمر العجيب اللّافت للنّظر، وما كان ينبغي أنْ يمرَّ على العقول دون تأمّل واعتبار.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: مع أنّ هذه الآيات ظاهرة واضحة، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين.

(الآية ١٠٤) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾:

أي: مع كونهم لم يؤمن أكثرهم، فالله ﷻ هو العزيز الّذي لا يُغلَب، إنّما يغلِب، ومع عِزّته ﷻ فهو رحيم بعباده يفتح باب التّوبة لمن تاب.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: هو الّذي لا يحتاج غيره، فالله ﷻ لا يحتاج عبادة البشر، وفي الحديث القدسيّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ**

رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»[1]، ومع ذلك فهو عزيز لا يحتاج غيره ولا يُغلَب، ومع ذلك فإنّه:

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: فهو رحيم، يفتح باب التّوبة لمن تاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزّمر]، وقال جلّ جلاله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان]، وباب التّوبة مفتوح لا يُغلَق.

ثمّ ينتقل السّياق القرآنيّ من قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى قصّة أخرى من رَكْب الأنبياء ومواكب الرّسل هي قصّة نوح عليه السلام:

(الآية ١٠٥) - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: القوم: هم الرّجال خاصّة، وسُمُّوا قوماً؛ لأنّهم هم الّذين يقومون بأهمّ الأشياء، ويقابل القوم النّساء، كما جاء شرح هذا المعنى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١١].

ونلحظ أنّ الآية تقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كيف وهم ما كذّبوا إلّا رسولهم نوحاً عليه السلام؟ قال العلماء: لأنّ الرّسل عن الله عزّ وجلّ إنّما جاؤوا بأصول ثابتة في العقيدة والأخلاق لا تتغيّر في أيّ دين؛ لذلك فمن كذّب رسوله فكأنّه كذّب الرّسل كلّهم، والاختلاف فقط بالشّرائع، يقول سبحانه وتعالى:

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصِّلَة والآداب، بَابُ تَحرِيمِ الظُّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٥]، فإنْ قال بعضهم: فماذا عن اختلاف المناهج والشّرائع من نبيّ لآخر؟ نقول: هذه اختلافات في مسائل تقتضيها تطوّرات المجتمعات، وهي فرعيّات لا تتّصل بأصل العقائد والأخلاق، لذلك نجد هذه لازمة في مواكب الرّسالات كُلِّها، يقول: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنّ الّذي يُكذِّب رسوله فيما اتّفق فيه الأجيال من عقائد وأخلاق، فكأنّه كذّب جميع المرسلين.

(الآية ١٠٦) - ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾: يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة: ﴿أَخُوهُمْ﴾ الّتي تعني أنّه منهم وقريب الصِّلة بهم، ليس غريباً عنهم، فهم يعرفون أصله ونشأته، ويعلمون صفاته وأخلاقه، لذلك لمّا بُعِث النّبيّ ﷺ وبلّغ النّاس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب النّاس إليه، وهي السّيّدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دون أنْ تسمع منه آية واحدة، وكذلك الصِّدّيق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرهما من المؤمنين الأوائل، لماذا؟ لأنّهم بَنَوْا على تاريخه السّابق، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرّسالة، فعلموا أنّ الّذي لا يكذب على النّاس مستحيل أن يكذب على ربّ النّاس، والسّيّدة خديجة رضوان الله عليها تعدّ أوّل فقيهة، وأوّل عالمة أصول في الإسلام، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعاني، عندما جاءه الوحي، قالت له: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،

وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ"(١)، ولمّا علم الصِّدِّيق بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتّصديق، ولم يتردّد، ولمّا سُئل عن ذلك قال: إنّنا نصدّقه في الأمر يأتي من السّماء فكيف لا نصدّقه في هذه، فإنْ كان قال فقد صدق، هذه كلّها معانٍ نفهمها من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾، وهذا معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: من الآية ١٢٨]، فالّذي يُتعِب النّاس في استقبال الحقّ أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل، والحقّ لا يجتمع مع الباطل ولا يضمّهما محلٌّ واحد؛ لذلك إذا أردت أن تبحث في مسألة، فعليك أنْ تُخرِج من قلبك الباطل أوّلاً، ثمّ حَكِّم عقلك في الأمر، واستفتِ قلبك.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: هذه الكلمة جاءت على لسان الرّسل كلّهم أو يقولها الرّسول أوَّلَ ما يُبعث، ومعناها: اتّقوا الله.

﴿أَلَا﴾: أداة للحضِّ، والحثِّ على الفعل، كما تقول للولد المهمل: ألَا تُذاكر أو هَلَّا تُذاكر، وحين نحلّل أسلوب الحضِّ أو الحثِّ نجد أنّه يأتي على صورة التّعجّب من نفي الفعل، كما تقول للولد الّذي لا يصلّي وتريد أن تحثَّه على الصّلاة: ألَا تُصلّي؟! استفهام بالنّفي، وعندها يستحي الولد أن يقولها، لكن حين تستفهم بالإثبات: أتصلّي؟ يقولها بفخر: نعم، فمعنى الحثِّ: تعجُّب من ترك الفعل، وإنكار يحمل معنى الأمر.

فمعنى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: أُنكِر عليكم ألّا تكونوا متّقين، والمراد: أطلب منكم أن تكونوا متّقين.

---

(١) صحيح البخاريّ: بَابُ بَدْءِ الوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، الحديث رقم (٣).

(الآية ١٠٧) - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧﴾:

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: فإنْ كانت عندكم غفلة فقد رَحِم الله سُبحانهُ وتعالى غفلتكم، ونبّهكم برسول أمين يَعِظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله سُبحانهُ وتعالى، وهو أمين لن يغشّكم في شيء حتّى لا تقولوا: إنّا كنّا غافلين، وما دُمْت مرسلاً من الله سُبحانهُ وتعالى إليكم، وأميناً عليكم وعلى دعوتي، فاسمعوا منّي؛ لذلك كرّر الأمر بالتّقوى.

(الآية ١٠٨) - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨﴾:

وكأنّه يتصالح معهم، فيُخفّف من أسلوب النُّصْح، ويأتي بالأمر صريحاً بعد أن أتى به في صورة إنكار ألّا يكونوا متّقين، وثمرة التّقوى طاعة الأوامر واجتناب النّواهي، وهذه لا نعرفها إلّا من الرّسول حامل المنهج ومُبلّغ الدّعوة والأمين عليها، وقد تردّدتْ هذه الآية على ألسنة كثير من رسل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨﴾.

(الآية ١٠٩) - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩﴾:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: لم نسمع هذه العبارة على لسان إبراهيم عليه السلام، ولا على لسان موسى عليه السلام، فأوّل مَنْ قالها نوح عليه السلام، وكوْنك تقول لآخر: لا أسألك أَجْراً على هذا العمل، فهذا يعني أنّك تستحقّ أجراً على هذا العمل، وأنت غير زاهد في الأجر، إنّما إنْ أخذته من المنتفع بعملك، فسوف يُقوّمه لك بمقاييسه البشريّة؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من

الله ﷻ، فكأنّ نوحاً عليه السلام يقول: أنتم أيّها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم؛ لأنّني جئتكم بمنهج هداية يُسعِدكم في الدّنيا، ويُنجيكم في الآخرة، وأجري فيه على الله ﷻ؛ لأنّكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: (إنْ) هنا بمعنى: (ما) النّافية؛ لأنّه تعالى القادر على أن يُكافئني على دعوتي، فهو الّذي أرسلني بها، وهو سبحانه ربّ العالمين الّذي خلق الخَلْق من عَدم، وأمدّهم من عُدم، وخلق لي ولكم الأرزاق، وهذا كلّه لمصلحتكم؛ لأنّه جل جلاله لا ينتفع من هذا بشيء، والرّبوبيّة تقتضي عناية، وتقتضي نفقة وخلقاً وإمداداً، فصاحب هذه الأفضال والنّعم كلّها هو الّذي يُعطيني أجري.

(الآية ١١٠) - ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بعد أن بيَّن لهم كرم الرّبوبيّة في مسألة الأجر على الدّعوة، أعطاهم ما يشجّعهم على التّقوى والطّاعة؛ لأنّهم سينتفعون برسالة الرّسول دون أجر منهم.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: أي: ليست لي طاعة ذاتيّة، إنّما أطيعوني؛ لأنّي رسول من قِبَل الله ﷻ. ثمّ يقول الله ﷻ حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام:

(الآية ١١١) - ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾:

﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: جمع أرذل، وهو الرّديء من الشّيء، ورُذَال الفاكهة: المعطوب منها.

والاستفهام هنا للتّعجّب: كيف نؤمن لك ونحن السّادة، والمؤمنون بك هم الأرذلون؟! يقصدون الفقراء وأصحاب الحِرَف والّذين لا يُؤْبَه بهم، وهؤلاء عادة هم جنود الرّسالة؛ لأنّهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد، وطبيعيّ أن يتلقّفوا مَنْ يعدّل ميزان المجتمع، وفي آية أخرى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: من الآية ٢٧].

وقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان؛ لأنّه لم يقُلْ لهم: آمنوا بي، إنّما آمنوا بالله سبحانه وتعالى.

أو: أنّ المعنى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾؛ أي: نُصدِّقك، فمن معاني (آمن): صدَّق، كما في قوله جلّ جلاله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: من الآية ٨٣]؛ أي: صَدَّق به.

(الآية ١١٢-١١٣) - ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣﴾:

يعني: ما دام الحساب على ربّي وهم يريدون الإيمان، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً.

(الآية ١١٤) - ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾:

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلِسهم هم، وفي آية أخرى قال سبحانه وتعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام].

(الآية ١١٥) - ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾:

فمَنْ يسمع إنذاري، ويسمع بشارتي، ويأتي مجلسي، فسأرافقه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أرسلني لأخصّ الأغنياء دون الفقراء بمجلسي، إنّما أرسلني لأبلّغكم ما أُرسِلت به، فمن أطاعني فذلك السّعيد عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كان فقيراً.

(الآية ١١٦) - ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾:

وهكذا أعلنوا الحرب على نبيّ الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقولون: لا فائدةَ من تحذيرك، وما زِلْتَ مُصِرّاً على دعوتك.

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾: عمّا تدّعيه من الرّسالة، وما تقول به من تقوى الله وطاعته، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾: أي: إذا لم تنتهِ فسوف نرجمك، إنّه تهديد صريح لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الّذي جاءهم من عند الله عَزَّ وَجَلَّ يدعوهم إلى الخير في الدّنيا والآخرة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، وهذا التّهديد منهم لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدلُّ على أنّهم كانوا أقوياء، وأصحابَ جاه وبطْشٍ.

(الآية ١١٧) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾:

لنتأمّل هنا أدب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يشكو قومه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويرفع إليه ما حدث منهم، كلّ ما قاله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾، ولم يذكر شيئاً عن التّهديد له بالرّجم، وإعلان الحرب على دعوته، لماذا؟ لأنّ ما يهمّه في المقام الأوّل أن يُصدِّقه قومه، فهذا هو الأصل في دعوته.

(الآية ١١٨) - ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾:

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾: الفتح في الشّيء إمّا: حسّيّاً وإمّا معنويّاً، فمثلاً: الباب المغلَق بقُفْل نقول: نفتح الباب؛ أي: نُزيل أغلاقه، فإنْ كان الشّيء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة، ومن ذلك قوله ﷻ في قصّة يوسف: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [يوسف: من الآية ٦٥]؛ أي: أزالوا الرّباط عن متاعهم، هذا هو الفتح الحسّيّ، أمّا الفتح المعنويّ فنُزيل الأغلاق والأشكال المعنويّة ليأتي الخير وتأتي البركة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: من الآية ٩٦]، وفي آية أخرى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: من الآية ٢]، والخير الّذي يفتح الله ﷻ به على النّاس قد يكون خيراً مادّيّاً، وقد يكون عِلْماً، كما في قوله ﷻ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ٧٦]؛ أي: من العلم في التّوراة، يخافون أن يأخذه المؤمنون، ويجعلوه حجّة على أهل التّوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة، فمعنى: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ٧٦]؛ أي: بما علّمكم من علم لم يعلموه هم.

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم، مثل قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: من الآية ٨٩].

ويكون الفتح بمعنى النّصر، كما في قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النّصر].

﴿وَنَجِّنِي﴾: من كيدهم وما يُهدِّدونني به من الرَّجْم.

﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لأنّ الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه، وتأتي الإجابة سريعة:

(الآية ١١٩) - ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩﴾:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: وقد وردتْ قصّة السّفينة في الأعراف، وفي هود، ولنوح عليه السلام سورة خاصّة هي سورة نوح؛ ذلك لأنّ له في تاريخ الرّسالات ألف سنة إلّا خمسين عاماً، ويستحقّ أنْ يخصَّه الله سبحانه وتعالى بسورة باسمه، وفي موضع آخر ذكر الحقّ سبحانه وتعالى قصّة صُنْع السّفينة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: من الآية ٣٨]، وهذا دليل على أنّها كانت أوّل سفينة يصنعها الإنسان، وقد صنع نوح عليه السلام سفينته بأمر الله سبحانه وتعالى ووحيه وفي رعايته: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: من الآية ٣٧]، وما كان الله سبحانه وتعالى ليُكلّفه بصُنْع السّفينة ثمّ يتركه، إنّما تابعه، حتّى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية، كما قال سبحانه وتعالى لسيّدنا موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: من الآية ٣٩]، وبمثل هذه الآيات نردُّ على الّذين يقولون: إنّ الله سبحانه وتعالى زاول سلطانه في مُلْكه مرّة واحدة فخلق الخَلْق، ثمّ ترك القوانين تسيّره، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كلّه يسير بحركة ميكانيكيّة، لكنّ ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيّوميّته سبحانه وتعالى على خَلْقه، لذلك يقول لهم: ناموا ملء جفونكم، فإنّ لكم ربّاً لا ينام، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئنّاً اعتماداً على

أنّه يَقِظ؟ فكيف إذا حرسك ربُّك عَزَّ وَجَلَّ الّذي لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ؟ وألَا يدلُّ ذلك على قيّوميّته جَلَّ جَلَالُهُ؟ هذه القيّوميّة هي الّتي قالت للنّار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وقالت للماء: تجمَّد لتكون جبلاً، فيتجمّد وينفلق بعصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه هي القيّوميّة على قوانين الكون.

﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: الّذي امتلأ، ولم يَبْقَ به مكان خَالٍ، فكانت السّفينة مشحونة بما حمل فيها؛ لأنّها صُنِعَتْ بحساب دقيق، لا يتّسع إلّا لمن كُلِّف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بحملهم في سفينته، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة ومن كلّ حيوان زوجين اثنين.

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة، ويُطلَق ويراد به الجماعة، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: من الآية ٢٢].

(الآية ١٢٠) - ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾:

وهم الكافرون الّذين لم يركبوا معه.

﴿بَعۡدُ﴾: أي: بعد ما ركب من ركب، وبعد: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر].

(الآية ١٢١) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١﴾:

﴿لَأٓيَةٗ﴾: الآية: الأمر العجيب الّذي يجب الالتفات إليه والاعتبار به، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الّذين ركبوا السّفينة ومن سيأتي بعدهم حين يروْنَ نتيجة التّكذيب، ومصير المكذِّبين الكافرين.

(الآية ١٢٢) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾:

أي: ومع كُفْرهم وتكذيبهم، ومع أنّه ما كان أكثرهم مؤمنين، فالله تعالى هو العزيز الّذي يَغْلِب ولا يُغْلَب، وهو سبحانه وتعالى الرّحيم بعباده الّذي يتوب على مَنْ تاب منهم.

ثمّ ينتقل السّياق إلى قصّة أخرى في موكب الأمم المكذِّبة:

(الآية ١٢٣) - ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾:

وقال هنا أيضاً: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنّ تكذيب رسول واحد تكذيبٌ للرّسل كلّهم؛ لأنّهم جميعاً جاؤوا بقواعد وأصول واحدة في العقائد والأخلاق.

﴿عَادٌ﴾: اسم للقبيلة، وكانت القبائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها، ولصاحب الشّهرة والنّباهة بين قومه، فعاد هو أبو هذه القبيلة، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان، ثمّ يذكر لنا قصّتهم، ومتى كان منهم هذا التّكذيب:

(الآية ١٢٤) - ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾:

قلنا: إنّ ﴿أَلَا﴾ للحثِّ والحضِّ، وحين يُنكر النّفي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، فإنّه يريد الإثبات، فكأنّه قال: اتّقوا.

﴿أَخُوهُمۡ﴾: ليرقّق قلوبهم ويُحنِّنهم إليه، وليعرفوا أنّه واحد منهم ليس غريباً عنهم، فهو أخوهم، والأخ من دَأبه النُّصْح والشّفقة والرّحمة، وهذا إيناس للخَلْق.

(الآية ١٢٥-١٢٦) - ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣٦﴾:

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرّسُل في دعوتهم، سبق أنْ قالها نوح ؈، والآن يقولها هود ؈.

(الآية ١٢٧) - ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٧﴾:

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾: قلنا: إنّ هذه العبارة أوّل مَنْ قالها نوح ؈، ثمّ سيقولها الأنبياء من بعده.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: وليس أجري عليكم، مع أنّي أرشدكم وأهديكم إلى الجنّة، وسعادة الدّنيا والآخرة هي من خلال الرّسالة الّتي جئت بها. ثمّ يتوجّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصّة بهم:

(الآية ١٢٨) - ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨﴾:

وهذه خصوصيّة من خصوصيّات قوم هود.

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: الرِّيع: هو المكان المرتفع، لذلك بعض النّاس يقولون: كم رِيعاً بناؤك؟ يعني: كم متراً ارتفاعه؟ فكأنّ الارتفاع يُثمِّن البقعة، ويُطلق الرّيع على الارتفاع في كلّ شيء.

وكلمة: ﴿ءَايَةٗ﴾ بعد: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾ تعني: القصور العالية الّتي تعدّ آيةً في الإبداع وجمال العمارة والزّخرفة والفخامة والاتّساع والرِّفْعة في العُلُوّ.

﴿تَعۡبَثُونَ﴾: لأنّهم لن يخلُدوا في هذه القصور، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم، فعدّ هذا عبثاً منهم؛ لأنّ الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته.

أو قوله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾؛ لأنّهم كانوا يجلسون في شُرفات هذه القصور يصدُّون النّاس، ويصرفونهم عن هود ﷺ وسماع كلامه ودعوته الّتي تَلْفِتهم إلى منهج الحقّ ﷻ.

ونحن لم نَرَ حضارة عاد، ولم نَرَ آثارهم، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة في مصر؛ لأنّ حضارة عاد طمرتْها الرّمال، وكانوا بالجزيرة العربيّة في منطقة تُسمَّى الآن الرَّبْع الخالي؛ لأنّها منطقة من الرّمال النّاعمة الّتي يصعب السّير أو المعيشة بها، لكن لكي نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله ﷻ في سورة الفجر: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر]، وما دامت لم يُخلَق مثلها في البلاد، فهي أعظم من حضارة الفراعنة الّتي نشاهدها الآن بالآثار، ويفد إليها النّاس من أنحاء العالم كلّه ليشاهدوا الأهرام مثلاً، وقد بُنيت لتكون مجرّد مقابر، ومع تقدُّم العلم في عصر الحضارة والتّكنولوجيا، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء، لم يستطيعوا حتّى الآن معرفةَ الكثير من أسراره، ومن هذه الأسرار الّتي اهتدَوْا إليها حديثاً كيفيّة بناء أحجار الأهرام دون ملاط مع ضخامتها، وقد توصّلوا إلى أنّها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء ممّا بينها، وهذه النّظريّة تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً، ثمّ تتركه فترةً حتّى يتبخّر الماء من تحته، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة. وليس عجيباً أنْ تختفي حضارةٌ، كانت أعظم حضارات الدّنيا تحت طبقات الرّمال، فالرّمال حين تثور تبتلع كلّ ما أمامها، حتّى إنّها طمرتْ قبيلة كاملة بجِمالها ورجالها، وهذه هبّة واحدة، فما بالك بثورة الرّمال، وما تسفوه الرّيح طوال آلاف

السّنين؟ ولو أنّ هذه الرّمال نُبشت وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة، كما نرى الاكتشافات الأثريّة الآن كلّها تحت الأرض.

وما دام أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال عن عاد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾، فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانيَ مطمورة تحت هذه الرّمال.

(الآية ١٢٩) - ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾:

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: المصانع تُطلَق على موارد الماء، وتُطلَق على الحصون، لماذا؟ قالوا: لأنّ الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط؛ لأنّ الإيواء يمنع الإنسان من هوامّ الحياة العاديّة، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشّرسين الّذين يتربّصون به، فكأنّهم جعلوها صنعة مثمرة، لماذا؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: يعني: أتبنون هذه الحصون هذا البناء القويّ المسلّح تريدون الخلود؟ وهل أنتم مُخلَّدون في الحياة؟ إنّ فترة مُكْث الإنسان في الدّنيا يسيرة لا تحتاج كلّ هذا التّحصين، فهي كظلِّ شجرة، سرعان ما يزول، وقد قال نبيّنا ﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[(1)].

(الآية ١٣٠) - ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾: البَطْش: الأخْذُ بشدّة وعنف، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ [البروج]، ويقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ٤٢﴾ [القمر: من الآية ٤٢]؛ لأنّ الأَخْذ يأخذ صُوراً متعدّدة: تأخذه بلين وبعطف وشفقة، أو تأخذه بعنف. ثمّ يزيدهم صفة أخرى تؤكّد بَطْشهم:

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، باب ٣، الحديث رقم (٦٤١٦).

﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾: تأخذون أعداءكم بعنف وجبروت، لا ترحمون ذلّتهم، ولا ترقّ لهم قلوبكم.

وهذه الصّفات الثّلاث السّابقة لقوم هود:

١- ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾.

٢- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾.

٣- ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾.

تخدم صفة التّعالي، وتسعى إلى الوصول إليه، وكأنّهم يريدون صفة العُلُوّ الّتي تُقرّبهم من الألوهيّة؛ وفي صفة البَطش الشّديد والجبّاريّة يريدون التّفرُّد على غيرهم، ويقول الله سُبحانه وتعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص].

(الآية ١٣١) - ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾:

يكرّر دعوته بتقوى الله سُبحانه وتعالى، وطاعته الّتي هي الضّمان الوحيد لأيّ إنسان، وهذه هي رسالة المرسلين جميعاً.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: أنّ ربّكم عزّ وجلّ لم يترككم على ما أنتم عليه من الضّلال تعبثون بالآيات، وتتّخذون مصانع تطلبون الخلود، وأنّكم بطشتم جبّارين، فها هو يدعوكم لتتّقوه، فتقوى الله سُبحانه وتعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم، بل وتُبدِّله خيراً وصلاحاً، قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: من الآية ١١٤]، فهو حين يوصيهم بتقوى الله سُبحانه وتعالى وطاعته، لا يوصيهم بهذا لمصلحته، بل لمصلحتهم، كذلك فإنّ الحقّ سُبحانه وتعالى غنيّ عنهم وعن طاعتهم؛ لأنّ له صفات الكمال المطلق.

(الآية ١٣٢) - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢﴾:

لم تعدّد الآية ما أمدّنا الله ﷻ به، وتركتْ لنا أن نُعدِّده؛ لأنّنا نعرفه جيّداً، وندركه بحواسِّنا ومداركنا كلّها، فما من آلة عندنا إلّا وتحت إدراكها نعمة لله ﷻ، بل عدّة نِعَم، فالعين ترى المناظر، والأذن تسمع الأصوات، والأنف يشمّ الرّوائح، واليد تبطش.. إلخ.

﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾: فقولوا أنتم، واشهدوا على أنفسكم، وعَدِّدوا نِعَم ربّكم عليكم.

(الآية ١٣٣) - ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣﴾:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾: المراد بالأنعام: الضّأن والماعز والإبل والبقر.

(الآية ١٣٤) - ﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾:

فإنْ قلت: نحن نمرُّ بديارهم، فلا نرى إلّا خلاءً تسْفُو فيه الرّياح، نقول: لقد كانت لهم جنّات وعيون هي الآن تحت أطباق التّراب: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ۝٩٨﴾ [مريم: من الآية ٩٨].

(الآية ١٣٥) - ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣٥﴾:

أي: إنّ تقوى الله ﷻ وطاعته لا تُعَدُّ شكراً على نِعَمِه فحسب، إنّما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة، فلا تظنّوا أنّكم أخذتُم نِعَم الله ﷻ، ثمّ بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه، فلقاؤه حقّ لا مفرَّ منه ولا مهرب، فماذا كان ردّهم على مقالة نبيّهم ؑ وموعظته لهم؟

(الآية ١٣٦) - ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾:

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ﴾: وقولهم: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ دليل على أنّ الحقّ لا بُدَّ أن يظهر، ولو على ألسنة المكابرين، ولا يكون الوعظ إلّا لمَنْ علم حكماً ثمّ تركه، فيأتي الواعظ ليُذكِّره به، فهو مرحلة ثانية بعد التّعليم، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنّهم علموا المطلوب منهم، ثمّ غفلوا عنه.

وهؤلاء يقولون لنبيّهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، يعني: أرح نفسك، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظِك، ونلحظ أنّهم قالوا: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، ولم يقولوا مثلاً: سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ؛ لأنّ نفي الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه، إنّما: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، يعني: امتنع منك الوعظ نهائيّاً، وكأنّهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً، حتّى في المستقبل.

(الآية ١٣٧) - ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾:

﴿إِنۡ﴾: بمعنى (ما) النّافية، يعني: ما هذا الّذي جئتَ به إلّا:

﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: يعني: عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم، يقصدون الرّسل السّابقين، كما قالوا: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [النّمل]، وقالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ [يس: من الآية ١٥]، فوصفوا نبيّهم، ومَنْ سبقوه من الرّسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شيء لم يكن موجوداً، فقولهم: ﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، يعني: دعوى ادّعوْها جميعاً؛ أي: الرّسل الكرام.

وفي قراءة أخرى تُوجّه للمرَسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللّام (خَلْق)؛ أي: اختلاق، والمعنى: نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣].

والخُلُق: صفة ترسخ في النّفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة.

(الآية ١٣٨) - ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾:

ينكرون العذاب والآخرة، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: من الآية ٢٤]، فهذه الصّفة أصبحت عندهم ثابتة متأصِّلة في النّفس، يقولونها صريحة ردّاً على قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾.

(الآية ١٣٩) - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾: كانت السّماء قبل النّبيّ محمّد ﷺ تجعل الرّسول يُدلِي بمعجزته، أو يقول منهجه، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له، إنّما تتولّى السّماء عنه هذه المهمّة فتُوقِع بالمكذّبين عذابَ الاستئصال، وقد أُمِّنَتْ أمّة مُحمَّد ﷺ من عذاب الاستئصال، فمَنْ كفر برسالة مُحمَّد ﷺ لا يأخذه الله سبحانه وتعالى كما أخذ المكذِّبين من الأمم السّابقة.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾: كلمة صادقة، لها دليل في الوجود نراه شاخصاً، كما يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ [الفجر]، وقال جل جلاله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النّمل: من الآية ٥٢]؛ أي: أنّها شاخصة أمامكم تروْنها وتمرُّون عليها، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أَخْذ الله العزيز المقتدر، فينبغي عليكم أنْ تتنبّهوا إلى أنّكم أضعف منهم، وأنّ ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذِّبين

ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم الأخرى، لذلك نجد الحضارات الّتي تُتوَارث في الكون آلتْ إلى زوال، ولم نجد منها حضارة بقيتْ من البداية إلى النّهاية، ولو بُنِيَتْ هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضدّ الزّوال.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: أي: في إهلاك هذه الحضارة لأمر عظيم، يُلفِت الأنظار، ويدعو للتّأمّل: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(الآية ١٤٠) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: قال: ﴿رَبَّكَ﴾، ولم يقُلْ: ربّهم؛ لأنّ منزلة المربِّي تعظم في التّربية بمقدار كمال المربَّى، فكأنّه ﷻ يقول: أنا ربُّك الّذي أكملت تربيتك على أحسن حال.

﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: العزيز: قلنا: هو الّذي يَغْلِب ولا يُغْلَب، لكن لا تظنّ أنّ في هذه الصّفة جبروتاً؛ لأنّه ﷻ أيضاً رحيم، ومن عظمة الأسلوب القرآنيّ أن يجمع بين هاتين الصّفتين: عزيز ورحيم، وكأنّه يشير لنا إلى مبدأ إسلاميّ يُربِّي الإسلام عليه أتباعه، ألَا وهو الاعتدال، فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق، والزم الوسط؛ لأنّ كلّ طبْع في الإنسان له مهمّة، ولنتأمّل قول الله ﷻ في صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، فالمسلم ليس مجبولاً على الذّلّة ولا على العزّة، إنّما الموقف هو الّذي يجعله ذليلاً، أو يجعله عزيزاً، فالمؤمن يتّصف بالذّلّة أمام أبيه وأمّه وأمام المؤمنين والضّعفاء، ويتّصف بالعزّة أمام المعاندين.

(الآية ١٤١) - ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١﴾:

بعد أن ذكر طرفاً من قصّة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السّلام ذكر قصّة ثمود قوم صالح عليه السلام، وقد تكرّرتْ هذه اللّقطات في عدّة مواضع من كتاب الله عز وجل؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم في علاجه لا يعالج أمّةً واحدة في بيئة واحدة بخُلُق واحد، إنّما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الأدواء ومختلف المواهب والميول، فلا بُدَّ أن يجمع الله سبحانه وتعالى له الرّسل كلّهم، ليأخذ من كلّ واحد منهم لقطة؛ لأنّه سيكون منهجاً للنّاس جميعاً في كُلِّ زمان ومكان، أمّا هؤلاء الرّسل الّذين جمعهم الله سبحانه وتعالى في سياق واحد فلم يكونوا للنّاس كافّة، إنّما كلّ واحد منهم لأمّة بعينها، في زمن مخصوص، ومكان مخصوص، إلّا النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم جمع الله سبحانه وتعالى له الدّنيا كلّها على نظام واحد، وخلق واحد، ومنهج واحد، مع تباين بيئاتهم، وتباين أدوائهم ومواهبهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: من الآية ٢٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقد انتقل السّياق القرآنيّ هنا إلى النّبيّ صالح عليه السلام:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: لأنّ الرّسل جميعاً إنّما جاؤوا بعقيدة واحدة، فعندما كذّبوا صالحاً عليه السلام، فقد كذّبوا المرسلين كلّهم، فالمرسلون صدروا من مصدر واحد، هو الحقّ سبحانه وتعالى، ولا يختلف الرّسل إلّا في المسائل الاجتماعيّة والبيئيّة الّتي تناسب كلاًّ منهم، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النّساء]، وقال جل جلاله: ﴿۞شَرَعَ

﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣].

(الآية ١٤٢) - ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢﴾:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ﴾: قال هنا أيضاً: ﴿أَخُوهُمۡ﴾؛ ليرقّق قلوبهم ويُحنّنها على نبيّهم.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: استفهام إنكاريّ، تعني: اتّقوا الله، ففيها حَثٌّ وحَضّ على التّقوى، فحين تُنكر النّفي، فإنّك تريد الإثبات، ولمّا كانت التّقوى تقتضي وجود منهج نتّقي الله سبحانه وتعالى به، قال:

(الآية ١٤٣) - ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣﴾:

وما دُمْتُ أنا رسول أمين لن أغشّكم.

(الآية ١٤٤) - ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤﴾:

كرّر الأمر بالتّقوى مرّة أخرى، وقرنها بالطّاعة.

(الآية ١٤٥) - ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥﴾:

فكأنّ العمل الّذي أقدّمه من أجلكم -في عُرْف العقلاء- يستحقّ أجراً، لكنّي لا أطلب الأجر؛ لأنّ الأجر من الله عز وجل، فأنا سأقدّم لكم سعادة الدّارين الدّنيا والآخرة.

(الآية ١٤٦) - ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦﴾:

يريد أن يُوبِّخهم: أتظنّون أنّكم ستخلّدون في هذا النّعيم، وأنتم آمنون، أو أنّكم تأخذون نِعَم الله سبحانه وتعالى، ثمّ تفرّون من حسابه، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون]، فمَنْ ظنّ ذلك فهو مخطىء قاصر الفهم؛ لأنّ الأشياء الّتي تخدمك في الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها، فأنت لا تقدر على الشّمس فتأمرها أنْ تشرق كلّ يوم، ولا تقدر على السّحاب أن يُنزِل المطر، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت، ولا تقدر على الهواء الّذي تتنفّسه.. إلخ، وهذه من مُقوِّمات حياتك الّتي لا تستطيع البقاء دونها، وكان من الواجب عليك أن تتأمّل وتفكّر: مَن الّذي سخرَّها لك؟

(الآية ١٤٧) - ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧﴾:

وقوله هنا: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ امتداد للآية السّابقة، يعني: لا تظنّوا أنّ هذا يدوم لكم.

﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع جنّة، وهي المكان المليء بالخيرات، وكلّ ما يحتاجه الإنسان، أو هي المكان الّذي إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار.

﴿وَعُيُونٍ﴾: الماء؛ لأنّ الجنّة تحتاج دائماً إلى الماء، فقال: ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ ليضمن بقاءها.

(الآية ١٤٨) - ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨﴾:

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾: النّخل من الزّروع، لكن خصّه بالذِّكْر، ورسول الله ﷺ اهتمّ به، وشبَّهه بالمؤمن في الحديث: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ**»، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ بن عمر: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ،

ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»[1]، فلو تأمّلنا النّخلة لوجدنا أنّ كلّ شيء فيها نافع، وله مهمّة، وينتفع الزّارع به، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً، فالجذوع تُصنع منها السّواري والأعمدة، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة، ومن الجريد يصنعون الأقفاص، ومن اللّيف يصنعون الحبال، ويجعلونه في تنجيد الكراسي وغيرها، حتّى الأشواك الّتي تراها في جريد النّخل خلقها الله ﷻ لحكمة وبقدَرٍ؛ لأنّها تحمي النّخلة من الفئران أثناء إثمارها، واللّيف الّذي ينمو بين أصول الجريد جعله الله ﷻ حماية للنّخلة، وهي في طور النّمو، وما تزال غَضَّة طريّة، فهي شجرة خيّرة كالمؤمن، وقد تمّ أخيراً في أحد البحوث أن أخذوا الجزء الّذي يُسَمّى بالقحف، وجعلوه في تربة مناسبة، فأنبتوا منه نخلة جديدة، والّذين يزرعون النّخيل يروْنَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله ﷻ.

﴿طَلۡعُهَا﴾: الطَّلْع: هو الكوز الّذي تخرج منه الشّماريخ في الأُنْثى، ويخرج منه المادّة المخصّبة في الذّكر، والّتي قال الله ﷻ عنها: ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٩]، وفي الذَّكر يخرج من الكوز المادّة المخصِّبة للنّخلة، وللقِنْوان أو الشّماريخ أطوار في النّمو يُسمُّونه: (الخلا)، فيظلّ ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَدّاً، حيث يجمد على هذه الحالة، ويكتمل نموّه الحجميّ، ثمّ تبدأ مرحلة اللّون، فكلّ ما في النّخلة هو خير، ومنها التّمر أيضاً، ونحن نعلم أهمّيّته وأنّ النّبيّ ﷺ كان يفطر عليه، ونحن نفعل ذلك تأسّياً به ﷺ.

﴿هَضِيمٞ﴾: غَضٌّ ورَطْب طريٌّ.

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ ٤، الحديث رقم (٦١).

(الآية ١٤٩) - ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾:

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾: حين نذهب إلى مدائن صالح نجد البيوت منحوتة في الجبال، وليست مبنيّة كما نبني بيوتنا.

﴿فَٰرِهِينَ﴾: الفاره: النّشط القويّ ظاهر الموهبة، يقولون: فلان فاره في كذا يعني: ماهر فيه، نشط في ممارسته.

(الآية ١٥٠-١٥١) - ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١﴾:

المسرف: هو الّذي يتجاوز الحدّ، وتجاوز الحدِ له مراحل؛ لأنّ الله ﷻ أحلَّ أشياء، وحرّم أشياء، وجعل لكلّ منهما حدوداً مرسومة، فالسَّرَف فيما شرع الله ﷻ أن تتجاوز الحلال، فتُدخل فيه الحرام، أو: يأتي الإسراف في الكَسْب فيدخل في كَسْبه الحرام.

ونقف عند قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، حيث لم يقل: ولا تسرفوا، وكأنّ ربّنا ﷻ يريد أن يُوقِظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الّذين يُزيّنون لنا الإسراف في أمور حياتنا، ويُهوِّنون علينا الحرام، يقولون: لا بأس في هذا، ولا مانع من هذا، فربّنا ﷻ يعطينا المناعة اللّازمة ضدّ هؤلاء حتّى لا ننساق لضلالاتهم، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**»(١)، وفي هذا دليل على أنّه سيأتي أناس يُفتون بغير علم، ويُزيّنون

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ، حَدِيثُ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ، الحديث رقم (١٨٠٠٦).

للنّاس الباطل، ويُقنعونهم به، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ليس فقط ألّا تكونوا أنتم مفسدين، بل ابتعدوا عن كلّ مَن يحاول أن يلعب بعقولكم.

(الآية ١٥٢) - ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وصف المسرفين أنّهم مفسدون في الأرض غير مصلحين، كأنّ الأرض خلقها الخالق عزّ وجلّ على هيئة الصّلاح في كلّ شيء، لكن يفسدها الإنسان بتدخّله في أمورها، فهؤلاء هم الّذين يُفسدون في الأرض من خلال المنهج الّذي يسيرون عليه في الإسراف وتجاوز الحدّ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة]، فبعض النّاس يفسدون ويقولون: نحن نصلح، وهم عكس ذلك، وفي هؤلاء قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف].

(الآية ١٥٣) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾:

﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾: جمع مُسحَّر، وهي صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السّحر عليه أكثر من مرّة، نقول: مسحور، يعني: مرّة واحدة، ومُسَحَّر، يعني عدّة مرّات، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى عن ملأ فرعون: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ [الشّعراء]، ولم يقل: بكلّ ساحر، إنّما ﴿سَحَّارٍ﴾، يعني: هذه مهنته، وكما تقول: تاجر ونجّار، وخائط وخيّاط، وإنْ كان بعضهم قال عن نبيّهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: من الآية ٤٧]، فهؤلاء يقولون لنبيّهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾.

(الآية ١٥٤) - ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٥٤﴾:

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: فوجه اعتراضهم أن يكون النّبيّ بَشَراً، كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء].

﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: المعنى: ما دام أنّ الرّسول بشر، لا يمتاز علينا بشيء فنريد منه أنْ يأتينا بآية، يعني: معجزة تُثبِت لنا صِدْقه في البلاغ عن ربّه ﷷ.

(الآية ١٥٥) - ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾:

هذا إجابة لهم؛ لأنّهم طلبوا من نبيّهم أنْ يُخرِج لهم من الصّخرة ناقة تلد ولداً لا يكون صغيراً كولد النّاقة، إنّما في حجمها نفسه، فأجابهم:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ﴾: يعني: يوم تشرب فيه، لا يشاركها في شُرْبها شيء من مواشيكم.

﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾: أي: تشربون فيه أنتم، وكانت النّاقة تشرب من الماءِ في يومها ما تشربه مواشيهم كلّها في يومهم، وهذه معجزة في حَدِّ ذاتها.

(الآية ١٥٦) - ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾:

يخبر الحقّ ﷻ رسوله بما سيكون، وأنّ القوم لن يتركوا هذه الآية، إنّما سيتعرّضون لها بالإيذاء، فقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، لكنّهم تعدَّوْا الإيذاء والإساءة فعقروها.

ثمّ يتوعّدهم: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

(الآية ١٥٧) - ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾:

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: قال: (عقروها) بصيغة الجمع، فهل اشتركتْ القبيلة كلّها في عَقْرها؟ الجواب: لا، بل عقرها واحد منهم، هو قدار بن سالف، لكن وافقه الجميع على ذلك، وساعدوه، وارتضوا هذا الفعل، فكأنّهم فعلوا جميعاً؛ لأنّه استشارهم فوافقوا.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾: قال العلماء: النّدم مقدّمة التّوبة.

(الآية ١٥٨) - ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٥٨﴾:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فإنْ قُلْتَ: كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا، والنّدم من مقدّمات التّوبة؟ نقول: النّدم من مقدّمات التّوبة، لكنّ توبة هؤلاء من التّوبة الّتي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النّساء: من الآية ١٨]، فندموا وتابوا في غير أوان التّوبة، أو: أنّهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذّنب، إنّما نادمون؛ لأنّهم يخافون العذاب الّذي هدّدهم الله ﷻ به، إنْ فعلوا.

ثمّ تُختم هذه القصّة بهذا التّذييل الّذي عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة:

(الآية ١٥٩) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾:

عزيز: يَغلِب ولا يُغْلَب، ومع ذلك هو رحيم في غَلَبه.

ثمّ ينتقل الحقّ ﷻ إلى قصّة أخرى من مواكب الأنبياء والرّسل:

(الآية ١٦٠-١٦١) - ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١﴾:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ﴾: قال هنا أيضاً: ﴿أَخُوهُمۡ﴾؛ لأنّه منهم ليس غريباً عنهم، وليُحنّن قلوبهم عليه.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: إنكار لعدم التّقوى، وإنكار النّفي يطلب الإثبات، فكأنّه قال: اتّقوا الله.

(الآية ١٦٢-١٦٣-١٦٤) - ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾:

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السّابقون من الرّسل؛ لأنّهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد.

ثمّ يخصُّ الحقّ سبحانه وتعالى قوم لوط لما اشتُهروا به، وكان سبباً في إهلاكهم.

(الآية ١٦٥) - ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾:

فكأنّها مسألة وخصلة تفرّدوا بها دون العالم كلّه؛ لذلك قال في موضع آخر: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: من الآية ٨٠]؛ أي: أنّ هذه المسألة لم تحدث من قبل؛ لأنّها عمليّة مستقذرة، فهي قلب للفطرة، فالطّبيعيّ اجتماع الرّجل مع المرأة بالحلال، وليس رجل مع رجل أو امرأة مع امرأة.

(الآية ١٦٦) - ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾:

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾: ما هذه الفِعْلة النّكراء؟! فقد خلق

الله ﷻ لكم من أزواجكم من النّساء، فهذه الغريزة يجب أن توضع في محلّها، ولا تُنقل إلى غيرها.

أو: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾؛ أي: أنّهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النّساء في غير محلِّ الاستنبات، فقوله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٣]، بعضهم يظنّها على عمومها، وأنّ قوله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٣]، يعطيهم الحرّيّة في هذه المسألة، إنّما الآية محدّدة بمكان الحَرْث واستنبات الولد، لذلك قال بعدها:

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: والعادي هو الّذي يتجاوز ما شُرِع له إلى شيء آخر حرَّمه الشّرع.

(الآية ١٦٧) - ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾: أي: إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العمليّة.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾: كما قالوا في آية أخرى: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النّمل: من الآية ٥٦]؛ أي: لا مكان لهم بيننا، لكن لماذا؟ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النّمل: من الآية ٥٦]، سبحان الله، جريمتهم أنّهم يتطهّرون، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل.

(الآية ١٦٨) - ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

وفرْقٌ بين كوني لا أعمل العمل، وكوْني أكره مَنْ يعمله، فالمعنى: أنا لا أعمل هذا العمل، إنّما أيضاً أكره مَنْ يعمله، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم.

(الآية ١٦٩-١٧٠) - ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلّا أنْ يدعو ربَّه بالنّجاة له ولأهله، فأجابه الله سبحانه وتعالى:

(الآية ١٧١) - ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾: والمراد: امرأته الّتي قال الله جلّ جلاله في حقّها: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التّحريم: من الآية ١٠]، فجعلها الله عزّ وجلّ مثالاً للكفر والعياذ بالله؛ لأنّها كانت تشجّع على هذه الفاحشة؛ لذلك لم تكُنْ من النّاجين، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام.

﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾: يعني: الهالكين.

(الآية ١٧٢) - ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾:

﴿الْآخَرِينَ﴾: أي: الّذين لم يؤمنوا بدعوته، ولم ينتهوا عن هذه الفاحشة، ثمّ بيَّن نوعيّة هذا التّدمير، فقال:

(الآية ١٧٣) - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: ولمّا كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرّحمة، حيث ينزل الماءُ من السّماء، فيُحيي الأرض بعد موتها، وصفه الله سبحانه وتعالى بأنّه:

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾: فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة، إنّما مطر عذاب ونقمة، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ

﴿مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤- من الآية٢٥]، وهذا يُسمُّونه: (يأس بعد إطماع)، وهو أبلغ في العذاب والإيلام، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشرّ، وفي لقطة أخرى بيَّن ماهيّة هذا المطر، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود]، فالحجارة من: ﴿سِجِّيلٖ﴾ [هود: من الآية ٨٢]؛ أي: طين حُرِق حتّى تحجَّر، وهي: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود: من الآية ٨٣]، يعني: مُعلَّمة بأسماء أصحابها، تنزل عليهم بانتظام، كلّ حجر منها على صاحبه.

وبجمع اللّقطات المتفرّقة تتبيّن معالم القصّة كاملة.

(الآية ١٧٤-١٧٥) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾:

وتُختم القصّة بالآيات نفسها الّتي خُتِمتْ بها القصص السّابقة من قصص المكذِّبين المعاندين.

ثمّ ينقلنا الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى قوم آخرين كذّبوا رسولهم شعيباً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

(الآية ١٧٦) - ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾:

﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾: هي المكان الخِصْب الّذي بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره، وتتشابك أغصانها.

وقال هنا أيضاً: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مع أنّهم ما كذَّبوا إلّا رسولهم؛ لأنّ تكذيب رسول واحد كتكذيب الرّسل كُلِّهم؛ لأنّهم جميعاً جاؤوا بمنهج واحد في العقيدة والأخلاق.

(الآية ١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠) - ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾:

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا، ممّا يدلّ على دِقَّة الأداء القرآنيّ، فلم يقل: أخوهم شعيب، كما قال في نوح وهود وصالح ولوط عليهم السّلام؛ ذلك لأنّ شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة، إنّما كان غريباً عنهم.

وباقي الآيات متّفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرّسل؛ لأنّ الوحدة في المنهج العقديّ أنتجتْ الوحدة في علاج المنهج؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند الرّسل كلّهم الّذين سبق ذكرهم، ثمّ يأخذ في تفصيل الأمر الخاصّ بهم؛ لأنّ كل أمّة من الأمم الّتي جاءها رسول من عند الله سبحانه وتعالى إنّما جاء ليعالج داءً خاصّاً تفشَّى بها، وكانت الأمم من قبل منعزلةً بعضها عن بعض، ولا يوجد بينها وسائل اتّصال تنقل هذه الأدواء من أمّة لأخرى، فهؤلاء قوم عاد، كان داءهم التّفاخُرُ بالبناء والتّعالي على النّاس، فجاء هود عليه السلام ليقول لهم: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ [الشّعراء]، وثمود كانت الغفلةُ والانصراف بالنّعمة عن المُنْعم داءهم، فجاء صالح عليه السلام يقول لهم: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشّعراء]، أمّا قوم لوط عليه السلام فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وهي إتيان الذّكْران، فجاء لوط عليه السلام ليمنعهم ويدعوهم إلى التّوبة والإقلاع: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾

[الشّعراء]، أمّا أصحاب الأيكة، فَداؤهم أنْ يُطفِّفوا المكيال والميزان، فجاء شعيب عليه السلام ليقول لهم:

(الآية ١٨١-١٨٢) - ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾:

﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾: الكيل: آلة تُقدّر بها الأشياء الّتي تُكال، ووحدته: كَيْلة أو قَدح أو أردب، والميزان كذلك: آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾: المخسِر: هو الّذي يتسبّب في خسارة الطّرف الآخر في مسألة الكيل، بأن يأخذ بالزّيادة، وإنْ أعطى يُعطِي بالنّقصان، وفي الوزن قال:

﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾: القسطاس: يعني العدل المطلق في قدرة البشر وإمكاناتهم في تحرّي الدّقّة في الوزن، مع مراعاة اختلاف الموزونات، فوزن الذّهب غير وزن التّفاح مثلاً، غير وزن العدس أو السّمسم، فعليك أنْ تتحرّى الدّقّة قَدْر إمكانك، لتحقّق هذا القسطاس المستقيم.

لكن، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التّقدير والتّقييم، ولم يذكر مثلاً القياس في المساحات والمسافات بالمتر أو بالذّراع؟ الجواب: لأنّ النّاس قديماً -وكانت أمماً بدائيّة- لا تتعامل فيما يُقاس، فلا يشترون القماش مثلاً؛ لأنّه يُغزل، تغزله النّساء ويغزله الرّجال، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له، فهذه صورة حضاريّة رأيناها فيما بعد، وقديماً، كان النّاس يتعاملون بالتّبادل والمقايضة، وفي هذه الحالة لا يوجد بائع على حِدَة ولا مُشْترٍ على حِدَة، فلا

يتفرّد البائع بالبيع، والمشتري بالشّراء، إلّا في حالة مبادلة السّلعة بثمن، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: من الآية ٢٠]؛ أي: باعوه، أمّا في حالة المقايضة، فأنت تأخذ القمح تأكله، وأنا آخذ التّمر آكله، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسّلعة، فإنْ قدَّرْتَ أنّ كلّ واحد في الصّفقة بائع ومشترٍ، تقول: شَرَى وباع، وإنْ قدَّرْت الأثمان الّتي لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذّهب والفضّة، أو أيّ معدن آخر، وهذه الأشياء لا تؤكل فهي ثمن، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة، وصالحة أنْ تكون ثمناً.

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هي سورة المطفّفين، يقول سُبحانه وتعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطفّفين].

(الآية ١٨٣) - ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾:

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾: البخس: النّقص.

﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾: حقوقهم.

فالنّقص من حَقِ الغير ذنب، وقد يكون البخس بأخْذ الشّيء كلّه غَصْباً، أو بالتّصرّف فيه دون أمر صاحبه، أو على وجه لا يرضاه، وهذا كلّه داخل في قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، فكلّ ما ينقص الحقّ بأخذه بإنقاص، أو غَصْب، أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشّيء، فكلّ ما ثبت أنّه حقّ لغيرك إيّاك أنْ تعتدي عليه، فالزكاة مثلاً حينما يقول

ربّنا عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج]، فما دام قد قيَّده الشّرع، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير؛ لأنّك حين تتأمّل هذا الحقّ المعلوم الّذي جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مالك للفقير، تجد أنّه وُضِع بحكمة تُراعِي مدى حركة المموِّل، وما بذل من جهد ونفقات في سبيل تنمية ماله، حتّى وجبتْ فيه الزكاة، فكلّما زادتْ حركته قَلَّ مقدار الزكاة في ماله، فمثلاً الأرض الّتي تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر، والّتي تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر، وفي عروض التّجارة يحتاج إلى حركة أكثر، قال: رُبْع العُشْر؛ ذلك لأنّ الشّارع الحكيم يريد للنّاس الحركة والسّعي وتثمير الأموال، حتّى لا يأتي مَنْ يقول: كيف أسعى ويأخذ غيري ثمرة سعيي؟ والشّارع الحكيم حين كفل هذا الحقّ للفقراء، فإنّما يحمي به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء، وقد حدَّد الشّارع هذا الحقّ، حتّى لا نزهد في العطاء، خاصّة في الزكاة.

إنّ منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء، يريد ألّا يجري دم في جسد إلّا بخروج عَرَق من هذا الجسد، وألّا يدخل دم في جسد من عرق سواه، وإلّا فسد المجتمع، وضَنَّ كلّ قادر على الحركة بحركته؛ لأنّه لا يطمئنّ إلى ثمار حركته أنّها لا تعود عليه، أو أنّ غيره سيغتصبها منه بأيِّ لون من ألوان الاغتصاب، عندها يفسد المجتمع؛ لأنّ القويّ القادر سيزهد في الحركة فيقعد، ويسرق الأموال ويرتشي، والآخذ سيتعوَّد البطالة والكسل والخمول، ولماذا يعمل وما يجري في عروقه من دماء من عمل غيره، فهنا تختلّ الموازين، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أن يُطمئِن كلّ إنسان على حركته في الحياة وثمرة سَعْيه.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: الإسلام جاء للصّلاح والإصلاح، لكن هناك أناس كما وصفهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة].

عثا: أي: أفسد، فالمعنى: لا تُفسِدوا في الأرض، فلماذا كرَّر الإفساد مرّة أخرى، فقال: ﴿مُفْسِدِينَ﴾؟ قالوا: المراد: لا تعثَوْا في الأرض حالةَ كونِكم مفسدين، أو في نيّتكم الإفساد، ولا يوجد في الآية تكرار؛ لأنّه فرَّق بين إفساد شيء من غير قصد إفساده، إنّما لحركة في الحياة أفسدتْه، وبين أنْ يفسد عن قصد وعَمْد للإفساد، حتّى لا نمنع العقول أن تفكّر وتُجرِّبَ لتصلَ إلى الأفضل، وتُثري حركة الحياة، فما دام الإنسان قد قصد الصّلاح، فليس عليه إنْ أخطأ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يتولّى تصحيح هذا الخطأ، بل ويُعوِّضه عنه، فمَنِ اجتهد فأخطأ فله أجر، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران، فالمعنى: لا تُفسِدوا في الأرض وأنتم تقصدون الإفساد، لكن كيف نُفسِد الأرض؟ الجواب: إنّ إفساد الأرض يعني إفسادَ المتحرّك عليها؛ لأنّ الأرض خُلقَتْ للإنسان: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرّحمن]، وقد خلقها الله سبحانه وتعالى على هيئة الصّلاح، والإنسان هو الّذي يُفسِدها، بدليل أنّك لا تجد الفساد إلّا فيما للإنسان دَخْل فيه، أمّا مَا لا تطوله يده، فيظلّ على صلاحه، وعلى استقامته وسلامته، والإنسان الّذي خلقه الله سبحانه وتعالى وجعله خليفة له في أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها، تحقيقاً لقول ربّه عزّ وجلّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: من الآية ٦١]، ولا يصلح أن نستعمر الأرض

وهي خراب، فنحن أُمرنا بالصّلاح والإصلاح وعمارة الأرض، فحركة الإنسان في الحياة هي الّتي تبيّن مدى التزام هذا الإنسان بالمنهج القويم، والصّراط المستقيم، المطلوب لعدم الفساد والإفساد في المجتمعات.

(الآية ١٨٤) - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٨٤﴾:

فإيّاك أن تظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى خلقنا عبثاً، أو يتركنا هملاً، إنّما خلقنا لمهمّة في الكون، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنّسبة إليه سواء، فلم يُحَابِ أحداً على أحد، وليس عنده سبحانه وتعالى مراكز قوى؛ لذلك لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، ولأنّنا جميعاً أمامه سبحانه وتعالى سواء وهو خالقنا، فقد تكفّل لنا بالرّزق ورعاية المصالح، فَمنِ ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالعجز عن الحركة يتحرّكْ النّاس لقضاء مصالحه، فالمعوَّق والفقير والمسكين واليتيم ضمن الله سبحانه وتعالى لهم حقوقهم من خلال الزكاة والصّدقات والإحسان وفعل الخير والإنفاق الّذي بيّنه الله سبحانه وتعالى، أمّا إنْ ضَنَّ الغنيُّ الواجد على الفقير المعدَم، وتخلّى عن أهل البلاء، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغنيّ، وهنا تحدث المشكلة، فلا يرتاح الفقير ولا الغنيّ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: أي: احذروا جبروته؛ لأنّه خلقكم، وضمن لكم الأرزاق، وضمن لكم قضاء الحاجات، حتّى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر، وجعل للغنيّ شرطاً في إيمانه وهو أنْ يُعطي الفقير.

﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: الجبِلّة: من الجبَل، وكان له دور في حياة العربيّ، وعليه تدور كثير من تعبيراتهم، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرّسوخ والثّبات، فاشتقّوا من الجبل: (الجبلّة)، وتعني الملازمة والثّبات على الشّيء،

ومن ذلك نقول: فلان مجبول على الخير، يعني: ملازم له لا يفارقه، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث، والعامّة تقول: فلان جِبلّة، يعني: ثقيل على النّفس، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: من الآية ٦٢].

ومعنى: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: النّاس السّابقين الّذين جُبِلوا على العناد وتكذيب الرُّسُل، فالله ﷻ خلقكم وخلقهم، وقد رأيتم ما فعل الله ﷻ بهم لمّا كذَّبوا رسُله، لقد كتب ﷻ النّصر لرسله والهزيمة لمن كذّبهم، فهؤلاء الّذين سبقوكم من الأمم جُبِلوا على التّكذيب، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عنه شيء، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم، فماذا كان ردّهم؟

(الآية ١٨٥) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾:

﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: مُسحَّر: أي: سحَره غيره، وهي صيغة مبالغة للدّلالة على حدوث السّحر ووقوعه عليه أكثر من مرّة، والمعنى: أنّك مختَلُّ العقل والتّفكير، مجنون، لن نسمع لك.

(الآية ١٨٦) - ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾:

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: ما دُمْت بشراً مثلنا، ولم تتميّز عنّا بشيء، فكيف تكون رسولاً؟

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: أي: وما نظنّك إلّا كذّاباً، كالّذين سبقوك.

(الآية ١٨٧) - ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾:

﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يطلبون العذاب ويستعجلونه، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ [الأحقاف]، ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب، يقولون: انظرنا، كيف وأنتم الّذين استعجلتم العذاب؟

﴿كِسَفٗا﴾: مفردها: كِسْفة، مثل: قِطَع وقطعة، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذِّبين، وقالها الكفّار للنّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء]، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢].

(الآية ١٨٨) - ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾:

فهو سبحانه وتعالى العليم بكم إنْ كنتم أهلاً للتّوبة والنّدم، فإنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب، وإن كنتم مُصرِّين على العصيان والتّكذيب، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال، فأنا لن أحكمَ عليكم بشيء؛ لأنّني بشر مثلكم لا أعرف ما في نيّاتكم؛ لذلك سأكلُ أمركم إلى ربّكم عزّ وجلّ.

(الآية ١٨٩) - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فكيف يُكذّبونه، وهو لم ينسب الأمر إلى نفسه، فهم لا يُكذِّبونه، إنّما يُكذِّبون الله سبحانه وتعالى؛ لذلك يأتي الجزاء:

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: وهو عذاب يوم مشهود، حيث سلّط الله ﷻ عليهم الحرارة الشّديدة سبعة أيّام، عاشوها في قيظ شديد، وقد حجز الله ﷻ عنهم الرّيح إلّا بمقدار ما يُبقي رَمَق الحياة فيهم، حتّى اشتدّ عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرّمال، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم، فرأوا غمامة قادمة في جوّ السّماء فاستشرفوا لها وظنّوها تخفّف عنهم حرارة الشّمس، وتُروِّح عن نفوسهم، فلمّا استظلُّوا بها ينتظرون الرّاحة والطّمأنينة عاجلتهم بالنّار تسقط عليهم كالمطر، ويا ليت هذه السّحابة أقشعت وتركتهم على حالهم، إنّما قذفتهم بالنّار والحُمَم من فوقهم، فزادتهم عذاباً على عذابهم، كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف]، لذلك وصف الله ﷻ عذاب هذا اليوم أنّه:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فما وَجْه عظمته وهو عذاب؟ قالوا: لأنّه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل في الرّاحة، ففاجأهم ما زادهم عذاباً، وهذا ما نسمّيه: "يأس بعد إطماع"، وهو أنكى في التّعذيب وأشقّ على النّفوس.

(الآية ١٩٠) - ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: أي: فما حدّثتكم به.

﴿لَءَايَةً﴾: يعني: عبرة، وسُمِّيَتْ كذلك؛ لأنّها تعبر بصاحبها من حال إلى حال، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدّق، وإن كان معانداً لَانَ للحقّ وأطاع.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حماية واحتراس حتّى لا نهضم حقّ القِلَّة الّتي آمنت.

فلتأخذوا يا أمّة محمّد ﷺ من هذا الموكب عبرة لكم، وتوبوا إلى الله ﷻ قبل أن يأتيكم العذاب المهين يوم القيامة.

(الآية ١٩١) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: الرّبّ: هو المتولّي الرّعاية والتّربية.

وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السّابقة، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالّة على العزّة والرّحمة.

ثمّ ينتقل السّياق إلى خاتم المرسلين سيّدنا محمَّد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعِظة في موكب الرّسل السّابقين، فيقول الحقّ ﷻ:

(الآية ١٩٢) - ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾: على أيِّ شيءٍ يعود هذا الضّمير؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه، وهو لم يُسبَق بشيء، تقول: جاءني رجل فأكرمتُه، فيعود ضمير الغائب في أكرمته على: (رجل)، وكما في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص]، فالضّمير هنا يعود على اسم الجلالة، مع أنّه متأخّر عنه، ذلك لاستحضار عظمته ﷻ في النّفس فلا تغيب، كذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن الكريم، وعرفناه من قوله ﷻ: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقُدِّم الضّمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلّا إليه، فحين تقول: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: من الآية ١]، لا ينصرف إلّا إلى الله ﷻ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لا ينصرف إلّا إلى القرآن الكريم.

﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: أنّه كلام الله ﷻ لم أقلْهُ من عندي، خاصّة أنّ رسول الله ﷺ لم يسبق له أنْ وقف خطيباً في قومه، ولم يُعرف عنه قبل الرّسالة هذا.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: كلّ ما سوى الله ﷻ؛ لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين، للإنس والجنّ والملائكة وغيرها من العوالم.

وليس القرآن الكريم وحده تنزيلَ ربّ العالمين، إنّما الكتب السّماويّة السّابقة كلّها كانت تنزيلَ ربّ العالمين، لكنّ الفرق بين القرآن الكريم والكتب السّابقة أنّها كانت تأتي بمنهج الرّسول فقط، ثمّ تكون له معجزة في أمر آخر تثبت صِدْقه في البلاغ عن الله ﷻ، فموسى عليه السلام كان كتابه التّوراة، ومعجزته العصا، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ﷻ، أمّا مُحمّد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن الكريم ومعجزته أيضاً، فالمعجزة هي عَيْن المنهج، لماذا؟ قال العلماء: لأنّ القرآن الكريم جاء منهجاً للنّاس كافّةً في الزّمان والمكان، فلا بدّ أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة، والمعجزة هي عَيْن المنهج، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلّا الله سبحانه وتعالى، فهو تنزيل ربّ العالمين، أمّا الكتب السّابقة فقد كانت لأمّة بعينها في فترة محدّدة من الزّمن، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصِّها، فالكتب السّابقة كتبت بعد الأنبياء، أمّا القرآن الكريم فهو بنصّه ومعناه من عند الله ﷻ، فهو تنزيل ربّ العالمين.

(الآية ١٩٣) - ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾:

كان من الممكن أن يكون الوحي من عند الله سبحانه وتعالى إلهاماً أو نَفْثاً في الرَّوْع؛ لذلك قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾، فالأمر ليس نَفْثاً في رَوْع رسول الله ﷺ بحكم ما، إنّما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحي، يقول له: قال

الله: كذا وكذا، لذلك لم يثبت القرآن الكريم إلّا بطريق الوحي، بواسطة جبريل عليه السلام، فيأتيه المَلَك؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسّها، ويتفصّد جبينه منه عرقاً، ثمّ يُسرِّي عنه، هذا هو الوحي، أمّا مجرّد الإلهام أو النَّفْث في الرَّوْع فلا يثبت به وَحْي، لذلك كان جلساء رسول الله ﷺ يعرفونه ساعة يأتيه الوحي، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ دويّاً كدويّ النّحل أثناء نزول القرآن الكريم عليه، وكان الأمر يثقل على رسول الله ﷺ، حتّى إنّه إنْ أسند فَخِذه على أحد الصّحابة أثناء الوحي يشعر الصّحابيّ بثقلها كأنّها جبل، وإذا نزل الوحي ورسول الله ﷺ على دابّته يثقل عليها حتّى تنخّ به، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزّمّل].

﴿نَزَلَ بِهِ﴾: تفيد العلوّ، وأنّ القرآن الكريم نزل من أعلى، من عند الله سبحانه وتعالى، فهو ليس من وضع بشر يُخطِىء ويُصيب ويجهل المصلحة، كما نرى في القوانين الوضعيّة الّتي تُعدَّل كلّ يوم، ولا تتناسب ومقتضيات التّطوّر، والّتي يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم، ولأنّ القرآن الكريم نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثقِ فيه المطمئنّ به، لا نعانده، ولا نتكبّر عليه؛ لأنّ الإنسان يتكبّر على مساوٍ له، أمّا ما جاءه من أعلى فيلزمه الانقياد له عن اقتناع، وحين نتأمّل قوله سبحانه وتعالى في التّشريع لحكم من الأحكام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، كلمة: ﴿تَعَالَوْا﴾ تعني: اتركوا حضيض تشريع الأرض، وأَقْبلوا على رِفْعة تشريع السّماء، فتعالوا؛ أيْ: ارتفعوا، ولا تهبطوا إلى مستوى الأرض، وإلّا تعبتُم وعضّتكم الأحداث؛ لأنّ الّذي يُشرّع لكم بشر أمثالكم لا يعلمون حقائق الأمور، فإنْ أصابوا في

شيء أخطؤوا في أشياء، وسوف تُضطرّون لتغيير هذه التّشريعات وتعديلها، فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى؛ لأنّه سُبحانه وتعالى العليم بما يُصلحكم.

﴿ٱلرُّوحُ﴾: سُمّي جبريل عليه السلام الرّوح؛ لأنّ الرّوح بها الحياة، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادّة، فكأنّهم أرواح مطلقة، أمّا البشر فمادّة فيها روح.

كما أنّ كلمة الرّوح استُعمِلَتْ عدّة استعمالات في القرآن الكريم، منها:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء]، والمراد: الرّوح الّتي نحيا بها.

- وسُمّي القرآن الكريم رُوحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢].

- إضافة إلى الملك الّذي نزل به، وهو جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾.

فالقرآن الكريم روح، والملَك الّذي نزل به روح، فإنْ قلتَ: فما حاجتي إلى الرّوح وفيَّ روح؟ نقول لك: هذه الرّوح الّتي تحيا بها مادّتك، تفارقك حين تموت وتنتهي المسألة، أمّا الرّوح الّتي تأتيك في القرآن الكريم فهي روح باقية خالدة، إنّها منهج الله سُبحانه وتعالى الّذي يعطيك الحياة الأبديّة الّتي لا تنتهي، لذلك، فالرّوح الّتي تحيا بها المادّة للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء، أمّا الرّوح الّتي تأتينا من كتاب الله عزّ وجلّ وفي منهجه، فهي للمؤمن خاصّة، وهي باقية، وبها نستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادّة الفانية.

ثمّ يَصِف الحقّ سُبحانه وتعالى الرّوح بأنّه:

﴿ٱلۡأَمِينُ﴾: أي: على الوحي، فالقرآن الكريم مَصُون عند الله سبحانه وتعالى، مصون عند الرّوح الأمين الّذي نزل به، مَصُون عند النّبيّ الأمين الّذي نزل عليه، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقّة]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥﴾ [التّكوير].

(الآية ١٩٤) - ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾:

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾: هل نزل القرآن الكريم على أُذُن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم على قلبه؟ الجواب: الأُذُن هي: أداة السَّمع، لكنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾؛ لأنّ الأُذُن وسيلة عبور للقلب؛ لأنّه محلُّ التّلقِّي، وبالدّم الّذي يضخُّه في أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطّاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف، فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتّأمّل، وليس لسماع الأُذُن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأُذُن؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [البقرة: من الآية ٩٧]، فالمعنى: نزّله على قلبك مباشرة، كأنّه لم يمرّ بالأُذُن؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه، وأزال عنه العقبات البشريّة الّتي تعوق هذه المباشرة، فكأنّ قلبه صلى الله عليه وسلم منتبهاً لتلقّي كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه مصنوع على عَيْن الله عز وجل، أمّا الّذين سمعوا كلام الله سبحانه وتعالى بآذانهم فلم يتجاوبوا معه، فقلوبهم مغلقة قاسية لم تفهم، والقلب محلّ التّكاليف، ومُستقرّ العقائد، وإليه تنتهي مُحصِّلة وسائل الإدراك كلّها، فالعيْن ترى، والأُذُن تسمع، والأنف يشمّ، والأيدي تلمس.. ثمّ يُعرَض هذا كلّه على العقل ليختار بين البدائل، فإذا اختار العقل واطمأنّ إلى قضيّة ينقلها

إلى القلب لتستقرّ به؛ لذلك نسمّيها عقيدة، يعني: أمْر عقد القلب عليه، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد، وأصبح عقيدة ثابتة، وفي آيات كثيرة نجد المعوَّل والنّظر إلى القلب، يقول ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحجّ: من الآية ٣٧]، وفي آية أخرى يُبيّن أنّ التّقوى محلُّها القلب: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحجّ]، وفي الشّهادة يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٣]، مع أنّ الشّهادة باللّسان، لكنّه قال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٣]، لذلك يقول النّبيّ ﷺ في الحديث الّذي رواه النّعمان بن بشير: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١)، ويُحدّثنا صحابة النّبيّ ﷺ أنّه كان ينزل عليه الوحي بآيات كثيرة بما يوازي رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرّة واحدة، فإذا ما سُرِّي عنه ﷺ قال: اكتبوا، ثمّ يقرؤها عليهم مع وَضْع كلّ آية في مكانها من سورتها، ثمّ يقرؤها ﷺ في الصّلاة، فتكون هي هي كما أملاها عليهم؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم باشر قلبه لا أُذُنه، وكان ﷺ لحِرْصه على حفظ القرآن الكريم يُردِّده خلف جبريل ويكرّره حتّى لا ينساه، فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى]؛ أي: إنّك لن تنسى، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ١١٤﴾ [طه: من الآية ١١٤]، وقال ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة].

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، الحديث رقم (٥٢).

ومن عجيب أمر القرآن الكريم أنّنا لا نجد شخصاً يُلقي كلمة لمدّة خمس دقائق مثلاً، ثمّ يعيدها علينا كما قالها نَصّاً، أمّا النّبيّ ﷺ فكانت تُلْقَى عليه السّورة، فيعيدها كما هي، ذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى].

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾: المنذر: الّذي يُحذِّر من الشّرّ قبل وقوعه ليحتاط السّامع فلا يقع في دواعي الشّرّ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع الشّرّ؛ لأنّه في هذه الحالة لا يُجْدي، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السّامع على الخير، وتحفّزه إليه، يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: من الآية ٦]، فكما أنذر الرّسلُ السّابقون أقوامَهم، أنْذِر أنت قومك، وانضمّ إلى موكب الرّسالات.

(الآية ١٩٥) - ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾:

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾: فإنْ كان القرآن الكريم قد نزل على قلبك، فكيف يسمعونه؟ وكيف يكتبونه ويحفظونه؟ يأتي هنا دَوْر اللّسان العربيّ الّذي يُخرِج القرآن الكريم إلى النّاس، فاللّغة العربيّة لغة حفظها الله سبحانه وتعالى، وهي مقدّسة؛ لأنّها كانت وعاء لكلام الله عزّ وجلّ، فمنطق رسول الله ﷺ بعد نزوله على القلب، هو اللّسان؛ فهو وسيلة الحفظ والصّيانة والقراءة.

﴿مُّبِينٖ﴾: أي: واضح ظاهر، محيط بأقضية الحياة كلّها، لكن يأتي مَنْ يقول: إنْ كان القرآن الكريم نزل بلسان عربيّ، فما بال الكلمات غير العربيّة الّتي نطق بها؟ فكلمة: (قسطاس) روميّة، و(سجّيل) فارسيّة، نقول: معنى

اللّسان العربيّ ما نطق به العرب، ودار على ألسنتهم؛ لأنّه أصبح من لغتهم وصار عربيّاً، وإنْ كان أصله من لغات أخرى، ونزل القرآن الكريم باللّسان العربيّ خاصّةً؛ لأنّ العرب هم أمّة استقبال الدّعوة وحاملوها إلى باقي الأمم، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن الكريم، فإنْ قال قائل: الأمم الأخرى غير العربيّة مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربيّ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه؟ نقول: مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلّغه بلسان القوم الّذين يدعوهم، وهذه مهمّتنا نحن العرب اتّجاه كتاب الله سبحانه وتعالى.

(الآية ١٩٦) - ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾: الضّمير يصحّ أنْ يعود على القرآن الكريم كسابقه، ويصحّ أنْ يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿زُبُرِ﴾: جمع زبور، يعني: مكتوب مسطور.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ولو أنّ العقول الّتي عارضتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكرتْ عليه رسالته، وأنكرتْ عليه معجزته فَطِنوا إلى الرّسالات السّابقة عليه مباشرة، لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه؛ لأنّه مذكور في كتب الأوّلين، كما قال سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى]، فالمبادىء العامّة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهيّ وقصص الأنبياء أمور ثابتة في الكتب كلّها، وعند الأنبياء جميعهم، ولا يتغيّر إلّا الأحكام من كتاب لآخر، لتناسب العصر والأوان الّذي جاءتْ فيه، وحين تقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

﴿وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، ولماذا نزل القرآن الكريم؟ ولماذا لم يَقُل: وصَّينا به مُحَمَّداً ﷺ؟ قال العلماء: لأنّ الأحكام ستتغيّر؛ لتناسب العصور كلّها الّتي نزل القرآن الكريم لهدايتها، ولتناسب عموميّة الإسلام، لذلك رُوِي عن عبد الله بن سلام وآخر اسمه ابن يامين، وكانوا من أهل الكتاب، وشهد كلاهما أنّه رأى ذِكْر مُحَمَّد ﷺ في التّوراة، وفي الإنجيل، ويقول عنهم القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٦]، ولمّا سمعها ابن سلام قال: ربّنا تساهل معنا في هذه المسألة، فوالله إنّي لأعرفه كمعرفتي لولدي، ومعرفتي لمحمّد أشدّ، ويقول ﷻ في هذا المعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٧]، ويقول ﷻ على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً في قومه: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ [الصّفّ: من الآية ٦]، فقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مُحَمَّد ﷺ، أو: هو القرآن الكريم، فكلاهما صحيح؛ لأنّ صفة رسول الله ﷺ موجودة في هذه الكتب، أو القرآن الكريم في عموم مبادئه في العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء موجود في الكتب السّابقة، فكان الواجب على الّذين جاءهم القرآن الكريم أنْ يؤمنوا به.

(الآية ١٩٧) - ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾: أي: دليلاً وعلامةً على أنّ القرآن الكريم من عند الله ﷻ.

﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فعلماء بني إسرائيل كانوا يستفتحون به على الّذين كفروا، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به، أولم يقولوا للأوْس والخزرج في المدينة: لقد أَطلَّ زمان نبيٍّ يأتي سنتّبعه ونقتلكم به أيّها المشركون قَتْل عاد وإرم، ومع ذلك لـمّا بُعِث النّبيّ ﷺ أنكروه وكفروا به، وهم يعرفون أنّه حقّ، لماذا؟ الجواب: لأنّهم تنبَّهوا إلى أنّه سيسلبهم كلّ ما كانوا فيه من قيادة وزعامة ومصالح، وكانوا في المدينة أهل علم، وأهل كتاب، وأهل بصر، وأهل حروب.. إلخ، وقال: ﴿عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنّهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ﷺ، ولأنّه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلّا هم، وقد اشتهر منهم خمسة، هم: عبد الله بن سلام، وأسد، وأسيد، وثعلبة، وابن يامين.

(الآية ١٩٨–١٩٩) - ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾:

لقد أنزلنا القرآن الكريم بلسان عربيّ على أمّة عربيّة، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه، وقال الحقّ سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فصّلت].

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: جمع: أعجميّ، والأعجم هو الّذي لا يُحسِن الكلام العربيّ، وإنْ كان ينطق به، والعجميّ ضدّ العربيّ، والعجم غير العرب، فالمعنى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ﴾؛ أي: القرآن العربيّ، ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ ما فهموه، وقال: ﴿بَعْضِ﴾ لمراعاة الاحتمال، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربيّة وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن الكريم.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾: لأنّهم لم يفهموا منه شيئاً، فكذلك أنتم؛ أي: كفّار مكّة، مثل هؤلاء العجم في تلقِّي واستقبال كلام الله ﷻ، لم تفهموا منه شيئاً وهو بلسان عربيّ مبين؛ ذلك لأنّهم أحبّوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه، واستراحتْ إليه قلوبهم فختم الله ﷻ على قلوبهم.

(الآية ٢٠٠) - ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠﴾:

﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾: أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، وكأنّهم عجم لا يفهمون منه شيئاً.

(الآية ٢٠١) - ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١﴾:

وما داموا لن يؤمنوا به حتّى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان.

(الآية ٢٠٢) - ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾:

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾: أي: فجأة، ومن حيث لا يشعرون.

لذلك لمّا نزل القرآن الكريم وآمن برسول الله ﷺ بعض الصّحابة اضْطُهِد رسول الله ﷺ وصحابته، وأوذوا حتّى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفّار.

(الآية ٢٠٣-٢٠٤) - ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤﴾:

أي: انظرونا وتمهَّلوا علينا، وأخِّروا عنَّا العذاب، سبحان الله ألم تستعجلوه؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم، وإنْ نزل بهم العذاب، قالوا: انظرونا وتمهَّلوا علينا.

(الآية ٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧) - ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: يعني: أخبرني.

﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾: ومع طول المدّة، إلّا أنّ الغاية واحدة: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾، فمهما طالت المدّة يقول ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج]، فإذا جاءت السّاعة لن يغني عنهم شيء، وكلّ ما تمتّعوا به أصبح وراء ظهورهم وأصبح سراباً.

(الآية ٢٠٨) - ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾:

كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾ [الأنعام]، فقد جاءهم رسول يُعلِّمهم وينذرهم؛ ليقيم عليهم الحجّة، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]، وهذا كلّه:

(الآية ٢٠٩) - ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾:

﴿ذِكْرَىٰ﴾: تعني: نذكره لنُوقِظ غفلتكم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: فأنتم الّذين فعلتم هذا بأنفسكم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨﴾ [النّحل: من الآية ١١٨]؛ لأنّ الله ﷻ نبّههم وأرسل لهم كتباً ورسلاً، وبيّن لهم طريق الخير، وبيّن لهم ما سيكون من أحوال يوم القيامة، ومع ذلك اختاروا الكفر.

(الآية ٢١٠) - ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾:

لأنّ كفّار مكّة قالوا: إنّما تنزَّلت الشّياطين على مُحمّد بالقرآن، وكانوا يقولون ذلك لكلّ شاعر ماهر بشعره عندهم، فلكلّ شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر، وعندهم وادٍ يُسمَّى: وادي عبقر، هو وادي الجنّ، فيقولون: فلان عبقريّ؛ أي: موصول بالجنّ في هذا الوادي، لكن، كيف والكتاب نزل على مُحمّد ﷺ عدوّ الشّياطين، يلعنهم في كلّ مناسبة، ويُحذِّر أتباعه منهم: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٨]، ويقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر]، فكيف يمدّه الشّيطان ويُمليه عليه، وهو عدوّه؟!.

(الآية ٢١١) - ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾:

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل القرآن الكريم مُعْجزاً ومنهجاً ومحفوظاً، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جنّ فيفسدها، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، فمع الهجوم على القرآن الكريم كلّه، ومحاولات قوى الأرض كلّها منذ عهد كفّار مكّة إلى الآن، مع هذا كلّه تجد القرآن الكريم يزداد توثيقاً، ويزداد حفظاً، ويتبارى حتّى غير المسلمين في حِفْظه وتوثيقه، والتّجديد في طباعته، حتّى رأينا مصحفاً في ورقة واحدة، ومصحفاً في حجم عقلة الإصبع، ويفخر بعضهم الآن بأنّه يملك أصغر مصحف في العالم.. إلخ، وبصرف النّظر عن دوافعهم مِنْ وراء هذا، المهمّ أنّ الله سبحانه وتعالى يُسخِّر حتّى أعداء القرآن الكريم لحِفْظه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ

﴿لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ [المدّثّر: من الآية ٣١]، أليس من وسائل نَشْر القرآن الكريم والمحافظة عليه آلات التّسجيل وآلات تكبير الصّوت الّتي تنشر كلام الله عَزَّ وَجَلَّ في كلّ مكان؟ فالعناية بالقرآن الكريم كنصٍّ لا تتناسب مع النّقص في العناية فيه بالعمل، وكأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنا: سأحفظ هذا النّصَّ بغير المؤمنين به، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمّون به؛ ليكون ذلك حجّة عليكم، لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالميّة خزانة بها أدراج، في كلّ درج منها آية من القرآن الكريم، يُحفظ به ما كُتب عن هذه الآية كلّه بدايةً من تفسير ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى وقتهم، وهذا دليل على أنّهم مُسخَّرون بقوّة خفيّة لا يقدر عليها إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر].

﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾: أي: أنّ هذه المسألة فوق قدراتهم؛ لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال:

(الآية ٢١٢) - ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾:

وقد شرح الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا المعنى في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ [الجنّ].

وبعد ذلك يتكلّم المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن استقبال المنهج من الرّسول ومن آله وأتباعه، ومن المؤمنين جميعاً:

(الآية ٢١٣) - ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾:

خاطب الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيّه مُحمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فهل كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مظنّة أن يدعو مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلهاً آخر؟ قال العلماء: لا، إنّما المراد ابتداء توجيه، وابتداء تكليف، كأنّه يقول له: اجعل عندك مبدءاً، أنّك لا

تتّخذ مع الله ﷻ إلهاً آخر، لا أنّ الرّسول اتّخذ إلهاً -حاشاه-، إنّما هو بداية تشريع وتكليف، وإذا كان العظيم المرسَل ﷺ يتوعّده الله ﷻ إنْ أراد أن يتّخذ إلهاً آخر، فما بالك بمَنْ هو دونه؟!.

(الآية ٢١٤) - ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾:

وهكذا نقل الأمر من رسول الله ﷺ إلى أهله وعشيرته الأقربين، ذلك ليطمئنّ الآخرون من قومه، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه، فأوّل ما ألزم به ألزم نفسه ثمّ عشيرته، وهذا أدْعى للطّاعة والقبول، لذلك كان سيّدنا عمر رضي الله عنه على المنبر يخطب في النّاس، ويقول: أيّها النّاس، اسمعوا وأطيعوا، فقام أعرابيّ وقال: لا سمعَ لك ولا طاعة، انظر إلى هذه الجرأة وعلى مَنْ؟ على عمر وهو على المنبر، فقال له عمر رضي الله عنه: ولِمَ؟ قال: لأنّ ثيابك أطول من ثيابنا -وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتّساوي، لا فَرْق بين طويل وقصير- فقال عمر لابنه عبد الله: قُم يا عبد الله لتُرِي النّاس، فقام عبد الله فقال: إنّ أبي رجل طِوَال -مبالغة في الطّول- وثوبه في المسلمين لم يكْفِه، فأعطيته ثوبي فوصَله بثوبه، وها أنذا بمُرقَّعتي بينكم، عندها قال الأعرابيّ: إذنْ نسمع ونطيع.

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾: والإنذار كما ذكرنا: التّحذير من الشّرِّ قبل أوانه، فلم يقُلْ: بشِّر عشيرتك، كأنّه يقول له: إيّاك أنْ يأخذك بهم لين ورأْفة، أو عطف لقرابتهم لك، بل بهم فابدأ، وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التّوجيه العظيم، عن أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»(١).

وفي الوقت الّذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين، يقول في مقابلها:

(الآية ٢١٥) - ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾:

بعد أن أمره بالشّدّة على أهله وقرابته يأمره باللّين، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللّين في المعاملة، وقَد أُخِذ هذا المعنى من الطّائر حين يحنو على فراخه، ويضمّهم بجناحه.

وخَفْض الجناح دليل الحنان، لا الذّلّة والانكسار، وفي موضع آخر: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: من الآية ٨٨]، وقال في حَقّ الوالدين: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، فلا نقول: كُنْ ذليلاً لهم، إنّما كُنْ رحيماً بهم، حَنُوناً عليهم، ففي هذا عِزّك ونجاتك.

(الآية ٢١٦) - ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾:

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾: فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردّد في أنْ تعلنها:

﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: وعندها لا تراعي فيهم حَقَّ الرّحم، ولا حَقّ

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشّعراء]، الحديث رقم (٤٧٧١).

القُرْبى؛ لأنّه لا حَقَّ لهم؛ لذلك قال: ﴿فَقُلۡ﴾، ولم يقل: تبرّأ منهم؛ لأنّه قد يتبرّأ منهم فيما بينه وبينهم، لكنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يعلنها رسول الله ﷺ على الملأ ليعلمها الجميع، وربّنا يُعلِّمنا هنا درساً حتّى لا نُحابي أحداً، أو نجامله لقرابته، أو لمكانته حتّى تستقيم أمور الحياة.

(الآية ٢١٧) - ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾:

فقد تقول: إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصاري وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولي، نقول لك: إيّاك أنْ تظنَّ أنّهم يجلبون لك نفعاً، أو يدفعون عنك ضرّاً، فاعلم أنّهم منصورون بك يا مُحَمّد ولست منصوراً بهم، فالأمر كلّه بيده تعالى وبأمره.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الّذي يَغْلِب ولا يُغْلب، ويَقْهر ولا يُقهر، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: وصفة الرّحمة هنا تنفي ما يظنّه بعضهم أنّ العزّة هنا تقتضي الجبروت أو القهر أو الظّلم، فهو ﷻ في عِزَّته رحيم؛ لأنّ عزّة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه، وكأنّ الحقّ ﷻ يُعلِّم خليفته في أرضه، خاصّة أُولي الأمر منهم، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً، يقول له: إيّاك أنْ تتوكّل على عبد مثلك؛ لأنّه عاجز مثلك، وما دام الأمر كذلك فتوكَّل على العزيز الرّحيم.

(الآية ٢١٨) - ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨﴾:

أي: توكّل على الّذي يحبّك، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم، والمعنى: تقوم له ﷻ باللّيل والنّاس نيام.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾: يرى حالك في هذا القيام، وما أنت عليه من الفرح، وسرعة الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى في قوله: الله أكبر، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله سبحانه وتعالى والنّشاط للعبادة، لا على حال الكسل والتّراخي.

وإنْ أقبلتَ على الله سبحانه وتعالى أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدّنيا وتجارتها، إنْ تركتها لإجابة النّداء؛ لذلك كان شعار الأذان الّذي ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله أكبر)؛ أي: أكبر من أيِّ شيء غيره، فإنْ كنتَ في نوم، فالله أكبر من النّوم، وإنْ كنتَ في تجارة، فالله أكبر من التّجارة، وإنْ كنتَ في عمل، فالله أكبر من العمل.. إلخ.

(الآية ٢١٩) - ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾:

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾: تعني: القعود والقيام والرّكوع والسّجود، فربُّك يراك في هذه الأحوال كلّها، ويرى سرورك بمقامك بين يديه، فإذا ما توكّلتَ عليه فأنت تستحقّ أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك.

أو: أنّ المعنى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أنّه صلى الله عليه وسلم كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه، فيرى مَنْ خلفه، كما يرى مَنْ أمامه، وكانت هذه من خصائصه صلى الله عليه وسلم.

(الآية ٢٢٠) - ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٢٢٠﴾:

السّميع لما يُقَال، العليم بما يجول في الخواطر.

(الآية ٢٢١) - ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١﴾:

وقد سبق أن قالوا عن القرآن الكريم: تنزّلت به الشّياطين، فيردُّ عليهم: تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزّل الشّياطين، وأصحّح لكم هذه المعلومات الخاطئة: صحيح أنّ الشّياطين تتنزّل، لكن لا تتنزّل على محمّد ﷺ؛ لأنّه عدوّها، إنّما تتنزّل على أوليائها، قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢١].

(الآية ٢٢٢) - ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢﴾:

فهذا الّذي يناسب الشّياطين ويرضيهم، والجنّ قسمان: الصّالح وغير الصّالح، وهذا الّذي يسمّونه الشّياطين.

﴿أَفَّاكٍ﴾: مبالغة في الإفك؛ أي: قلب الحقائق، وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصّدق، ثمّ يجعلون معه كثيراً من الكذب.

(الآية ٢٢٣) - ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾:

﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾: السّمع مصدر وآلته الأُذُن، فالمراد: يلقون الأُذُن للسّمع، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق]، يعني: ألقى سمعه كي يستمع، كمنْ يحرص على السّماع من خفيض الصّوت، فيميل نحوه ليسمع منه.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾: لأنّ بعضهم والقلّة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه، ويُغطّي عليه، فأنت تأخذ من صِدْقه هذه المرّة دليلاً على أنّه صادق، وهو يخلط الخبر الصّادق بأخبار كثيرة كاذبة.

(الآية ٢٢٤) - ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾: جمع شاعر، وهو مَنْ يقول الشّعر، وهو الكلام الموزون المُقفّى، وقد اتّهم الكفّار رسول الله ﷺ بأنّه شاعر، وردَّ عليهم القرآن الكريم في عدّة مواضع، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١﴾ [الحاقّة].

وعجيب من كفّار مكّة، وهم العرب أهل اللّسان والبلاغة والبيان، وأهل الخبرة في الكلام الموزون المُقفّى، بحيث كانوا يجعلون للشّعر أسواقاً في ذي المجاز وذي المجنّة وعكاظ، ويُعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة، ومع ذلك لا يستطيعون التّمييز بين الشّعر وأسلوب القرآن الكريم، فهم يعرفون الفَرْق، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن الكريم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور]، يقصدون بالشّعر الكلام العَذْب الّذي يستميل النّفس، ويُؤثِّر في الوجدان، ولو كان نثراً.

﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: جمع غاوٍ، وهو الضّالّ، وهؤلاء يتّبعون الشّعراء؛ لأنّهم يؤيّدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار؛ ولأنّهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق، بل هواهم هو الّذي يحكم المبدأ والخُلُق، فإنْ أحبُّوا مدحوا، وإنْ كرِهوا ذمُّوا، والدّليل على ذلك:

(الآية ٢٢٥-٢٢٦) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ﴾: الضّمير في: ﴿أَنَّهُمْ﴾ يعود على الشّعراء.

﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾: الوادي: هو المنخفض بين جبلين، وكان محلّ السّير ومحلّ نموّ الأشجار والبساتين واستقرار المياه.

﴿يَهِيمُونَ﴾: نقول: فلان هَامَ على وجهه؛ أي: سار على غير هدى، ودون هدف أو مقصد، فالمعنى: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، أنّ هذه حال الشّعراء؛ لأنّهم أهل كلام وخيال، يمدحك أحدهم إنْ طمع في خيرك، فإنْ لم تُعطِه كال لك الذّمّ وتفنَّن في النَّيل منك، فليس له وادٍ معيّن يسير فيه، أو مبدأ يلتزم به، كالهائم على وجهه في كلّ وَادٍ، فالمتنبّي وهو من أعظم شعراء العصر العبّاسيّ، ويُضرب به المثل في الحكمة والبلاغة، من أشهر شعره قوله:

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فلمّا كان في إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطّرق، فلمّا أراد أن يفرَّ قال له خادمه: ألست القائل:

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فاستحى أنْ يفرَّ، وثبت أمامهم حتّى قتلوه، فقال قبل أنْ يموت: ما قتلني إلّا هذا العبد، واشتهر هذا البيت في الأدب العربيّ أنّه البيت الّذي قتل صاحبه، ولكن هل الشّعراء كلّهم هكذا؟ الجواب: لا، فيستثني الحقّ سبحانه وتعالى من هؤلاء الغاوين:

(الآية ٢٢٧) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾:

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزّبعريّ، ومسافح الجمحيّ يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذمّونه، فيلتفّ الضّالّون الغاوون من

حولهم، يشجّعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ﷺ، وفي هؤلاء نزل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾، فأسرع إلى سيّدنا رسول الله ﷺ شعراءُ الإسلام: عبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، وحسّان بن ثابت، فقالوا: أنحن من هؤلاء يا رسول الله؟ فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فاستثنى الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الشّعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾؛ أي: ذكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أشعارهم؛ لينبّهوا النّاس إلى مواجيد الدّين ومواعظ الإيمان والأخلاق، فيلتفتون إليها، ثمّ ينتصرون لرسول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الّذين هَجَوْه، وكان هؤلاء الثّلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ﷺ، فكلّما هجاه الكفّار ردُّوا عليهم، وأبطلوا حُججهم، ودافعوا عن رسول الله ﷺ، حتّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَراً فِي الْمَسْجِدِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ يَهْجُو مَنْ قَالَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَ حَسَّانَ مَا نَافَحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»(١)، وقال له ﷺ: «**هَاجِهِمْ**» أَوْ: «**اهْجُهُمْ، وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»(٢)، وقَالَ ﷺ: «**اهْجُوا قُرَيْشاً، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ**»، فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: «**اهْجُهُمْ**»، فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ

---

(١) سنن أبي داود: كِتَاب الأَدَبِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الشِّعْرِ، الحديث رقم (٥٠١٥).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدِ الكُوفِيِّينَ، حَدِيثُ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، الحديث رقم (١٨٦٨٩).

ثَابِتٍ(١)، كما سمح لهم بإلقاء الشّعر في المسجد؛ لأنّهم دخلوا في هذا الاستثناء، فهم من الّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات، وذكروا الله ﷻ كثيراً، وهم الّذين ينتصرون للإسلام ويُمجّدون رسول الله ﷺ، ويدافعون عنه، ويردُّون عنه ألسنة الكفّار.

﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾: أنّهم لم يكونوا سفهاء، ولم يبدؤوا الكفّار بالهجاء، إنّما ينتصرون لأنفسهم، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾: ظُلِموا مِمَّنْ؟ من الّذين وقفوا من الّدين ومن الرّسول ﷺ موقفَ العداء، وتعرَّضوا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد، ظُلِموا من الّذين عزلوا رسول الله ﷺ وآله في الشِّعْب حتّى أكلوا أوراق الشّجر، من الّذين تآمروا على قتله ﷺ إلى أنْ هاجر.

ومن رحمته ﷻ وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظّلم، حتّى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر، ولا بُدَّ لها أن تنفجر، فقال ﷻ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النّحل].

ثمّ يختم الحقّ ﷻ سورة الشّعراء بقوله ﷻ:

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾: يعني: غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون؟ والمنقلب هو المرجع والمآب، والمصير الّذي ينتظرهم، فالحقّ ﷻ يتوعّدهم بما يؤذيهم، وبما يسوؤهم، فلن تنتهي المسألة بانتصار

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ ﭫ، بَابُ فَضَائِلِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ﭬ، الحديث رقم (٢٤٩٠).

المسلمين عليهم فقط، إنّما ينتظرهم جزاء آخر في الآخرة، كما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطّور: من الآية ٤٧]، لذلك أبهم الله ﷻ هذا المنقلب، وإبهامه للتّعظيم والتّهويل، وقد يظنّ المرء أنّ مُنقلَبه مُنقلَب خير، وأنّه سينتهي إلى ما يُفرِح، وهو واهم مخدوع في عمله ينتظر الخير، والله تعالى يُعِدّ له منقلباً آخر، والانقلاب والمرجع إلى الله ﷻ إنّما يفرح به مَنْ آمن بالله ﷻ وعمل صالحاً.

﴿وَسَيَعْلَمُ﴾: بالسّين الدّالّة على الاستقبال، لكنّها لا تعني طول الزّمن كما يظنّ بعضهم؛ لأنّ الله ﷻ أخفى الموت ميعاداً، وأخفاه سبباً ومكاناً، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان؛ لأنّك في هذه الحالة ستنتظر الموت في كلّ لحظة، وتتوقّعه في كلّ وقت، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال: أفعل ما أريد ثمّ أتوب قبل أن أموت، فالوقت الّذي تقتضيه السّين هنا لا يطول، فقد يفاجئك الموت، وليس بعد الموت عمل أو توبة، واقرأ قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النّازعات].

وقلنا: إنّ في الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديداً ووعيداً، الحقّ ﷻ حين يُضخّم الوعيد إنّما يريد الرّحمة بخَلْقه، وهو مُحِبٌّ لهم، فيهدّدهم الآن ليَسلموا غداً، ويُنبّههم ليعودوا إليه، فينالوا جزاءه ورحمته، وكأنّه ﷻ يريد من وراء هذا التّهديد أن يُوزّع رحمته لا جبروته، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدّده ليجتهد، فالوعد بالخير خير، والوعيد بالشّرّ أيضاً خير، فكلّ ما يأتينا من ربّنا ﷻ، فلنعلم أنّه خير لنا، حتّى وإنْ كان تهديداً ووعيداً.

وهكذا قدّمتْ لنا سورة الشّعراء نموذجاً من تسلية الحقّ ﷻ لنبيّه مُحَمَّد ﷺ والتّخفيف عنه ممّا يلاقيه من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم، وعرضَتْ عليه ﷺ موكب الرّسل، وكيف أنّ الله ﷻ أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم، ثمّ سلّاه ربّه أنْ رَدَّ على الكفّار في افتراءاتهم، وأبطل حججهم، وأبان زَيْف قضاياهم، ثمّ تختم هذه التّسلية ببيان أنّ للظّالمين عاقبة سيّئة تنتظرهم، وأبهم هذه العاقبة: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ليضخّمها، والشّيء إذا حُدِّد إنّما يأتي على لَوْن واحد، وإنْ أُبهِم كان أبلغ؛ لأنّ النّفس تذهب في تصوُّره كلّ مذْهب، كما لو تأخّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره في قلق تسرح بنا الظّنون في سبب تأخّره، وفي احتمالات ما يمكن أنْ يحدث، وتتوارد على خواطرنا الأوهام، وكلّ وهم يَرِد في النّفس بألم ولذعة، في حين أنّ الواقع شيء واحد.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (النّمل)

الآيات: (١–٥٥)

سورة النّمل

سورة النّمل من السّور الّتي أُنزلت على نبيّنا ﷺ وهو في مكّة المكرّمة، نزلت بعد سورة الشّعراء، عدد آياتها (٩٣) آية، وهي السّورة السّابعة والعشرون حسب ترتيبها في المصحف الشّريف، اشتملت هذه السّورة الكريمة على أصول العقيدة والتّوحيد، وتحدّثت عن البعث، كما ذُكِر فيها عدد من قصص أنبياء الله ﷻ، منها قصّة صالح عليه السلام وكيف عذّب الله سبحانه وتعالى قومه عندما رفضوا الإيمان، وقصّة داود وسليمان عليهما السلام، وقصّة لوط عليه السلام، أمّا لماذا سُمّيت سورة النّمل؟! فذلك؛ لأنّها اشتملت على قصّة سيّدنا سليمان عليه السلام مع النّملة، وحديثه معها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾، فقصّة سيّدنا سليمان مع النّملة أنّ الله سبحانه وتعالى وهب لنبيّه سليمان عليه السلام مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فقد كان يسخّر الجنّ فيصنعون له ما يشاء، كما سُخّرت له الرّيح تجري بأمره الى الأرض الّتي يشاء الذّهاب إليها، وكذلك علّمه الله سبحانه وتعالى منطق الطّير والحيوان، فكان عليه السلام يخاطبهم ويتحاور معهم ويسمع كلامهم، وفي أحد الأيّام بينما كان سيّدنا سليمان عليه السلام يسير في موكبه إذ به يستمع إلى حوار عجيب بين نملة وقبيلتها من النّمل، فالنّملة تخاطب قومها طالبة منهم ومحذّرة بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾، وعندما سمع سليمان عليه السلام هذا القول: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي

﴿بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾، وهذا غاية في الأدب حينما لا يغفل عن نبيّ الله سليمان عليه السلام فضل الله عز وجل عليه، ففي كلّ نعمه يلمس أثرها في حياته، فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى ما لم يُعط غيره من الأنبياء، وهذا يوجب عليه أن يقابل تلك النّعمة بالشّكر والإحسان، كما أنّ تلمّس آثار النّعمة في الدّنيا ذكّرت نبيّ الله عليه السلام أنّ الرّحمة الإلهيّة هي أفضل وهي غايه النّاس جميعاً، وقد ورد العديد من الشّواهد الدّالّة على وحدانيّة الله سبحانه وتعالى في سورة النّمل، وتحدّثت السّورة عن قدرة الله سبحانه وتعالى وخلق السّموات والأرض، وإنزال الماء من السّماء وإنبات الحدائق والبساتين والزّروع والأشجار ذات اللّون البهيج، وجعل الأرض قراراً ليستقرّ عليها النّاس، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يُجيب المضطرّ إذا دعاه، وهو الهادي في ظلمات البرّ والبحر، وهو عالم الغيب والشّهادة.

(الآية ١) - ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾:

تكلّمنا كثيراً على هذه الحروف المقطّعة في أوائل السّور، وهنا جاءت:

﴿طسٓ﴾: وهما حرفان من حروف المعجم، وهي تُنطق هكذا: (طا) و(سين)؛ لأنّهما أسماء حروف، وفَرْقٌ بين اسم الحرف ومُسمّاه، فكلٌّ من الأمّيّ والمتعلّم يتكلّم بحروف، يقول مثلاً: كتب مُحمَّد الدّرس، فإنْ طلبتَ من الأمّيّ أن يتهجّى هذه الحروف لا يستطيع؛ لأنّه لا يعرف اسم الحرف، وإنْ كان ينطق بمُسمّاه، أمّا المتعلّم فيقول: كاف تاء باء. وقلنا سابقاً: الأحرف المقطّعة في القرآن الكريم هي أربعة عشر حرفاً، وهي نصف حروف الأبجديّة، هذه الأحرف الّتي وردت في القرآن الكريم هي: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾،

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، فكلّها مجموعة بعبارة: (نصّ حكيم له سرّ قاطع).

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السّورة.

﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾: قُلْنا: إنّ الآيات لها مَعَانٍ متعدّدة:

١- فقد تعني الآيات الكونيّة: كالشّمس والقمر، كقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصّلت: من الآية ٣٧]، وهذه الآيات الكونيّة هي الّتي تلفتنا إلى عظمة الخالق ﷻ وقدرته.

٢- والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرّسل، الّتي تُثبت صِدْق بلاغهم عن الله ﷻ، كقوله ﷻ: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧﴾ [الأعراف].

٣- والآيات بمعنى: آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام، وهي المرادة هنا بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: وسبق أنْ قال ﷻ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر]، فمرّة يقول: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: من الآية ١]، ومرّة: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ويأتي بالكتاب ويعطف عليه القرآن، أو يأتي بالقرآن ويعطف عليه الكتاب، مع أنّهما شيء واحد، فكيف يعطف الشّيء على نفسه؟ قال العلماء: إذا عطف الشّيء على نفسه، فلنعلم أنّه لزيادة وَصْف الشّيء، مثلاً تقول: جاءني زيد الشّاعر والخطيب والتّاجر، فلكلٍّ صفة منها إضافة في ناحية من نواحي الموصوف، فهو القرآن؛ لأنّه يُقرأ ويُحفَظ في

الصّدور، وهو نفسه الكتاب؛ لأنّه مكتوب في السّطور، وهما معاً نُسمِّيهم مرّة القرآن ومرّة الكتاب، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة.

﴿مُّبِينٍ﴾: بيِّن واضح، ومحيط بكلّ شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨].

(الآية ٢) - ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾:

﴿هُدًى﴾: الهدى: يأتي بمعنيين: عامّ للنّاس كلّهم، بمعنى الدّلالة على طريق الخير، وإمّا بمعنى المعونة للمؤمنين، فمن ناحية الدّلالة هو هُدىً للمؤمن والكافر على حَدٍّ سواء؛ لأنّه دلَّ الجميع وأرشدهم، ثمّ تأتي هداية المعونة على حسب اتّباعك لهداية الدّلالة، فكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يقول له: أنت استأمنتني على حركة حياتك وأطعتني في أمري ونهيي، فسوف أخفّف عنك وأُهوِّن عليك أمر العبادة وأُعينك عليها، وهذه هي هداية المعونة الّتي قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمّد]، وكذلك الكافر الّذي لم يأخذ بهداية الدّلالة والإرشاد، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله سبحانه وتعالى عليه، وقد تسأل: هل يعينه الله جلّ جلاله على الكفر؟ الجواب: نعم؛ لأنّه قد اختار الكفر، فيغلق الله سبحانه وتعالى دونه أبواب الإيمان؛ لذلك يختم الله عزّ وجلّ على قلوب الكافرين حتّى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر.

لكنّ السّؤال: هل الهداية هنا هداية دلالة، أم هداية معونة؟ نقول: هي هداية معونة، بدليل قوله سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالبُشْرى لا تكون إلّا للمؤمنين، فهي معونة للمؤمنين أنْ يزيدهم هدايةً إلى الطّريق السَّويّ، وإلى جنّات النّعيم.

(الآية ٣) - ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان، وهي أن تؤمن بقضيّة الحقّ الواحد الإله المختار الفاعل الّذي له صفات الكمال، تؤمن بها حتّى تصير عقيدة في نفسك ثابتة لا تتزعزع، والإيمان اعتقاد بالقلب، وقَوْل باللّسان، وعمل بالجوارح، فلا يكفي أن نطق باللّسان، إنّما لا بدّ من أن نؤدّي تكاليف الإيمان ومطلوباته، وقمّة هذه التّكاليف إقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان، والحجّ.

فالصّلاة دعوة من الله سبحانه وتعالى لخَلْقه، دعوة من الصّانع للمصنوع، فربُّنا يستدعينا إلى حضرته، وكيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كلّ يوم خمس مرّات، ومع ذلك نرى مَنْ يُقدِّم أمور الدّنيا على الصّلاة، وإذا سمع النّداء قال: عندي أشغال، إيّاك أنْ تظنّ أنّ الصّلاة تعطيل للمصالح، أو إضاعة للوقت؛ لأنّنا في حركة حياتنا مع نِعَم الله سبحانه وتعالى، وفي الصّلاة مع الله عزَّ وجلَّ، وفي الصّلاة نأخذ شحنة إيمانيّة تُقوّينا على حركة الحياة، ولو حسبنا الوقت الّذي تستغرقه الصّلوات الخمس لوجدناه لا يتعدّى ساعة من الأربع والعشرين ساعة، فلا نضنّ بها على أنفسنا لنلتقي بربّنا عزَّ وجلَّ، ونقف بين يديه، ونعرض أنفسنا عليه، فيصلح فينا ما أفسدته حركة الحياة، ويعطينا المدد والعون والشّحنة الإيمانيّة الّتي تدفعنا إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولنا، فإنْ كانت الصّلاة لإصلاح النّفس، فالزكاة لإصلاح

المال؛ لذلك نجد دائماً أنّ الصّلاة مقرونة بالزكاة في معظم الآيات، وإنْ كان المال نتيجة العمل، والعمل فرع الوقت، فإنّ الصّلاة تأخذ الوقت، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت؛ أي: المال، فالزكاة تأخذ (٢,٥٪)، أمّا الصّلاة فتأخذ الوقت نفسه، يعني بنسبة (١٠٠٪)، ومع ذلك لا نقول: إنّ الصّلاة أضاعتْ الوقت؛ لأنّ الشّحنة الّتي نأخذها في الصّلاة تجعلنا ننجز العمل الّذي يستغرق عدّة ساعات في نصف ساعة، فتعطينا بركة في الوقت، وحين نتأمّل أطول الأوقات بين كلّ صلاتين نجد أنّها من الصّبح حتّى الظّهر، وهو الوقت المناسب للعمل، ومن العشاء حتّى الصّبح، وهو الوقت المناسب للنّوم، وهكذا تُنظِّم لنا الصّلاة حياتنا، فمِنْ صلاة الصّبح إلى صلاة الظّهر سبع ساعات هي ساعات العمل.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾: فالآية جمعتْ أمر المؤمن كلّه، بداية من العقيدة والإيمان بالله ﷻ، ثمّ الصّلاة، فالزكاة، وهما المطلبان العمليّان بين إيمانين: الإيمان الأوّل بالله ﷻ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير.

﴿يُوقِنُونَ﴾: الإيقان: الحكم بثبات الشّيء دون توهُّم شكٍّ؛ لذلك قلنا: إنّ العلم أنْ تعرف قضيّة واقعة، وتقول: إنّها صدق، وتُدلِّل عليها.

واليقين درجات؛ علم اليقين، وعين اليقين، وحقُّ اليقين، فمثلاً حين أقول لك: إنّني رأيتُ في أحد البلاد سيّارة نصف متر، فأنت تثق فيَّ ولا تكذّبني، فهذا علم يقين، فإنْ رأيتها، فهذا عَيْن اليقين، فإن أخذت ذلك

وعاينته فهذا حقُّ اليقين، وهذه الدّرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ، لذلك سأل النّبيّ ﷺ أحد صحابته: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟»، قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ»، قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، قال ﷺ: «يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ»(١)، والإمام عليّ رضي الله عنه يُعطينا صفة اليقين في قوله: "لو كُشِف عنّي الحجاب ما ازددتُ يقيناً؛ لأنّي صدّقت بما قال ربّي، وليست عيني أصدق عندي من ربّي".

(الآية ٤) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: هؤلاء في مقابل الّذين آمنوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يعرض الشّيء ومقابله لنُجري مقارنة بين المتقابلات، ولم يَنْفِ الله سبحانه وتعالى عنهم إقامة الصّلاة أو إيتاء الزكاة؛ لأنّهم أصلاً لا يؤمنون بالله عزّ وجلّ، ولا بالبعث ولا بالحساب، ولو علموا أنّهم سيرجعون إلى الله سبحانه وتعالى لآمنوا به، ولَقدَّموا العمل الصّالح.

﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: أنّ الّذين لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم؛ لأنّنا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيّداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّنّاه لهم، فالصّلاة لقاء

---

(١) شعب الإيمان: باب العين، الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

بينك وبين ربّك يعبّر عن دوام الولاء، ويعطيك شحنة إيمانيّة، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك، فنأخذ منك وأنت غنيّ لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر، ولمّا نهيناك عن الكذب نهينا النّاس جميعاً أن يكذبوا عليك، ولمّا حذَّرناك من الرّشوة قلنا للآخرين: لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ.. إلخ، وهكذا شرحنا التّكاليف وبيَّنا الحكمة منها، وحبّبناها إليكم.

أو: قد يكون المعنى: زيّنّا لهم أعمالهم الّتي يعملونها، فلمّا عَلم الله ﷻ عشْقهم للضّلال والانحراف ختم على قلوبهم، فزيّن لهم ما يعملون، يقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: من الآية ٨]، لكن مَنِ الّذي زيَّن لهم: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النّحل: من الآية ٦٣]، فالتّزيين يأتي مرّة من الشّيطان، ومرّة مجهول الفاعل، ومرّة زيَّن الله ﷻ لهم، ومن تزيين الله ﷻ قوله في شأن فرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ [يونس: من الآية ٨٨]، فلمّا أعطاهم الله ﷻ النّعمة فُتِنوا بها، ولم يعطهم ليضلّوا، وإبليس خلقه الله ﷻ، وجعل له ذرّيّة تتسلَّط على النّاس، وتُغْويهم، وما ذلك إلّا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب، فالحقّ ﷻ لم يجعل حواجز عن المعصية، وجعل دوافع على الطّاعة، فالمسألة منك أنتَ، فإنْ رآك قد مِلْتَ إلى شيء وأحببته أعانك عليه، فالاختيار إليك، ومن التّزيين قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشّورى].

﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: يتحيّرون ويضطربون، لا يعرفون أين يذهبون؟.

(الآية ٥) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي: العذاب السّيّء، وهذا في الآخرة، فإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل في بدر، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحدّ، إنّما هناك خسارة أخرى في الآخرة.

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: الأخسر: مبالغة في الخسران، فلم يَقُلْ: خاسر، إنّما: أخسر؛ لأنّه خسر النّعيم، فلم يُقدِّم صالحاً في الدّنيا، وليته ظلّ بلا نعيم وتُرِكَ في حاله، إنّما أيضاً يأتيه العذاب؛ لذلك قال ﷻ: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾؛ لأنّهم لم يدخلوا الجنّة، وهذه خسارة، ثمّ هم في النّار، وهذه خسارة أخرى.

(الآية ٦) - ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾:

يعني: هذه المسائل والقضايا إنّما تأتيك من الله الحكيم الّذي يضع الشّيء في نصابه وفي محلّه، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسيء، فكلٌّ في محلِّه، وهو ﷻ العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السّيّئة، وهو عليم بما فعل النّاس، وعليم باختياراتهم، وعليم بذات الصّدور وبالنّيّات.

(الآية ٧) - ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾:

ما زِلْنا قريبي عَهْد بذكر طرف من قصّة موسى عليه السلام في سورة الشّعراء، وهنا يعود السّياق إليه مرّة أخرى، لماذا؟ لأنّ دعوة موسى عليه السلام

أخذت حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم، وعجيب أنّ شعب بني إسرائيل يفخرون بكثرة أنبيائهم، وهم لا يعلمون أنّها تُحسب عليهم لا لهم، فالنّبيّ لا يأتي إلى قوم إلّا عند شِقْوتهم، وبنو إسرائيل كانوا من الضّلال والعناد بحيث لَا يكفيهم رسول واحد، بل يلزمهم مجموعة كبيرة من الأنبياء، أمّا ورود قصّة بني إسرائيل وموسى عليه السلام كثيراً في القرآن الكريم، فإيّاك أن تعتقد أنّه تكرار، فالقرآن الكريم لا يروي قصّة، ولا يذكر أحداثاً للتّأريخ لها، إنّما يأتي من القصّة بما يناسب موطن العبرة والتّثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: من الآية ١٢٠]؛ لأنّ رسول الله ﷺ تعرَّض في رحلة الدّعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ، ويحتاج إلى تسلية وتثبيت، فيأتي له ربُّه بلقطة معيّنة، ولكن لا يُورد القصّة كاملة، وهذا له حكم، وقد أورد سبحانه وتعالى قصّة واحدة هي قصّة يوسف عليه السلام كاملة من الألف إلى الياء، في صورة قصّة محبوكة على أتمّ ما يكون الفنّ القصصيّ، ومع ذلك لم يأتِ لسيّدنا يوسف عليه السلام ذِكْر -في غير هذه القصّة- إلّا في موضعين:

- أحدهما: في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: من الآية ٨٤].

- والآخر: في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: من الآية ٣٤].

فورود القصّة في لقطات مختلفة متفرّقة ليس تكراراً، وإنّما هو عِبَر وأحداث إضافيّه تُضاف إلى المعنى، ولا يمكن لنا أن نأخذ كلّ ما ورد عن موسى عليه السلام من سورة واحدة، بل يجب أن نجمع السّور كلّها الّتي تتحدّث

عنه ﷺ حتّى نعرف التّفاصيل كاملة، فهنا لقطة وهنا لقطة وهنا مشهد يضاف عليه مشهد، فلا يوجد تكرار في القرآن الكريم، لكن:

- يكون فيه إضافة.
- يكون فيه معنى آخر.
- يكون فيه ما يتناسب مع سياق الآيات.

وسنبيّن بإذن الله ﷻ ما يتعلّق بالفارق بين الآية الّتي ترد، والآية الّتي وردت شبيهة لها في سورة أخرى، حتّى نعلم أنّ التّكرار في القرآن الكريم هو أسرار وعطاء، وهو ضرورة، وله حكمة بالغة، حتّى أنّ العقائد لا بدّ من تكرارها حتّى تثبت في الأذهان. وهنا يقول الحقّ ﷻ:

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾: أي: اذكر يا محمّد في الوقت الّذي قال موسى لأهله:

﴿لِأَهۡلِهِۦٓ﴾: قال العلماء: إنّها تعني جماعة، بدليل قول موسى ﷺ لهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ [القصص: من الآية ٢٩]، فكانت زوجته، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم، والإنسان منّا يحتاج أشياء كثيرة تقتضي التّعدّد: فهذا يطبخ الطّعام، وهذا للنّظافة.. إلخ.

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾: آنس: يعني: شعر وأحسَّ بشيء يُؤنسه ويُطمئنه، وضدّه التّوجّس؛ أي: شعر وأحسَّ بشيء يخيفه، ومنه قوله ﷻ في شأن موسى ﷺ أيضاً: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه].

والمعنى: اذكر يا محمّد هذا الوقت عندما كلّم الله ﷻ موسى ﷺ، وهنا وردت مقاطع جديدة لم تكن بآيات سابقة؛ لأنّه ﷻ في موضع آخر يقول: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: من الآية ١٠]، وفي هذه الآية إضافة جديدة

ليست في الأولى، أمّا قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [القصص: من الآية ٢٩]؛ أي: آنس في ذاته، أمّا في الآيتين السّابقتين فيخبر بأنّه آنسَ ناراً، فكلّ آية في موقف، فموسى عليه السلام يسير بأهله في هذا الطّريق الوَعْر الموحش، ويحلّ عليه الظّلام، ولا يكاد يرى الطّريق، فيقول لزوجته: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ أي: إنّي سأذهب لأقتبسَ منها، لنهتدي بها، أو نستدفئ بها، ومن الطّبيعيّ أنْ تعارضه زوجته: كيف تتركني في هذا المكان المُوحِش وحدي، فيقول لها: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [القصص: من الآية ٢٩]؛ يعني: ابقيْ هنا مستريحة، وأنا الّذي سأذهب، فلربّما تعرَّضت لمخاطر، فكُوني أنت بعيدة عنها، فهي مواقف جديدة استدعاها الحال، وليست تكراراً.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾: كذلك نجد اختلافاً طبيعيّاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: من الآية ٢٩]، وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، فالأولى: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ [القصص: من الآية ٢٩]، فيها رجاء؛ لأنّه مُقبل على شيء يشكُّ فيه، وغير متأكّد منه، وهو في هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شيء غائب عنه، فلمّا تأكّد قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ على وجه اليقين، وفي هذه المسألة قال مرّة: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: من الآية ٢٩]، وهنا قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ ذلك لأنّه لا يدري حينما يصل إلى النّار، أيجدها مشتعلة لها لسان يقتبس منه شعلة، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلّا جذوة، وهي القطعة المتوهّجة، كالفحم مثلاً، فكلُّ تكرار هنا له معنى، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصّة، فهو تكامل في اللّقطات تأتي متفرّقة حَسْب المراد من العبرة.

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾: أي: تتدفّؤون بها من البرد.

(الآية ٨) - ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾: أي: جاء موسى إلى النّار.

﴿نُودِيَ﴾: النّداء: طلب إقبال، كما تقول: يا فلان، فيأتيك، فتقول له ما تريد، فالنّداء مثلاً في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾ [طه]، نداء، أمّا قوله سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: من الآية ١٤]، فخطاب وإخبار، لكن هنا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، ولم يقُلْ: يا موسى، فليس هنا نداء، قال العلماء: مجرّد الخطاب هنا يُراد به النّداء؛ لأنّه ما دام يخاطبه فكأنّه يناديه، ومثال ذلك قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ [الأعراف: من الآية ٤٤]، فذكر الخطاب مباشرة دون نداء؛ لأنّ النّداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام، ومنه أيضاً: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف]، ومنه أيضاً: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ [مريم: من الآية ٢٤]، فجعل الخطاب هو النّداء.

﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾: كلمة بُورِك لا تناسب النّار؛ لأنّ النّار تحرق، وما دام قال: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، فلا بُدَّ أن مَنْ في النّار خَلْق لا يُحرَق، ولا تؤثّر فيه النّار، فمَنْ هم الّذين لا تؤثّر فيهم النّار؟ الجواب: هم الملائكة، وبناء الفعل ﴿بُورِكَ﴾ للمجهول تعني: أنّ الله سُبحانه وتعالى هو الّذي يبارك، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلّا الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾: يجوز أن يكون الملائكة، أو: بُورِكت الشّجرة ذاتها؛ لأنّها لا تُحرق، أو النّار؛ لأنّها لا تنطفىء فهي مُباركة، وفي موضع آخر يُوسّع الله ﷻ دائرة البركة، فيقول ﷻ: ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: من الآية ٣٠]، وقد رأى موسى عليه السلام مشهداً عجيباً، رأى النّار تشتعل في فرع من الشّجرة، فالنّار تزداد، والفرع يزداد خُضْرة، فلا النّار تحرق الخضرة، ولا رطوبة الخضرة ومائيّتها تُطفىء النّار، فمَنْ يقدر على هذه المسألة؟ لذلك قال بعدها:

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: ففي مثل هذا الموقف إيّاك أنْ تقول: كيف، بل نزِّه الله ﷻ عن تصرّفاتك أنت، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنّسبة إليك، أمّا عند الله ﷻ فأمر يسير، وقد رأينا مثل هذه المعجزة في قصّة إبراهيم عليه السلام حين نجَّاه ربّه ﷻ من النّار، ولم يكُنْ المقصود من هذه الحادثة نجاة إبراهيم عليه السلام فقط، فلو أنّ الله ﷻ أراد نجاته فحسب لَمَا أمكنهم منه، أو لأطفأ النّار الّتي أوقدوها بسحابة ممطرة، أسباب كثيرة كانت مُمكِنة لنجاة إبراهيم عليه السلام، لكنّ الله ﷻ أرادهم أنْ يُمسِكوا به، وأنْ يُلْقوه في النّار بأنفسهم، وهي على حال اشتعالها وتوهّجها، وهم يروْنَ هذا كلّه عيَاناً، ثمّ لا تؤذيه النّار، ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء]، فالمسألة ليست بين إبراهيم عليه السلام وقاعدة تحكم الكون، إنّما هي قيّوميّة الخالق ﷻ، فما رآه موسى عليه السلام من النّار الّتي تشتعل في خضرة الشّجرة أمر عجيب عند النّاس، وليس عجيباً عند مَنْ له طلاقة القدرة الّتي تخرق النّواميس.

(الآية ٩) - ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٩﴾:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: جاء هنا النّداء على حقيقته بأداة ومنادى، وهذا هو الأصل.

﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب ممّا ترى، وساعةَ تسمع مَنْ يكلِّمك دون أن ترى متكلّماً من جنسك، فلا تتعجّب ولا تندهش.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: العزيز الّذي لا يُقهَر، والحكيم الّذي يضع الأمور في نصابها.

(الآية ١٠) - ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ١٠﴾:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: نلحظ تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية في هذا الموضع، وذُكِرَت في موضع آخر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه]، أمّا هنا استثنى مباشرة جاء بلفظ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ مباشرة.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: فلمّا ألقى موسى عليه السلام عصاه وجدها تهتزّ.

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: أي: حيّة تسعى وتتحرّك، والعجيب أنّها لم تتحوّل إلى شيء من جنسها، فالعصا عود من خشب، كان فرعاً في شجرة، فجنسه النّبات، ولمّا قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً، فلو عادت إلى النّباتيّة، يعني: إلى الجنس القريب منها واخضرّتْ لكانت عجيبة، أمّا الحقّ سبحانه وتعالى فقد نقلها إلى جنس آخر، إلى الحيوانيّة، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدّهشة، بل

والخوف، خاصّة وهي: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ أي: تتحرّك حركة سريعة هنا وهناك، وطبيعيّ أنْ يخاف موسى عليه السلام ويضطرب حين يرى العصا الّتي في يده على هذه الصّورة: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه]، ومعنى: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: من الآية ٦٨]، إشارة إلى أنّه سبحانه وتعالى يُعِدّ موسى عليه السلام لمهمّة كبرى، ولهذه العصا أدوار مع الخصوم، وسوف ينتصر عليهم، ويكون هو الأعلى.

وحين نتتبّع اللّقطات المختلفة لهذه القصّة نجده يقول مرّة: (جانّ)، ومرّة: (حيّة)، ومرّة: (ثعبان)، وهي كلّها حالات للشّيء الواحد، فالجانّ فَرْخ الثّعبان، وله مِن خفّة الحركة ما ليس للثّعبان، والحيّة هي الثّعبان الضّخم.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: يعني: انصرف عنها وأعطاها ظهره.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: نقول: فلان يُعقِّب؛ أي: يدور على عَقِبه ويرجع، والمعنى: أنّه انصرف عنها ولم يرجع إليها؛ لذلك ناداه ربّه سبحانه وتعالى:

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما المنادى موسى عليه السلام، وكأنّهما تعويض للنّداء السّابق الّذي نُودِي فيه بالخبر: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

﴿لَا تَخَفْ﴾: علّة عدم الخوف ليعلّمه أنّه سيُضطرّ إلى معارك، فليكُنْ ثابتَ الجأْش لا يخاف؛ لأنّه لن يحارب شخصاً بمفرده، إنّما جمعاً من السَّحرة جُمِعوا من أنحاء البلاد كلّها، وسبق أنْ قال له: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: من الآية ٦٨]، حتّى لا تُرهبه هذه الكثرة، وهنا قال:

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: والمعنى: لا تخفْ؛ لأنّي أنا الّذي أرسلتُك، وأنا الّذي أتولّى حمايتك وتأييدك، كما قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات]، فأنت معذور في الخوف إنْ كنتَ بعيداً عنّي، فكيف وأنت في جواري وأنا معك أخاطبك؟ وكان إلقاء العصا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المرّة مجرّد تجربة ليألف هذه المسألة ويأنس إليها، وتحدث له دُرْبة ورياضة، فإذا ما أجرى هذه العمليّة أمام فرعون والسّحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانيّة انقلاب العصا إلى حيّة.

وبعد ذلك يأتي بآية تُثبت منطقة التّكليف في البشر، حتّى الرّسل، فهم أيضاً مُكلَّفون، وكلّ مُكلَّف يصحّ أن يطيع أو أن يعصي، لكنّ الرّسلَ معصومون من المعصية، أمّا موسى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فله حادثة مخصوصة قبل الرّسالة حين وكَز الرّجل فسقط ميْتاً، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشّعراء]، وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذّنب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص].

(الآية ١١) - ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾: الاستثناء هنا من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وكأنّه عَزَّ وَجَلَّ يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصّة بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: أي: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفر له حين قتل الرّجل واعترف بذنبه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: من الآية ١٦]، ولا كلامَ لأحد بعد مغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ للمذنب؛ لأنّه بعد أنْ ظلم:

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾: يعني: عمل عملاً حسناً بعد الذّنب الّذي ارتكبه.

(الآية ١٢) - ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾:

﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾: هذه آية أخرى ومعجزة جديدة، قال عنها في موضع آخر: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ [القصص: من الآية ٣٢]، وهنا قال: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾، فما الفرق بين: أَدْخِل يدك، واسْلُك يدك؟ قال العلماء: لأنّه ساعة يُدخِل يده في جيبه، يعني: في فتحة القميص، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمّى: (إدخال)، فإن كانت مغلقة، كأن يكون فيها أزرار مثلاً، احتاج أنْ يسلك يده، يعني: يُدخل يده برفق ويُوسّع لها مكاناً، نقول: سلك الشّيء، يعني: أدخله بلُطْف ورِفْق، ومنه السّلك الرّفيع حين ندخِله في شيء، وعندما نسمع كلمة الجيب نجد أنّ لها معنىً عرفيّاً بين النّاس، ومعنى لُغويّاً: فمعناها في اللّغة فتحة القميص العليا، الّتي تكون للرّقبة، وهي في المعنى العُرْفِيّ فتحة في داخل الثّوب، مثل الّتي يضع فيها الإنسان نقوده.

﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾: أي: تخرج بيضاء ناصعة مُنوِّرة، ومعلوم أنّ موسى عليه السلام كان أسمر، فحين يروْنَ لون يده تغيّر إلى البياض، فربّما قالوا: إنّ ذلك مرضٌ، كالبرص مثلاً، لذلك أزال الله سبحانه وتعالى هذا الظّنّ بقوله:

﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ﴾: من غير مرض.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾: ليعلم موسى عليه السلام أنّ هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبِّته الله سبحانه وتعالى بها أمام عدوّه فرعون وقومه.

وهذه الآيات التّسع هي:

١- العصا، ولها مهمّتان: أن تتحوّل إلى حيّة أمام السّحرة، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيش فرعون، حينما يهاجمه.

٢- اليد.

٣- الجدب.

٤- نقص الثّمرات، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف].

٥- الطّوفان.

٦- الجراد.

٧- القُمَّل.

٨- الضّفادع.

٩- الدَّم.

هذه تسع آيات تُثبِّت موسى عليه السلام أمام فرعون وقومه، فهل أُرسل موسى عليه السلام إلى فرعون خاصّة؟ الجواب: لا، إنّما أُرسِل إلى بني إسرائيل، لكنّه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنّه مُرْسَل من عند الله سبحانه وتعالى حتّى لا يحول بينه وبينهم، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى عَرَضاً في أحداث القصّة، فليست هي أساس دعوة موسى عليه السلام.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: إشارةً إلى أنّ الإنسان، وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله ﷻ، إلّا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة، والمراد الإيمان الأوّل في آدم عليه السلام، لذلك المقصود هنا أنّه فاسق؛ لأنّه خرج عن التّكاليف وعن الإيمان.

(الآية ١٣) - ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾: الآيات: المعجزات الّتي تُثبت صِدْق الرّسول.

﴿مُبْصِرَةً﴾: الآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول، لكن كيف تكون هي المبصِرة بصيغة اسم الفاعل، وهذه المسألة عرفناها أخيراً، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنّون أنّ رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشّيء المرئيّ، إلى أن جاء العالِم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النّظريّة ويقول بعكسها، فالرّؤية تتمّ بخروج شعاع من الشّيء المرئيّ إلى العين، بدليل أنّنا لا نرى الشّيء إنْ كان في الظّلام، وأنت في النّور، فإنْ كان الشّيء في النّور وأنت في الظّلام تراه، فكأنّ الآيات نفسها هي المبصِرة؛ لأنّها هي الّتي تُرسِل الأشعّة الّتي تُسبّب الرّؤية، أو: أنّ الآيات من الوضوح كأنّها تُلِحّ على النّاس أنْ يروْا وأنْ يتأمّلوا، فهي ليبصرُوا الحقائق.

(الآية ١٤) - ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾:

﴿وَجَحَدُوا۟﴾: أي: باللّسان.

﴿بِهَا﴾: بالآيات.

﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾: أي: إيماناً بها، فالمسألة عناد ولَدَد في الخصومة؛ لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها:

﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾: أي: استكباراً عن الحقّ.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها.

فهذه لقطة من ما كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، بعد ذلك نجد أنّ القرآن الكريم ينتقل إلى قصّة أُخرى من موكب الأنبياء من أجل العبرة والتّثبيت، ولم يعطِ كلّ ما ورد عن قصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنّما بعض المشاهد الّتي تُضاف إلى المشاهد السّابقة في سور أخرى من القرآن الكريم، ليأتي الآن إلى نبيّين من الأنبياء داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(الآية ١٥) - ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾: لقد أعطى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نِعَماً كثيرة غير العلم، فقد ألَان لداوود الحديد، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وسخَّر له الرّيح والجنّ، وعلَّمه منطق الطّير.. إلخ، ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلّا بالعلم، وهو منهج الدّين؟ قال العلماء: لأنّ العلم هو النّعمة الحقيقيّة الّتي يجب أن يفرح بها المؤمن، لا المُلْك ولا المال، ولا الدّنيا كلّها، فلم يعتدّ بشيء من هذا كلّه؛ لذلك حمدا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أن آتاهما العلم.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فالحمد هنا على نعمة العلم وحِفْظ منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الآية مظهر من مظاهر أدب النّبوّة، حيث قالا: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكأنّ هناك مَنْ هم أفضل مِنّا، وليس التّفضيل حجْراً علينا، وهذا من تواضعهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(الآية ١٦) - ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾: لا تعني أنّه جاء بعده، إنّما هما متعاصران، وورثه في العلم والنّبوّة والحكمة، لا في المُلْك والمال؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أن يكون الرّسول بعيداً في رسالته وتبليغه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أيّ نفع يجيء له، أو لذرّيّته، فالأنبياء لا تورث، كما جاء في الحديث الشّريف: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١)، وقد ورث عنه النّبوّة مع أنّهما متعاصران، بدليل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موضع آخر: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء]، فكان سليمان مع داوود في هذه الحكومة وفي العلم، لكنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل العلم منازل، بدليل أنّه قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ٧٩]، مع أنّ أباه موجود، وحكم في القضيّة بأن يأخذ صاحبُ الزّرع الغنم الّتي أكلت، فلمّا خرجوا من عند داوود سألهم سليمان عن حكم أبيه، فأخبروه بما قال، فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل يأخذ صاحب الزّرع الغنم ينتفع بها، ويأخذ صاحب الغنم الزّرع يصلحه حتّى يعود كما كان، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه، وصاحب الزّرع زرعه، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطينا هذا

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ، الحديث رقم (٣٠٩٣).

المثل مع نبيّ وأبيه، لا مع نبيّين مختلفين بعيدين، وفي هذا إشارة أنّ حقّ الأبوّة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه في الحكم؛ لأنّ الله ﷻ قال عنهما: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: من الآية ٧٩]، فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الّذي منحه الله ﷻ، ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعيّة الاستئناف والنّقض في أحكام المحاكم، فقاضي الاستئناف حينما يُعدِّل حكم القاضي الابتدائيّ لا يُعَدُّ هذا طعْناً فيه، إنّما كلٌّ منهما حَكَم بناءً على علمه، وعلى ما توفّر له من أدلّة ووقائع، وربّما فطِن القاضي الثّاني لما لم يفطِنْ له القاضي الأوّل، فلاحظوا أدب سليمان مع أبيه بأنّه ربّما رأى هو الأمر مختلف بوجهة نظر مختلفة فصحّح الحكم.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: فالطّير له منطق ولغة؛ لأنّه كما قال ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]، والآن ومع تقدُّم العلم يتحدّث العلماء عن لغة للنّمل، ولغة للنّحل، ولغة للسّمك.. إلخ، وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزيّ، لكنّنا لا نفهم هذا المنطق، والله ﷻ علّمنا أنّه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فإنْ قلنا كمَنْ قال: هو تسبيح دلالة لا منطقَ ومقال، نقول: طالما أنّ الله ﷻ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فلا بُدَّ أنّه مقال وكلام، ولكن نحن لا نفهمه، وعلماء اللّغة يقولون: إنّ النّطق خاصٌّ بالإنسان، أمّا ما تُحدثه الحيوانات والطّيور فأصوات تُحدِثها في كلّ وقت، مثل مواء القطّة، ونُباح الكلب، وخُوَار البقر، ونقيق الضّفادع، لكنّ هذه الأصوات لها معنى، فصوت القطّة حين تجوع

غير صوتها حين تخاف، فهي تُعبِّر، لكنّنا لا نعرف هذه التّعبيرات، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض؛ لأنّنا لم نتعلّمها؟! وللّغة ضرورة اجتماعيّة نتواضع عليها؛ أي: نتّفق أنّ هذا اللّفظ يعني كذا، فإذا نطق به الإنسان أمامي أفهم، وإن نطقتُ به يفهمني، فاللّغة بنت الاستماع، فاللّفظ الّذي نسمعه نستطيع نُطْقه، والّذي لم نسمعه لا نستطيع نُطْقه، حتّى لو كان لفظاً عربيّاً من لغتنا، ولا نعرف أيضاً معناه، فلو قلتُ لك: (إنّما الحيزبون والدّردبيس والطّخا والنّخاخ والعصلبيص)، فلا شكَّ أنّك لا تعرف لهذا معنى؛ لأنّنا لم نتواضع على معناه، والطّفل الّذي نشأ في بيئة عربيّة يتكلّم العربيّة؛ لأنّه سمعها، ولا يتكلّم الإنجليزيّة مثلاً؛ لأنّه لم يسمعها، ولو وضعنا الطّفل نفسه في بيئة إنجليزيّة لتكلّم الإنجليزيّة؛ لأنّ اللّغة لا ترتبط بجنس ولا دم ولا عرق، اللّغة سماع.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: من النِّعَم على الإطلاق، وبعد قليل سنسمع هذه العبارة نفسها يقولها الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فهي مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك، لا في النّبوّة وحَمْل المنهج.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾: الفضل المحيط بالفضائل كلّها، الفضل الواضح العظيم.

(الآية ١٧) - ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾: حُشِروا: جُمِعوا من كلّ مكان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشّعراء: من الآية ٣٦]، والحشْر: جَمْع النّاس

للحساب يوم القيامة، وسُمّي الجمع حَشْراً؛ لأنّه تجمع النّاس من أماكن متفرّقة في مكان واحد، حتّى يضيق بهم ويزدحم، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا.

﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾: حُشِر لسليمان جنوده، إذاً سُخِّرَت له جنود من الجنّ والإنس والطّير.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يعني: يُمنعون، وقد ورد عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنّه قال: "إنّ الله ليزع بالسُّلْطان ما لا يزع بالقرآن"، يعني: أنّ السّلطان والقوّة تمنع ما لا يستطيع القرآن الكريم منعه؛ ذلك لأنّهم يستبعدون القيامة والعذاب، أمّا السّلطان فرادع حاضر الآن، لكن، مِمَّ يمنعون وهم في موقف الحشر أمام سليمان؟ قال العلماء: يُمنعون أن يَسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان، فالمنع هنا حتّى يتمّ ترتيب هؤلاء ولا يدخلون مرّة واحدة على سليمان عليه السلام، ويكون هناك توازن بين الرّعيّة، لكن في ضوء هذا المعنى لمادّة (وزع) كيف نفهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النّمل: من الآية ١٩]؟ الجواب: أوزعني هنا يعني: أقْدِرني وامنعني من الغفلة عن نعمتك، لأظلَّ شاكراً لك.

(الآية ١٨) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟﴾: الضّمير في: ﴿أَتَوْا۟﴾ يعود على جنود سليمان من الإنس والجنّ والطّير؛ أي: جاؤوا جميعاً صَفّاً واحداً ومرُّوا.

﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: يعني: قرية النّمل، وقيل: إنّها في بلاد الشّام، وقوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ يدلُّ على أنّهم جاؤوا من أعلى الجبل، أو أنّهم قطعوا الوادي كلّه، كما نقول: فلان أتى على الطّعام كلّه، عندها:

﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾: لماذا هذا التّحذير؟

﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: الحَطْم: هو التّكسير، ومنه قوله ﷻ عن النّار: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة]؛ لأنّها تحطم ما يُلْقى فيها، ثمّ احتاطتْ النّملة للأمر، فقالت:

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: فما كان سليمان عليه السلام وجنوده ليُحطِّموا بيوت النّمل عن قَصْد منهم، والمعنى: حالة كونهم لا يشعرون بكم، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان عليه السلام، وأنّه ليس جبّاراً ولا عاتياً، فالنّملة رأتْ عن بُعْد، ونطقتْ عن حقّ، وحكمتْ بعدل، لهذا تبسَّم سليمان ضاحكاً، وواضح في هذا القول ما تتميّز به مملكة النّمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمّته، ويؤدّيها على أكمل وجه، فهذه النّملة لا بُدَّ أنّها كانت تقوم بمهمّة الحراسة وتقف كالدَّرَك، ترقب الجوّ من حولها، وكأنّها جنديّ الدّوريّة اليقظ، وسبق أن قُلْنا: لو أنّنا جلسنا في مكان، وتركنا فيه بعض فضلات الطّعام مثلاً أو الحلوى، لرأينا بعض النّمل يدور حولها دون أنْ يقربها، ثمّ ينصرف عنها، وبعد مدّة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة، وكأنّ الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الّذين يكتشفون أماكن الطّعام، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشّيء، بدليل أنّك لو ضاعفتَ القطعة الملقاة لرأيتَ عدد النّمل الّذي جاء لحملها قد تضاعف هو أيضاً، ولو قتلنا النّمل

الأوّل الّذي جاء للاستطلاع نلاحظ أنّ النّمل امتنع عن هذا المكان، لماذا؟ لأنّ النّملة الّتي نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها، وحذَّرتهم من هذا المكان، وفي مملكة النّمل عجائب وآيات، سبحان خالقها، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة.

ومن عجائب النّمل أنّنا نرى في عُشِّ النّمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتّى لا تُنبِت، فإنّها إذا نبتت ستهدم عليهم عُشَّهم، لكنّ حبَّة الكُزبرة مثلاً تنبت حتّى لو انفلقتْ نصفين، حيث ينبت كلّ نصف على حِدَة، لذلك لاحظوا أنّ النّمل يفلق هذه الحبّة بالذّات إلى أربعة أقسام، كما لاحظ المهتمّون بدراسة النّمل وجود حبّات بيضاء صغيرة مثل رأس الدّبوس أمام أعشاش النّمل، وبفحصها تبيَّن أنّها زريعة النّبات الّتي تحمل خلايا الإنبات، فأخرجوها كي لا تنبت، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]، وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النّملة قولاً: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، ولا بُدَّ أنّ هذا التّحذير: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ جاء قبل أنْ يأتي سليمان وجنوده، وهم على مشارف الوادي، وكلمة: ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾: تدلّ على أنّ لهم بُيوتاً ومساكنَ، ومجالَ معيشة، وكسْبَ أرزاق من هنا ومن هناك؛ لذلك نجد النّمل يتتبّع مواضع الطّعام والفضلات، ويدخل إليها من أضيق الأماكن، لكن نرى مثلاً محلّات الحلوى مليئة بالسّكّر الّذي يعشقه النّمل، ومع ذلك لا نجد في هذه المحلّات نملة واحدة، لماذا؟ الجواب: لمّا تتبَّع العلماء هذه الظّاهرة بالدّراسة وجدوا أنّ النّمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسِم، وهذه من عجائب النّمل أيضاً.

(الآية ١٩) - ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا﴾: تبسَّم سليمان عليه السلام بالبسمة الّتي تتّصل بالضّحك، لأنّه سمعها قبل أنْ يصل إليها، ولأنّها رأتْ قبل أن يأتي المرئيّ، وقد تكلّم العلماء في هذه المسألة، فقالوا: إنّ الرّيح نقلتْ إليه مقالة النّملة، وهو ما يزال بعيداً عنها، وهذا الكلام يُقبَل لو أنّ المسألة (ميكانيكا)، إنّما هي عمل ربّ وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء، فنطق قائلاً:

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾: أوزعني: أي: امنعني أنْ أغفل، أو أنْ أنسى هذه النِّعم، فأظلّ شاكراً حامداً لك على الدّوام؛ لأنّ هذه النّعَم فاقتْ ما أنعمت به على الخَلْق كلّهم، وفوق ما أنعمت به على إخواني من الأنبياء السّابقين، وعلى ملوك الدّنيا كلّهم؛ لأنّه عليه السلام جمع بين المُلْك والنُّبوّة، وإنْ كان سيّدنا رسول الله محمّد صلى الله عليه وسلم عُرِض عليه المُلْك فرفضه، وآثر أن يكون عبداً رسولاً.

لذلك وجب على كلّ صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله سبحانه وتعالى وشكْره، وقد شُرح هذا المعنى في قوله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، ألَا ترى أنّ مَنْ علم علماً فعمل به أورثه الله سبحانه وتعالى عِلْم ما لم يعلم؟! لماذا؟ لأنّه ما دام عمل بعلمه، فهو مُؤْتَمَن على العلم؛ لذلك يزيده الله سبحانه وتعالى منه ويفتح له مغاليقه، على خلاف مَنْ عَلِم علماً ولم يعمل به، فإنّ الله جل جلاله يسلبه نور العلم، فيغلق عليه، وتصدأ ذاكرته، وينسى ما تعلَّمه،

والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٢]؛ أي: تعود عليه ثمرة شُكْره؛ لأنّه إنْ شكر الله عَزَّ وَجَلَّ بالحمد شكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالزّيادة؛ لذلك من أسمائه جَلَّ جَلَالُهُ: الشّكور.

وقوله: ﴿عَلَيَّ﴾ هذه خصوصيّة.

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: لأنّه ورث عنهما المُلْك والنّبوّة.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾: وهذا ثمن النّعمة أن نؤدّي خدمات الصّلاح في المجتمع لنكون مُؤْتمنين على النّعمة أهْلاً للمزيد منها.

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وذكر الرّحمة والفضل؛ لأنّهما وسيلة النّجاة، وبهما ندخل الجنّة، ومن غيرهما لن ينجو أحد، ولنقرأ قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١)، ويقول سبحانه في هذا المعنى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس]، فالمؤمن الحقّ لا يفرح بعمله، إنّما يفرح إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته، كأنّه يقول لربّه عَزَّ وَجَلَّ: لن أتّكل على عملي، بل على فضلك ورحمتك، فهنا تكون العبادة الحقّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنّنا نقوم بالعمل ونطمع بالفضل والأجر والكرم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدلّ على تواضعه، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ مع مكانته ومنزلته يطلب أن يدخله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الصّالحين، وأن يجعله في زمرتهم، كما كان نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي**

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٦٧٣).

مِسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»[1]، فلم يجعل في نفسه الميزة ولا الصّدارة، ولا ادّعى الخيريّة على غيره من عباد الله ﷻ، وهنا سليمان عليه السلام مع ما أعطاه الله سبحانه وتعالى من الملك الّذي لا ينبغي لأحد من بعده جعل نفسه مع العباد الصّالحين.

(الآية ٢٠) - ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾: مادّة: فَقَدَ، الفاء والقاف والدّال، وكلّ ما يُشتقّ منها تأتي بمعنى: ضاع منه الشّيء، ومنه قوله سبحانه وتعالى في قصّة إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١﴾ [يوسف]، فإنْ جاءت بصيغة: (تفقَّد) بالتّضعيف دلَّتْ على أنّ الشّيء موجود، وأنا أبحث عنه في مظانّه، وقوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾؛ أي: أنّ المسؤول أو المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته، وسليمان عليه السلام ساعةَ جلس في مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر إلى الحاضرين من مملكته، كأنّه المسؤول عن الجميع ويستعرض جنوده، وفي هذا إشارة إلى أنّه عليه السلام مع أنّ هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره، إلّا أنّه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة.

لكن، لماذا تفقَّد الطّير بالذّات؟ قال العلماء: لأنّه أراد أنْ يقوم برحلة في الصّحراء، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة؛ لأنّه يعلم المجاهيل، ويرى حتّى الماء في باطن الأرض، يقولون: كما يرى أحدكم الزّيت في وعائه، لذلك نرى أنّ من مميّزات الهدهد أنّ الله سبحانه وتعالى جعل له منقاراً طويلاً؛ لأنّه لا يأكل

---

(١) سنن ابن ماجه: كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ، الحديث رقم (٤١٢٦).

ممّا على سطح الأرض، إنّما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض، ألَا تراه حين كلَّم سليمان عليه السلام في دقائق العقيدة والإيمان بالله عز وجل يقول عن أهل سبأ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥﴾ [النمل]، فاختار هذه المسألة بالذّات؛ لأنّه الخبير بها ورزقه منها، ولـمّا لم يجد سيّدنا سليمان عليه السلام الهدهد في الحاضرين قال:

﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾: فساعةَ يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته، فإنّه لا يقصد الاستفهام، إنّما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه، لذلك قال:

﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾، يعني: ربّما هو موجود، لكنّي لا أراه، فلمّا دَقّق النّظر وتأكّد من خُلوِّ مكانه بين الطّيور، قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؟!

(الآية ٢١) - ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢١﴾:

معاقبة المخالف أمر ضروريّ؛ لأنّ أيَّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعدّدة أعظم منها، ومن أَمِنَ العقوبة أساء الأدب، فحين نرى موظّفاً مُقَصِّراً في عمله لا يحاسبه أحد، يستمرّ ويصبح النّاس مثله وتنتشر اللّا مبالاة والفوضى، وتحدث الطّامّة الكبرى حينما يُثاب المقصِّر ويُرَقَّى مَنْ لا يستحقّ، لذلك يقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: "ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فيطمع المسيء في إساءته، ويزهد المحسن في إحسانه"، لذلك توعَّد سليمان عليه السلام الهدهد:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾: يعذّبه عذاباً شديداً، ثمّ رقّى الأمر، أو يمكن أن يذبحه، وطبعاً هذه المسألة أثار حولها المتمرّدون على منهج الله ﷻ، والّذين يريدون أن يعدّلوا على الله سبحانه وتعالى، ويتدخّلوا في أحكامه، إشكالاً أنّها حرام، ولماذا يريد أن يذبحه؟ لكنّ الله سبحانه وتعالى عندما يُعطي الحكم فهذا الحكم يقاس الصّحّ من الخطأ على أساسه، فإذا حكم الله سبحانه وتعالى فهنا يكون المجال الصّحيح والسّليم.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: يعطيني حجّة واضحة تبرّر غيابه، فنفهم من الآية أنّ المرؤوس يجوز له أنْ يتصرّف برأيه، ودون أن يأخذ الإذن من مديره أو من رئيسه، إذا كان هناك مصلحة للمجموع لا تستدعي التّأخير، وهناك خطر، وهنا يقدّر المدير أو المسؤول لمرؤوسه هذا الاجتهاد ويلتمس له عذراً، فلعلّه عنده حجّة، وهذه الحجّة هي الّتي أدّت لذلك، فقدّم الخير وخدم المصلحة العامّة هنا.

(الآية ٢٢) - ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿فَمَكَثَ﴾: أقام واستقرّ.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: مدّة يسيرة، فلم يتأخّر كثيراً؛ لأنّه يعلم أنّه تخلّف عن مجلس سليمان عليه السلام، وذهب دون إذنه؛ لذلك تعجّل العودة، وما إنْ وصل إليه إلّا وبادره:

﴿فَقَالَ﴾: بالفاء الدّالّة على التّعقيب؛ لأنّه رأى سليمان عليه السلام غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته، لذلك بادره قبل أنْ ينطق، وقبل أنْ ينهره.

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾: الإحاطة: إدراك المعلوم من جوانبه كلّها، ويقول ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا١٢٦﴾ [النّساء: من الآية ١٢٦]، ومنه: الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده، ومنه: يحتاط للأمر، ومحيط الدّائرة الّذي يحيط بالمركز من كلّ ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار، والمعنى هنا: عرفتُ ما لم تعرف، وهذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان عليه السلام الّذي ملَك الدّنيا كلّها، وسخَّر الله ﷻ له كلّ شيء؛ لذلك ذُهل سليمان عليه السلام من مقالة الهدهد، وتشوّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو، فهل يُعَدُّ قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ نقصاً في سليمان عليه السلام؟ الجواب: لا، إنّما يُعَدُّ تكريماً له؛ لأنّ ربّه عزّ وجلّ سخَّر له مَنْ يخدمه، وفَرْقٌ بين أن تفعل الشّيء وبين أن يُفعل لك، فحين يفعل لك، فهذه زيادة سيادة، وعُلُوّ مكانة. ثمّ يستمرّ الهدهد:

﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾: أوّلاً: نقف عند جمال التّعبير في: (سبأ) و(نبأ)، فبينهما جناس ناقص، وهو من المحسّنات البديعيّة في لغتنا، ويعطي للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد، والجناس هو اتّفاق الكلمتين في الحروف، واختلافهما في المعنى، كما في قول الشّاعر:

رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرُ وَقَلْبِي في محبّتكُمْ أَسير

ومن الجناس التّامّ في القرآن الكريم: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٥٥]، فالتّعبير القرآنيّ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ﴾ تعبير جميل لفظاً، دقيق مَعنىً، ألَا تراه لو قال: (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ

اللّفظ والمعنى معاً؛ لأنّ الخبر يُرَاد به مُطلْق الخبر، أمّا النّبأ فلا تُقال إلّا للخبر العجيب المهمّ اللّافِت للنّظر، كما في قوله ﷻ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ]، والجناس لا يكون جميلاً مؤثّراً إلّا إذا جاء طبيعيّاً غير مُتكلّف، ومثال ذلك هذا الجناس النّاقص في قوله ﷻ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة]، فقد ورد اللّفظ المناسب مُعبّراً عن المعنى المراد دون تكلّف، فالهُمَزة: هو الّذي يعيب بالقول، واللّمزة: الّذي يعيب بالفعل، فالقرآن الكريم لا يتصيّد لفظاً ليُحدِث جناساً، إنّما يأتي الجناس فيه طبيعيّاً يقتضيه المعنى، ومن ذلك الحديث الشّريف: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ»[1]، فبيْن (الخيل) و(الخير) جناس ناقص، وقد يأتي المحسِّن البديعيّ مُضطرباً مُتكلّفاً، يتصيّده صاحبه، فلا يكون جميلاً.

ونلحظ أنّ الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هي، وهذا دليل على أنّ سليمان عليه السلام يعرف سبأ، وما فيها من ملك، إنّما لا يعرف أنّه بهذه الفخامة وهذه العظمة.

(الآية ٢٣) - ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾: يعني: تحكمهم امرأة، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدّول، ثمّ يذكر من صفاتها:

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابٌ: الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، الحديث رقم (٢٨٥٠).

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾: وكأنّها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾، فهي كذلك أُوتيتْ من كلّ شيء بالنّسبة إلى أقرانها، وإلّا فسليمان أُوتي من الملْك ومن النّبوّة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ.

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾: العرش مكان جلوس الملك، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك، ووصْف العرش بأنّه عظيم مع أنّ هذا الوصف لعرش الله سبحانه وتعالى، كيف؟ قالوا: عظيم بالنّسبة إلى أمثالها من الملوك، أمّا عرْش الله عز وجل فعظيم بالنّسبة إلى الخَلْق كلّهم عظمةً مُطْلقة.

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ عليه السلام فيما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الّذي تشبه فيه سليمان كملك، ثمّ يُحدِّثه بعد ذلك عن مسألة تتعلّق بالنّبوّة والإيمان بالله عز وجل، وهذه المسألة الّتي غار عليها سليمان عليه السلام، وثار من أجلها.

(الآية ٢٤) - ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ذلك لأنّه لمّا طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوَّة تدخل منها الشّمس، كما في معابد الفراعنة، ففي أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيّام السّنة، بحيث تدخل الشّمس في كلّ يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى، وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشّمس فتتنبّه لها وتستقبلها، فالهدهد مؤمن عارف بقضيّة العقيدة والإيمان بالله سبحانه وتعالى يَغار عليها ويستنكر مخالفتها، فهو

يعرف أنّ الله ﷻ هو المعبود بحقٍّ، بل ويعلم أيضاً قضيّة الشّيطان، وأنّه سبب الانصراف عن عبادة الله ﷻ، فقال:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾: فالقضيّة عنده كاملة بكلّ تفاصيلها، ولا نتعجّب من مقالة الهدهد ولنقرأ قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، إنّها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ﷻ، ويعلم منهجه ويدعو إليه، بل ويعزّ عليه ويحزّ في نفسه أن ينصرف العباد عن الله ﷻ المنْعِم.

(الآية ٢٥) - ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝٢٥﴾:

﴿أَلَّا﴾: مكوَّنة من (أنْ) و(لا)، وعند إدغامهما تُقلَبُ النّون لَاماً فتصير: ألّا، فالمعنى: وزيَّن لهم الشّيطان أعمالهم؛ لئلّا يسجدوا، فهنا حرف جرّ محذوف، كما نقول: عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان، أو عجبت أن يقدم علينا فلان.

وفي قراءة أخرى: (ألَا) للحثِّ والحضّ.

﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: قلنا: إنّه اختار هذه الصّفة بالذّات؛ لأنّ الهدهد خبير في هذه المسألة، حيث يرى الماء في باطن الأرض، كما يرى أحدكم الزّيت في إنائه، والمراد بالخبْء في السّموات: المطر، والخبْء في الأرض: النّبات، ومنهما تأتي مُقوِّمات الحياة، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النّبات، وعلى النّبات يتغذّى الحيوان، ويتغذّى الإنسان.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾: كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٨]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: من الآية ٢٩].

(الآية ٢٦) - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦﴾:

لمّا تكلّم عن عرش بلقيس قال: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾، يعني: بالنّسبة إلى أمثالها من الملوك وأهل زمانها، فإذا عُرِّف: ﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾، فإنّه لا ينصرف إلّا إلى عرشه جل جلاله، فله العظمة المطلقة عند كلّ الخَلْق.

(الآية ٢٧) - ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾:

﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ﴾: النّظر محلُّه العين، لكن هل يُعرف الصّدق والكذب بالعين؟ الجواب: لا، فالكلمة انتقلت من النّظر بالعين إلى العلم بالحجّة، فهي بمعنى: نعلم، ونقول: هذا الأمر فيه نظر، يعني: يحتاج إلى دراسة وتمحيص.

﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: وفي الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان عليه السلام وتلطُّفه مع رعيّته، فهو السّيّد المطاع، ومع ذلك يقول للهدهد: ﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، والصِّدْق يقابله الكذب، لكنّ سليمان عليه السلام يأبى عليه أدب النّبوّة أن يتّهم أحد جنوده بالكذب، فقال: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، يعني: حتّى لو وقع منك الكذب فلست متأصّلاً فيه، فكثير من الخَلْق يكذبون، ممّا يدلُّ على أنّه بإلهاماته كنبيّ يعرف أنّه صادق، فهذا من أدب سليمان عليه السلام.

(الآية ٢٨) – ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٨﴾:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: هذا هو النّظر الّذي ارتآه سليمان عليه السلام ليتأكّد من صِدْق الهدهد: أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ في القرآن الكريم، فبعد أن قال سليمان عليه السلام: ﴿سَنَنظُرُ﴾، قال: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾، فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً؟ الجواب: لا، إنّما التّقدير: قال: سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا، ثمّ قال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾، وقد حُذِف هذا للعلم به من سياق القصّة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: يعني: ابتعِدْ قليلاً.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: يعني: يراجع بعضهم بعضاً، ويتناقشون فيما في الكتاب، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩﴾ [طه]، والسّياق يقتضي أن نقول: فذهب الهدهد بالكتاب، وألقاه عند بلقيس، فقرأتْه، واستشارتْ فيه أتباعها وخاصّتها، ثمّ قالت:

(الآية ٢٩) – ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ٢٩﴾:

﴿قَالَتْ﴾: نلحظ هنا سرعة جواب الأمر: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾، فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾، وهذا يدلّ على أنّ أوامر سليمان عليه السلام كانت للتّنفيذ بشكل عاجل؛ لذلك حذف السّياق التّفاصيل كلّها بين الأمر: ﴿ٱذْهَب﴾، والجواب: ﴿قَالَتْ﴾ هكذا على وجه السّرعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾: الملأ: هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصّة.

﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾: فوصفتْ الكتاب بأنّه كريم، إمّا لأنّها سمعتْ عن سليمان عليه السلام وعظمة مُلْكه، أو: لأنّ الكتاب سُطِّر على ورق رَاقٍ وبخطّ جميل، وفيه: (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)، وبعد ذلك هو ممهور بخاتَمه الرّسميّ، ممّا يدلّ على أنّه كتاب مهمّ ينبغي دراسته وأَخذْ الرّأي فيه.

(الآية ٣٠) - ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾:

فهي تعرف سليمان عليه السلام، وتعرف نُبوّته وصفاته، وأنّه يكاتبهم باسْم الله، ويَصْدُر في دعوتهم عن أوامر الله عز وجل، وكان مجمل الكتاب بعد: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

(الآية ٣١) - ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾:

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾: إنّها برقيّة موجزة في أبلغ ما يكون الإيجاز، والعلوّ هنا: بمعنى الغطرسة والزّهوّ الّذي يعتاده الملوك خاصّة، وهي مِثْله، ملكة لها عَرْش عظيم، وأُوتيتْ من كلّ شيء، وكونه يخاطبها بهذه اللّهجة المختصرة البعيدة عن النّقاش والجدال، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أَنَاةٍ، لذلك بعد أن أخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرّأي والمشورة.

(الآية ٣٢) - ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾:

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي﴾: الفتوى، من الفُتوّة؛ أي: القوّة، وهي مثل: غَنِيَ فلان؛ أي: صار غنيّاً بذاته، وأغناه غيره: أمدَّه بالغنى، كذلك أفتاه، يعني: أعطاه قوّة في الحكم والحجّة.

﴿فِيٓ أَمۡرِي﴾: قالت: ﴿أَمۡرِي﴾، مع أنّ الأمر خاصٌّ بالدّولة كلّها، لا بها وحدها؛ لأنّها رمز للدّولة وللملْك، وإنْ تعرّض لها سليمان عليه السلام فسوف يُخدَش مُلْكها أوّلاً، ويُنال من هيبتها قبل رعيّتها.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾: يعني: لا أَبُتُّ في أمر إلّا في حضوركم، وبعد استشارتكم، وهذا يدلّ على أنّها كانت تأخذ بمبدأ الشّورى مع ما كان لها من الملْك والسّيطرة والهيمنة، فردّ عليها الملأ من قومها:

(الآية ٣٣) - ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾:

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾: يعني: نحن أصحاب قوّة في أجسامنا، وأصحاب شجاعة وبأس؛ أي: جيوش فيها عَدَد وعُدّة.

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾: أي: إنْ رأيتِ الحرب، فنحن على أُهْبة الاستعداد، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به، فهو رَأْي سياسيّ لا رأي حربيّ، فهي صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ.

﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾: يعني: نحن على استعداد للسِّلْم والحرب، وننتظر أمرك.

(الآية ٣٤) - ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾:

﴿قَالَتۡ﴾: وتعرض بلقيس رأيها:

﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾: ذلك لأنّهم يريدون مُلْكاً، فينهبون كلّ ما يمرّون به، بل ويُخرّبون ويفسدون، لماذا؟ لأنّه ساعةَ يصل الملِك المُغِير لا

يضمن النّصر؛ لذلك يُخرِّب كلّ شيء، حتّى إذا ما عرف أنّه انتصر، وأنّ الأمور قد استقرّتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخرّبها.

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾: لأنّ الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم، فيكون أصحاب العزّة والسّيادة هم أوّل مَنْ يُبدأ بهم؛ لأنّ الأمر أُخِذ من أيديهم، وسوف يسعَوْن لاستعادته، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾: للعلماء في هذا القول كلام، فمنهم مَن قال: إنّه من كلام بلقيس، وكأنّه تذييل لكلامها السّابق، لكن ماذا يضيف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ بعد أن قالت: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾؟! فالرّأي الصّواب أنّ هذه العبارة من الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليُصدِّق على كلامها، وأنّها أصابت في رأيها، فكذلك يفعل الملوك إذا دخلوا قرية، ممّا يدلّ على أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ربّ الخلْق أجمعين، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حقّ يؤيّده فيها، ولا يهضمه حقّه.

(الآية ٣٥) - ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾:

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتّدبير أخذتْ تُعمِل عقلها، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك، فقالت: إنْ كان سليمان مَلِكاً فسوف يطمع في خيرنا، وإنْ كان نبيّاً فلن يهتمّ بشيء منه، فقرّرتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هي أيضاً، لتثبت له أنّها على جانب كبير من الثّراء والغنى، ولا بدّ أنّها كانت هديّة ثمينة لتستميل الملك.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: فإنْ كان ملكاً قَبِلها، وعرفنا أنّ علاجه في بعض الخراج والأموال تُسَاق إليه كلّ عام، وإنْ كان نبيّاً فلن يقبل منها شيئاً، وهذا رَأْي جميل من بلقيس يدلّ على فِطْنتها وذكائها وحصافتها، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة.

(الآية ٣٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾: أي: فلمّا جاء رسول بلقيس إلى سليمان عليه السلام بالهديّة.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾: فأيُّ هديّة هذه، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي؟!.

﴿بَلۡ﴾: يعني: إضراب عن الكلام السّابق.

﴿أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾: أضاف الهديّة إليهم، لا إليه هو، والإضافة تأتي إمّا بمعنى: اللّام، مثل: قلم زيد، يعني: لزيد، أو: بمعنى: من، مثل: كيس قمح، يعني: من قمح، فقوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾: إمّا أن يكون المراد: هديّة لكم؛ أي: أنتم تفرحون إنْ جاءتكم هديّة من أحد، أو: لأنّني سأردُّها إليكم فتفرحون بردِّها، أو: هديّة منكم؛ أي: أنّكم تفرحون إنْ أهديتم لي هديّة فقبلتُها منكم.

(الآية ٣٧) - ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾:

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: نذكر أنّ الملكة قالت: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، فكأنّه يستشعر نصَّ ما قالت، وينطق عن إشراقات النّبوّة

فيه، وهكذا دخلتْ المسألة في طَوْر المواجهة؛ لأنّ كلامنا كلام النّبوّة الّتي لا تقبل المساومة، لا كلام الملك الّذي يسعى لحطام الدّنيا.

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: تقول: لا قِبَل لي بكذا، يعني: لا أستطيع مقابلته، وأنا أضعف من أنْ أقابله، أَوْ: لا طاقة لي به.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾: وكأنّه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، وهذه أيضاً من إشراقات النّبوّة، فهو سيخرجهم منها أذلّة؛ لأنّه سيسلب مُلْكهم، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً، ثمّ يزيد في حِدّته عليهم.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: لأنّهم قد يقبلون حالة العبوديّة وعيشة الرّعيّة، فزاد: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ لأنّ الصَّغَار لا يكون إلّا بالقَتْل والأَسْر والإهانة.

(الآية ٣٨) - ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣٨﴾:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ﴾: الملأ: أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرّأي فيهم.

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾: هنا أيضاً مظهر من إشراقات النّبوّة عند سليمان عليه السلام، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديّتهم، وأنّهم سيسارعون إلى الإسلام، فردُّ الهديّة يعني أنّنا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه، لا أصحاب مصلحة، ولمّا علم أنّهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فلا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش، وحَمْله

إلى مملكة سليمان، ثمّ إعادة تركيبه عنده، وهذه مهمّة فوق قدرة البشر؛ لذلك لم يتكلّم منهم أحد، حتّى الجنّ العاديّ لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمّة.

(الآية ٣٩) - ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾:

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾: الجنّ في القدرة والمهارة مثل الإنس، منهم القويّ الماهر، ومنهم العَييّ الّذي لا يُجيد شيئاً، وكلمة عفريت: من تعفير التّراب، وكانوا حينما يتسابقون في العَدُو بالخيل أو غيرها، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار في وجه الآخر فيُعطّله عن السَّبْق، فقالوا: عفريت، يعني عفَّر مَن وراءه، أو: المعنى أنّه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتّراب، فسُمِّي: عفريتاً، فالعفريت: هو الخبيث الماكر من الجنّ، وصاحب القوّة الخارقة فيهم، وهو الّذي تعرَّض لهذه المهمّة، وقال:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾: هذا كلام مُجْمل؛ لأنّ مقام سليمان بين رعيّته للحكم أو للمدارسة سوف يستغرق وقتاً: ساعة أو ساعتين مثلاً، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتي بالعرش في هذا الوقت، يعني: لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى.

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾: يدلّ على أنّ هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته، وأنّه شيء نفيس يستحقّ الاعتناء به، خاصّة في عمليّة نقله؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته: "أنا عليه قويّ، قادر على حَمْله"، ومن ناحية نفاسته وفخامته، "فأنا عليه أمين، لن أُبدِّد منه شيئاً".

ثمّ تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن الكريم إلّا بالوصف:

(الآية ٤٠) - ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: الطّرف: الجِفْن الأعلى للعين.

تكلّم العلماء في هذه الآية: أوّلاً: قالوا: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ يُراد به اللّوح المحفوظ، يُعلم الله سبحانه وتعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللّوح المحفوظ، أمّا الّذي عنده علم من الكتاب، فقال بعض العلماء: هو آصف بن برخيا، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله سبحانه وتعالى على أسرار الكون، وقال آخرون: بل هو سليمان عليه السلام، لمّا قال له العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قال هو: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ لأنّه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان عليه السلام في معرفة الكتاب، لكن رَدُّوا عليهم بأنّ من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيّته هذا العلم، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم في مملكة سليمان ومُسخّر له، كما أنّ المزايا لا تقتضي الأفضليّة، وليس شَرْطاً في الملك أنْ يعرف كلّ شيء، وفَرْق كبير في القدرات بين مَنْ يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه، وبين مَنْ يأتي به في طَرْفة عين، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوّة، والزّمن يتناسب مع القوّة تناسباً عكسيّاً:

فكلّما زادت القوّة قَلَّ الزّمن، وما دام الزّمن يتناسب مع القوّة، فلا ننسب الحدث إلى سليمان عليه السلام أو أحد حاشيته، إنّما إلى ربّ سليمان جل جلاله.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾: أي: العرش.

﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾: إمّا لأنّه أقدره على الإتيان به بنفسه، أو سخّر له مَنْ عنده علم من الكتاب، فأتاه به، فهذه أو ذلك فضل من الله عز وجل.

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾: يختبرني.

﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾: يعني: أشكر الله سبحانه وتعالى فأُوفَّق في هذا الاختبار؟ أم أكفر بنعمة الله عز وجل فأخفق فيه؟ لأنّ الاختبار إنّما يكون بنتيجته، والشّكر بأن ينسب الإنسان النّعمة إلى المنعم، وألّا يلهيه جمال النّعمة عن جلال واهبها ومُسْديها، فيقول مثلاً: إنّما أوتيته على علم عندي.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾: أي: أنّ الله سبحانه وتعالى لا يزيده شُكْر النّاس شيئاً، فله سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد، فمَنْ يشكر فإنّما يعود عليه، وهو ثمرة شُكْره.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: يعني: جحد النّعمة، ولم يشكر المنعم.

﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾: أي: عن شكره.

﴿كَرِيمٌ﴾: أي: يعطي عبده مع ما كان منه من جحود وكفر بالنّعمة؛ لأنّ نعمه سبحانه وتعالى كثيرة لا تُعَدُّ، وهذا من حِلمه جل جلاله ورأفته بخَلْقه، لذلك لمّا نتأمّل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وقد تكرّرت هذه العبارة بنصِّها في آيتين من كتاب الله عز وجل، ممّا جعل بعضهم

يرى فيها تكراراً لا فائدة منه، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كلّ منهما لوجدناه مختلفاً، فالأولى تُختتم بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، والأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النّحل: من الآية ١٨]، فهما متكاملتان، فالأولى تبيّن ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله ﷻ عليه ويجحدها، وتضيف الأخرى أنّ الله ﷻ مع ذلك غفور لعبده رحيم به، كما نلحظ في الآية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، استخدم (إنْ) الدّالّة على الشّكّ؛ لأنّ أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نِعَم الله ﷻ في الكون، فهي فوق الحصر؛ لذلك لم يُقْدِم على هذه المسألة أحد، مع أنّهم بوسائلهم الحديثة أحصُوا كلّ شيء إلّا نعم الله ﷻ لم يتصَدَّ لإحصائها أحد في معهد أو جامعة ممّن تخصّصت في الإحصاء، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرّمل في الصّحراء، كما نقف عند قوله ﷻ: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، ولم يقُلْ: نِعَم الله، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة؛ لأنّ تحتها نِعَم كثيرة لو تتبّعتها لوجدتها فوق الحصر.

(الآية ٤١) - ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾:

﴿قَالَ نَكِّرُواْ﴾: ضدّه: عرِّفوا؛ لأنّه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها في سبأ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو، ولم يظهر له ذكاؤها؛ لذلك قال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، يعني: غيّروا بعض معالمه.

﴿أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾: تهتدي إيماناً إلى الإسلام، أو تهتدي عقليّاً إلى الجواب في مسألة العرش.

(الآية ٤٢) - ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ۝٤٢﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ﴾: جاء السّؤال بهذه الصّيغة:

﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾: ليُعمِّي عليها أمر العرش، وليختبر دقّة ملاحظتها، فلو قال لها: أهذا عرشك؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنّما: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾، كأنّه يقول: ليس هذا عرشك، فلمّا نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنّه عرشها، فلمّا رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنّتْ أنّه غيره؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسيّاً يحتمل هذه وهذه، فقالت:

﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾: وعندها فهم سليمان عليه السلام أنّها على قَدْر كبير من الذّكاء والفِطْنة وحصافة الرّأي.

﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾: فيحتمل أنْ يكون هذا الكلام امتداداً لقوْل بلقيس، يعني: أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة، وعرفنا أنّك نبيّ لـمّا رددتَ إلينا الهديّة، وقلت ما قلت، فلم نكُنْ في حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك، ويُحتمل أنّها من كلام سليمان عليه السلام.

(الآية ٤٣) - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾: المعنى: صدَّها ما فعل سليمان من أحداث، وما أظهر لها من آيات، صدَّها عن الكفر الّذي أَلِفَتْه.

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾: فصدَّها سليمان عليه السلام بما فعل عمّا كانت تعبد من غير الله عز وجل.

(الآية ٤٤) - ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿قِيلَ لَهَا﴾: مرّة يقول ﷻ: (قال)، ويكون سليمان هو الّذي يتحدّث، ومرّة: (قيل) مبني للمجهول، فقد يكون المتكلّم الحرس الموجودين عند سليمان عليه السلام.

﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾: الصَّرْح: إمّا أن يكون القصر المشيد الفخم، وإمّا أن يكون البهو الكبير الّذي يجلس فيه الملوك، مثل: إيوان كسرى مثلاً، فلمّا دخلتْ:

﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: ظنّته ماءً.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾: والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعمليّة آليّة قَسْريّة حتّى لا يصيبه البلَل؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها، يعني: رفعتْ ذَيْل ثوبها، وهنا نبّهها سليمان عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾: يعني: ادخلي لا تخافي بللاً، فهذا ليس لُجّة ماء، إنّما صَرْح مبنيٌّ من الزّجاج، بحيث يتموّج الماء من تحته بما فيه من أسماك.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: بالكفر أوّلاً، وبظنِّ السّوء في سليمان عليه السلام، وأنّه يريد أنْ يُغرقني في لجّة الماء.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ويبدو أنّها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلّا هذه المرّة، وأنّ القول السّابق: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ كان من كلام سليمان عليه السلام.

وقولها: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مثل قول سَحَرة فرعون لـمّا رأوا المعجزة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: من الآية ٧٠]؛ لأنّ الإيمان إنّما يكون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرّسول دالّ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لذلك قالت: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾، ولم تقُلْ: (أسلمتُ لسليمان)، لقد دانتْ له، واقتنعتْ بنبوّته، لكنّ كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له، وتعلن إسلامها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع سليمان؛ لأنّه السّبب في ذلك، وكأنّها تقول له: لا تظنّ أنّي أسلمتُ لك، إنّما أسلمتُ معك، فأنا وأنت سواء، لا يتعالى أحد منّا على الآخر، فكلانا عبد لله عَزَّوَجَلَّ.

وقد دخل هذه القصّة بعض الإسرائيليّات، وكلّها افتراءات وأكاذيب لا تليق بمقام النّبوّة، ولا صحّة لها على الإطلاق.

ثمّ يأتي بنا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى نبيّ آخر في موكب الأنبياء:

(الآية ٤٥) - ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥﴾:

مرَّتْ بنا قصّة نبيّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه ثمود في سورة الشّعراء، وأعاد القرآن الكريم ذكر هذه القصّة هنا؛ لأنّه يقصُّ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده، كلّما تعرّض لأحداث تُزلزل الفؤاد، فيعطيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّجْم من القرآن؛ أي: العدد من الآيات، بما يناسب الظّروف الّتي يمرُّ بها، وهذا ليس تكراراً للأحداث، إنّما توزيع للقطات، بحيث إذا تجمّعتْ تكاملتْ في بناء القصّة.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾: لا بُدَّ أنّه أرسل بشيء، ما هو؟

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: لذلك سُمِّيت: (أنْ) التّفسيريّة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: من الآية ٧]، ماذا أوحينا؟ الجواب: ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: من الآية ٧].

﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾: الاختصام: أنْ يقف فريق منهم ضدّ الآخر، والمراد أنّ فريقاً منهم عبدوا الله ﷻ وأطاعوه، والفريق الآخر عارض وكفر بالله ﷻ.

وقد وقف عند هذه الآية بعض الّذين يحبّون أنْ يتهجّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن الكريم، وهم يفتقدون الملَكة العربيّة الّتي تساعدهم على فَهْم كلام الله ﷻ، وإنْ تعلّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ﷻ، وفيهم خُبْث وسُوء نيّة، واعتراضهم أنّ: ﴿فَرِيقَانِ﴾ مثنّى، و: ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ دالّة على الجمع، فلماذا لم يَقُل: يختصمان؟ وهذه لغة القرآن الكريم في مواضع عدّة، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: من الآية ٩]، والقياس يقتضي أن يقول: اقتتلتا، لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أنّ الطّائفة جماعة مقابل جماعة أخرى، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السّلاح، لا أن تتقدّم الطّائفة بسيف واحد، فهم في حال القتال جماعة، لذلك قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بصيغة الجمع، أمّا في البداية وعند تقرير القتال فلكُلٍّ طائفة منهما رأْيٌ واحد يعبّر عنه قائد هذه المجموعة، فهما في هذه الحالة مثنى، وهنا أيضاً: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ﴾؛ أي:

مؤمنون وكافرون، ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾؛ لأنّ كل فرد في هذه الجماعة يقف في مواجهة فرد من الجماعة الأخرى.

والله ﷻ لا يرسل الرّسل إلّا على فساد في المجتمع، فهناك مجتمع طمّ وعمّ فيه الفساد، والنّفوس الأمّارة بالسّوء الّتي أبت أن تأخذ بأيّ شيء من الصّلاح في هذا الكون هي الّتي كفرت بهذا النّبيّ، فالخصومة في الدّنيا بين مؤمن وكافر، أمّا في الآخرة فبيّن الكافرين بعضهم بعضاً، بين الّذين أَضَلُّوا والّذين أُضِلُّوا، بين الّذين اتَّبعُوا، والّذين اتُّبِعوا.

(الآية ٤٦) - ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾: لمّا ذُكِرت قصّة ثمود في الشّعراء، لم تذكر شيئاً عن استعجال السّيّئة، فما هي السّيّئة الّتي استعجلوها وربّهم ﷻ يلومهم عليها؟ الجواب: هي استعجالهم نزول العذاب بهم، فلماذا تستعجلون السّيّئة والعذاب؟ وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة، واستعجالكم السّيّئة يحول بينكم وبين الحسنة؛ لأنّها لن تُقبل منكم.

(الآية ٤٧) - ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾: اطَّيَّر: استعمل الطّير، وهذه عمليّة كانوا يلجؤون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً، فكان الواحد منهم يُمسك بالطّائر ثمّ يرسله، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل،

وإنْ طار ناحية الشّمال تشاءم، وامتنع عمّا هو قادم عليه، يُسمُّونها السّانحات والبارحات، فالمعنى: تشاءمنا منك، وممَّنْ اتّبعك.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾: يعني: قضاء مقضيٌّ عليكم، وليس للطّير دَخْل في أقداركم، وما يجري عليكم من أحكام، فكيف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم؟ إنّما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله ﷻ قضاء يقضيه، وفي آية سورة يس: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: من الآية ١٩]، يعني تشاؤمكم هو كفركم الّذي تمسّكتم به، لكن، لماذا جاء التّشاؤم هنا، ونبيّهم يدعوهم إلى الله ﷿؟ قالوا: لأنّه بمجرّد أنْ جاءهم عارضوه، فأصابهم قحْط شديد، وضنَّتْ عليهم السّماء بالمطر، فقالوا: هو الّذي جَرَّ علينا القَحْط والخراب.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾: الفتنة: بمعنى الاختبار والابتلاء.

(الآية ٤٨) - ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾:

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾: هذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصّة لم تُذكَر في سورة الشّعراء، فالقَصَص القرآنيّ كلّه، لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطاتٍ متفرّقة، جاءت كلٌّ منها لتُضيف جديداً، وتُعالج أمراً يُناسب النّجم القرآنيّ الّذي نزل لتثبيت رسول الله ﷺ.

والرَّهْط: اسم جمع، لا واحدَ له من لفظه، ويدلّ على العدد من الثّلاثة إلى العشرة، فمعنى: ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾، كأنّهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل، قبيلة فلان وقبيلة فلان.. إلخ.

﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: فلماذا قال بعدها: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؟ قالوا: لأنّ الإنسان قد يُفسد في شيء، ويُصلح في آخر، كالّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وهؤلاء عسى الله ﷻ أنْ يتوبَ عليهم، أمّا هؤلاء القوم، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصّلاح، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه، فكأنّهم مُصِرُّون على الإفساد، وللإفساد قوم ينتفعون به، لذلك يدافعون عنه ويعارضون في سبيله أهل الإصلاح والخير؛ لأنّهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة، وقلنا: إنّ صاحب الدّين والخلق والمبادىء في أيِّ مصلحة تراه لا يمكن أن يكون مُفسِداً، والمفسدون هم الّذين يتتبّعونه بالهَمْز واللّمز، فالّذي وقف في وجه الرّسل هم هذه الطّائفة المنتفعة بالفساد.

(الآية ٤٩) - ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾:

﴿قَالُواْ﴾: أي: الرّهط.

﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾: تعاهدوا وأقسموا بالله ﷻ أنْ يقتلوا رسول الله، الّذي هو صالح عليه السلام، وهذا دليل غبائهم، وكأنّ الحقّ ﷻ يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقِلّة عقولهم.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: نُبيّته: نجعله ينام باللّيل، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه، ثمّ يعاود الحركة بالاستيقاظ في الصّباح، لكنّ هؤلاء يريدون أنْ يُبيّتوه بيتوتة لا قيامَ منها، والمعنى: نقتله، فإذا ما جاء أولياء الدّم يطالبوننا بدمه، قلنا لهم:

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: وليّ الدّم من عُصْبته ورحمه.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: أي: ما شهدنا مقتل أهله، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله، ولا نعرف عنه شيئاً.

هذا ما دبّره القوم لنبيّ الله صالح عليه السلام، يظنّون أنّ الله سبحانه وتعالى يُسْلِم رسوله، أو يُمكِّنهم من قتله، فحاكوا هذه المؤامرة، ولم يفتهم تجهيز الدّفاع عن أنفسهم حين المساءلة، هذا مكرهم وتدبيرهم.

(الآية ٥٠) - ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾: أي: ما دبّروه لقتل نبي الله ورسوله إليهم.

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: وفَرْق بين مكر الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: من الآية ٥٤]، وبين مكْر الكافرين: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: من الآية ٤٣]، فحين تمكر بخير، لا يُعَدُّ مكْراً، إنّما إبطال لمكْر العدوّ، فلا يجوز لك أنْ تترك عدوّك يُدبِّر لك ويمكُر بك، وأنت لا تتحرّك؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]؛ لأنّهم يمكرون بشرٍّ، ونحن نمكر لدفع هذا الشّرّ لِنُصْرة رسولنا، ونجاته من تدبيرهم.

والمكْر: مأخوذ من قولهم: شجرة ممكورة، وهذا في الشّجر رفيع السَّاق المتسلّق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه، بعضها على بعض، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها، فكُلٌّ منها ممكور في الآخر مستتر فيه، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: أي: أنّه مكْر محبوك ومحكم، بحيث لا يدري به الممكور به، وإلّا لا يكون مَكْراً.

وحين نتأمّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤٣]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: من الآية ٥٤]، نعلم أنّ المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته، إنّما بالغاية من ورائه، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الظّنّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: من الآية ١٢]، فالظّنّ منه الخيِّر ومنه السّيّىء.

(الآية ٥١) - ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾:

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾: أي: تأمّل ما حاق بهم لـمّا مكروا بنبيّ الله، واتّفقوا على التّبييت له وقَتْله، يُرْوى أنّهم لـمّا دخلوا عليه أُلْقي على كلّ واحد منهم حجر لا يدري من أين أتاه، فهلكوا جميعاً، فقد سخّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له ملائكة تولّتْ حمايته والدّفاع عنه، أو: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت، وهناك مات عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسُمِّيت حضرموت، وآخرون قالوا: بل ذهبوا ينتظرونه في سفح جبل، واستتروا خلف صخرة ليُوقِعوا به فسقطت عليهم الصّخرة فماتوا جميعاً، والمهمّ، أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دمّرهم بأيِّ وسيلة من هذه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدّثر: من الآية ٣١]، لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه، فأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(الآية ٥٢) - ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾: دليل على أنّ الله سبحانه وتعالى أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: عبرة وعظة.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي مقابل إهلاك الكافرين:

(الآية ٥٣) - ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾:

فمن آمن واتّقى من قوم صالح عليه السلام نجّاه الله عز وجل من العذاب الّذي نزل بقومهم قوم ثمود.

انتهى الكلام هنا عن قصّة ثمود، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد في سورة الشّعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصّة النّاقة الّتي وردتْ هناك، ممّا يدلُّ على تكامل لقطات القصّة في السّور المختلفة. ثمّ يقصُّ علينا طرفاً من قصّة نبيّ آخر، وهو لوط عليه السلام:

(الآية ٥٤) - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾:

﴿وَلُوطًا﴾: جاءت منصوبة على أنّها مفعول به، والتّقدير: أرسلنا لوطاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النّمل: من الآية ٤٥].

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾: فذكر الدّاء الّذي استشرى فيهم، وفي سورة الأعراف قال ﷻ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: من الآية ٨٠]، وهنا قال: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: تتجاهرون بها، فدلَّ على أنّهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا، وأنّه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها، كما يجري اليوم تماماً من قوانين إباحة المثليّة والشّذوذ الجنسيّ في العالم الغربيّ.

وقال بعض المفسّرين: أو يكون المعنى: وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله ﷻ عليهم.

(الآية ٥٥) - ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾:

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾: هذا بيان وتفصيل للدّاء والفاحشة الّتي انتشرت بينهم، فمن المعلوم أنّ من فطرة الله ﷻ وجود ذكر وأنثى، وأنّ الالتقاء بالجنس يكون بين ذكر وأنثى، فهؤلاء قلبوا هذه الفطرة.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾: المقصود بالجهل هنا ليس ضدّ العلم، إنّما الجهل بمعنى: السَّفه، وبعض النّاس يظنّ أنّ الجهل ألّا تعلم، ولكن ألّا تعلم هو الأمّيّة، أمّا الجهل فأنْ تعلم قضيّة مخالفة للواقع؛ لذلك الأمّيُّ أسهل في الإقناع؛ لأنّه خالي الذّهْن، أمّا الجاهل فلديه قضيّة خاطئة، فيستدعي الأمر أن تنزع منه قضيّة الباطل، ثمّ تُدخِل قضيّة الحقّ.

❀ ❀ ❀

تَـمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ التّاسع عشر

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ الكريم نُوراً لا يُطْفَأُ مِصْبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجْعَلْنا ممَّن تَأَدَّبَ بآدابِ القُرآنِ الكريمِ، وائْتَمرَ بأوامرِه، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (الفُرْقَان) من الآية: (٢١–٧٧):

٢١- ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ ١١

٢٢- ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ ١٧

٢٣- ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ ١٧

٢٤- ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ ١٩

٢٥- ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ ٢١

٢٦- ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ ... ٢٢

٢٧- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ ٢٣

٢٨- ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ ٢٥

٢٩- ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ ٢٥

٣٠- ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ ... ٢٦
٣١- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا
وَنَصِيرٗا ٣١﴾ ٢٨
٣٢- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ
فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ ٣٠
٣٣- ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ ٣١
٣٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ
سَبِيلٗا ٣٤﴾ ٣١
٣٥- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥﴾ .. ٣٥
٣٦- ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦﴾ .. ٣٦
٣٧- ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا
لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾ ٣٦
٣٨- ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾
.... ٣٩
٣٩- ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾ ٤٠
٤٠- ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ
كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾ ٤١
٤١- ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ .. ٤٢

٤٢- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ٤٢
٤٣- ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ٤٣
٤٤- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ ٤٦
٤٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ
عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ ٤٧
٤٦- ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ٥٠
٤٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾
.... ٥١
٤٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ ٥٣
٤٩- ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾
.... ٥٤
٥٠- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ ... ٥٥
٥١- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ ٥٥
٥٢- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ ٥٦
٥٣- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ ٥٧

٥٤- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ ٥٩
٥٥- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ ٦١
٥٦- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ ٦٣
٥٧- ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ ٦٤
٥٨- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ ٦٥
٥٩- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ٦٧
٦٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ ٧١
٦١- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ .. ٧٢
٦٢- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ ٧٤
٦٣- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ ٧٦
٦٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ ٧٩

٦٥- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ ٨٠
٦٦- ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ ٨١
٦٧- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ .. ٨٢
٦٨- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ ٨٣
٦٩- ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ ٨٥
٧٠- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ ٨٦
٧١- ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ ٨٧
٧٢- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ ... ٨٨
٧٣- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ ٨٩
٧٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ ٩٠
٧٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ .. ٩١
٧٦- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ ٩٣
٧٧- ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ ٩٣

تفسير سورة (الشّعراء) من الآية: (١-٢٢٧):

١- ﴿طسٓمٓ ١﴾ ٩٧

٢- ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ ٩٨

٣- ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ ٩٨

٤- ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ ٩٩

٥- ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥﴾ ١٠١

٦- ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ ١٠١

٧- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧﴾ ١٠٢

٨- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾ ١٠٤

٩- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ ١٠٤

١٠- ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ ١٠٥

١١- ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾ ١٠٦

١٢- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢﴾ ١٠٦

١٣- ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ ١٠٧

١٤- ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ ١٠٧

١٥- ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾ ١٠٨

١٦- ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ ١٠٩

١٧- ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ ١١٠

١٨- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ ١١٠

١٩- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)﴾ ١١١

٢٠- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾ ١١١

٢١- ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾ ... ١١٢

٢٢- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾ ١١٢

٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)﴾ ١١٢

٢٤- ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)﴾ ١١٢

٢٥- ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)﴾ ١١٣

٢٦- ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦)﴾ ١١٤

٢٧- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ ١١٤

٢٨- ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ ١١٤

٢٩- ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ ١١٤

٣٠- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠)﴾ ١١٥

٣١- ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾ ١١٥

٣٢- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢)﴾ ١١٥

٣٣- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)﴾ ١١٧

٣٤- ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾ ١١٧

٣٥- ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ ١١٨

٣٦- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ ١١٨

٣٧- ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ ١١٨

٣٨- ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ ١١٩

٣٩- ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾ ١١٩

٤٠- ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ ١١٩

٤١- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾ ١٢٠

٤٢- ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ ١٢٠

٤٣- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣﴾ ١٢٠

٤٤- ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ ١٢١

٤٥- ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾ ١٢١

٤٦- ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾ ١٢٢

٤٧- ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ ١٢٣

٤٨- ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾ ١٢٣

٤٩- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ ١٢٣

٥٠- ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠﴾ ١٢٤

٥١- ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ ١٢٥

٥٢- ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢﴾ ١٢٥

٥٣- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣﴾ ١٢٦
٥٤- ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ ١٢٦
٥٥- ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥﴾ ١٢٦
٥٦- ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝٥٦﴾ ١٢٦
٥٧- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾ ١٢٧
٥٨- ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ ١٢٧
٥٩- ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾ ١٢٧
٦٠- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ ١٢٧
٦١- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ ١٢٨
٦٢- ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ ١٢٨
٦٣- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ ١٢٨
٦٤- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤﴾ ١٢٩
٦٥- ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥﴾ ١٣٠
٦٦- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ ١٣٠
٦٧- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ ١٣٠
٦٨- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ ١٣١
٦٩- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ ١٣١

٧٠- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠﴾ ١٣٤

٧١- ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ ١٣٥

٧٢- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٢﴾ ١٣٦

٧٣- ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ ١٣٦

٧٤- ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤﴾ ١٣٦

٧٥- ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥﴾ ١٣٦

٧٦- ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ٧٦﴾ ١٣٦

٧٧- ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ ١٣٦

٧٨- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾ ١٣٧

٧٩- ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩﴾ ١٣٨

٨٠- ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ ١٣٨

٨١- ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١﴾ ١٣٩

٨٢- ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ ١٤٠

٨٣- ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ ١٤١

٨٤- ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ٨٤﴾ ١٤١

٨٥- ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ ١٤٢

٨٦- ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ ١٤٣

٨٧- ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٨٧﴾ ١٤٤

٨٨- ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ ١٤٤
٨٩- ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ ١٤٥
٩٠- ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾ ١٤٧
٩١- ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾ ١٤٧
٩٢- ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢﴾ ١٤٨
٩٣- ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣﴾ ١٤٨
٩٤- ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ ١٤٨
٩٥- ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥﴾ ١٤٩
٩٦- ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦﴾ ١٤٩
٩٧- ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧﴾ ١٤٩
٩٨- ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ ١٤٩
٩٩- ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ ١٥٠
١٠٠- ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ ١٥٠
١٠١- ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ ١٥٠
١٠٢- ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾ ١٥٢
١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ ١٥٣
١٠٤- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ ١٥٣
١٠٥- ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ ١٥٤
١٠٦- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦﴾ ١٥٥

١٠٧- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ ١٥٧
١٠٨- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ ١٥٧
١٠٩- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ١٥٧
١١٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ ١٥٨
١١١- ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ ١٥٨
١١٢- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ١٥٩
١١٣- ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ١٥٩
١١٤- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ١٥٩
١١٥- ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ ١٦٠
١١٦- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ ١٦٠
١١٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ ١٦٠
١١٨- ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ ١٦١
١١٩- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ ١٦٢
١٢٠- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ١٦٣
١٢١- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ ١٦٣
١٢٢- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ ١٦٤
١٢٣- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ ١٦٤
١٢٤- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ ١٦٤

١٢٥- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ ١٦٥

١٢٦- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ ١٦٥

١٢٧- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ ١٦٥

١٢٨- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ ١٦٥

١٢٩- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ ١٦٧

١٣٠- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ ١٦٧

١٣١- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ ١٦٨

١٣٢- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ ١٦٩

١٣٣- ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ ١٦٩

١٣٤- ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ ١٦٩

١٣٥- ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ ١٦٩

١٣٦- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ١٧٠

١٣٧- ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ١٧٠

١٣٨- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ ١٧١

١٣٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ١٧١

١٤٠- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ ١٧٢

١٤١- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ ١٧٣

١٤٢- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ ١٧٤

١٤٣- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣﴾ ١٧٤
١٤٤- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤﴾ ١٧٤
١٤٥- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٤٥﴾ ١٧٤
١٤٦- ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ١٤٦﴾ ١٧٤
١٤٧- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧﴾ ١٧٥
١٤٨- ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨﴾ ١٧٥
١٤٩- ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ١٤٩﴾ ١٧٧
١٥٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠﴾ ١٧٧
١٥١- ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١﴾ ١٧٧
١٥٢- ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢﴾ ١٧٨
١٥٣- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ ١٧٨
١٥٤- ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤﴾ ١٧٩
١٥٥- ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ١٥٥﴾ ١٧٩
١٥٦- ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦﴾ ١٧٩
١٥٧- ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧﴾ ١٨٠
١٥٨- ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨﴾ .. ١٨٠
١٥٩- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩﴾ ١٨٠
١٦٠- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٦٠﴾ ١٨١

١٦١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١﴾ ١٨١
١٦٢- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢﴾ ١٨١
١٦٣- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣﴾ ١٨١
١٦٤- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٤﴾ ١٨١
١٦٥- ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥﴾ ١٨١
١٦٦- ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ ١٨١
١٦٧- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾ ١٨٢
١٦٨- ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ١٦٨﴾ ١٨٢
١٦٩- ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾ ١٨٣
١٧٠- ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾ ١٨٣
١٧١- ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٧١﴾ ١٨٣
١٧٢- ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ١٧٢﴾ ١٨٣
١٧٣- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ١٧٣﴾ ١٨٣
١٧٤- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧٤﴾ ١٨٤
١٧٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٧٥﴾ ١٨٤
١٧٦- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ١٧٦﴾ ١٨٤
١٧٧- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ ١٨٥
١٧٨- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨﴾ ١٨٥

١٧٩- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾ ١٨٥
١٨٠- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨٠﴾ ١٨٥
١٨١- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ١٨١﴾ ١٨٦
١٨٢- ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ١٨٢﴾ ١٨٦
١٨٣- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣﴾ ١٨٧
١٨٤- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ ١٩٠
١٨٥- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾ ١٩١
١٨٦- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ١٨٦﴾ ١٩١
١٨٧- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٨٧﴾ ١٩٢
١٨٨- ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨﴾ ١٩٢
١٨٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ ١٩٢
١٩٠- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٩٠﴾ ١٩٣
١٩١- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٩١﴾ ١٩٤
١٩٢- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٢﴾ ١٩٤
١٩٣- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣﴾ ١٩٥
١٩٤- ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٤﴾ ١٩٨
١٩٥- ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ ٢٠٠
١٩٦- ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ ٢٠١

١٩٧- ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ ٢٠٢
١٩٨- ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨﴾ ٢٠٣
١٩٩- ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ ٢٠٣
٢٠٠- ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠﴾ ٢٠٤
٢٠١- ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١﴾ ٢٠٤
٢٠٢- ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾ ٢٠٤
٢٠٣- ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾ ٢٠٤
٢٠٤- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤﴾ ٢٠٤
٢٠٥- ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ ٢٠٥
٢٠٦- ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦﴾ ٢٠٥
٢٠٧- ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ ٢٠٥
٢٠٨- ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ ٢٠٥
٢٠٩- ﴿ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ ٢٠٥
٢١٠- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾ ٢٠٦
٢١١- ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾ ٢٠٦
٢١٢- ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ ٢٠٧
٢١٣- ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾ ٢٠٧
٢١٤- ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ ٢٠٨

٢١٥- ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ ٢٠٩
٢١٦- ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ ٢٠٩
٢١٧- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ ٢١٠
٢١٨- ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ ٢١٠
٢١٩- ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ ٢١١
٢٢٠- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ ٢١١
٢٢١- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ ٢١٢
٢٢٢- ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ ٢١٢
٢٢٣- ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ٢١٢
٢٢٤- ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ ٢١٣
٢٢٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ ٢١٣
٢٢٦- ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ ٢١٣
٢٢٧- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ٢١٤

تفسير سورة (النّمل) من الآية: (١-٥٥):

١- ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ ٢٢٢
٢- ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ ٢٢٤
٣- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ ٢٢٥

٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾ ٢٢٧
٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ ٢٢٩
٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ ٢٢٩
٧- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ ٢٢٩
٨- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾ ٢٣٣
٩- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ ٢٣٥
١٠- ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ ٢٣٥
١١- ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١﴾ ٢٣٧
١٢- ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ ٢٣٨
١٣- ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ ٢٤٠
١٤- ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾.. ٢٤٠
١٥- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ ٢٤١
١٦- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ ٢٤٢

١٧- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾
.... ٢٤٤

١٨- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ ٢٤٥

١٩- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾
.... ٢٤٨

٢٠- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ ... ٢٥٠

٢١- ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١﴾ .. ٢٥١

٢٢- ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ
يَقِينٍ ٢٢﴾ ٢٥٢

٢٣- ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٢٣﴾
.... ٢٥٤

٢٤- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ٢٤﴾ ٢٥٥

٢٥- ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ٢٥﴾ ٢٥٦

٢٦- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ ٢٥٧

٢٧- ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٧﴾ ٢٥٧

٢٨- ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٢٥٨

٢٩- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ٢٥٨

٣٠- ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ ٢٥٩

٣١- ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ٢٥٩

٣٢- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ ... ٢٥٩

٣٣- ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾
.... ٢٦٠

٣٤- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٦٠

٣٥- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٦١

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ٢٦٢

٣٧- ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾
.... ٢٦٢

٣٨- ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ٢٦٣

٣٩- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾
.... ٢٦٤

٤٠- ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ
مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٦٥

٤١- ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ ... ٢٦٧
٤٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾
.... ٢٦٨
٤٣- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٦٨
٤٤- ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ
مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .. ٢٦٩
٤٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٧٠
٤٦- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٧٢
٤٧- ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾
.... ٢٧٢
٤٨- ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾
.... ٢٧٣
٤٩- ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٧٤
٥٠- ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٧٥
٥١- ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾
.... ٢٧٦

٥٢- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾
.... ٢٧٧
٥٣- ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾ ٢٧٧
٥٤- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٥٤﴾ ٢٧٧
٥٥- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ٥٥﴾
.... ٢٧٨
تضرّعٌ ودعاء ٢٧٩
فهرس: ٢٨١

❀ ❀ ❀